

# التصوف والمعرفة في مواجهة الإسلام

عبد الكريم الخطيب



ملازم الطبع والنشر  
دار الفكر العربي



عبد الكريم الخطيب

# التَّصَوُّفُ وَالْمُتَصَوِّفَةُ

في مواجهة الإسلام

الطبعة الأولى

١٩٨٠

مكتبة الطبع والنشر  
دار الفكر العربي

دار الاتحاد العربى للطباعة  
لصاحبها : محمد عبد الرازق  
١٩ كنيسة الأرمن ش الجينس  
تليفون ٩٣٤٠٩٨



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين .. وصلى الله على سيدنا محمد ، إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، السراج المنير ، والرحمة المهداة ، أرسله الله تعالى على فترة من الرسل : كانت الإنسانية فيها قد ارتسخت في الضلال وغرقت في بحار الأهواء ، فأسلمت قيادها إلى الشيطان ، وأولياء الشيطان ، يزينون للناس المنكرات ، ويعمون عليهم سبيل الحق ، ويسوقونهم سوق الأنعام إلى حيث يقدمونهم للذبح قرباناً لأهوائهم وشهواتهم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه المؤذن بكلمات الحق سبحانه : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل ليعرفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »<sup>(١)</sup> فشرح الله بذلك صدوره ، وشفى قلوبنا ، وأقام من الناس للناس أئمة ، تتمثل فيهم الإنسانية الصبورة السكاملة للانسان في أعلى منازل وأصفي موارده ، .. فصلاوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، وعلى آلك ، وأصحابك ، والتابعين ، ومن اهتدى بهديك وتأسى بسيرتك ، وأحيا سننك ، إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «الدين النصيحة : الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. قالوا ابن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ورسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

أما النصيحة لله ، فهي في النصيح الديني . وفي الذود عن حياضه ، ودفع البدع والضلالات التي تساق إلى حماه الطهور ، فتعكر موارده ، وتطمس معالم الطريق إليه ، فيعشاه الذين يريدونه ، ويغفوه الذين يدينون به ، فلا يمدون منه الوازع الذي يقيمهم على حدوده ، ولا السلطان الذي يأثمرون بها أمر ، وينتهون عما نهى ..

وأما النصيحة للرسول ، فهي بإحباء سننه ، واتباع سبيله وإمساك لسان عن القول بما لم يقله ، من الأحاديث الموضوعة التي افتراها المفترون ، انقصاراً لمذهب باطل ، أو احتجاجاً لعقيدة فاسدة ..

وأما النصيحة لكتاب الله ، فتكون بتلاوة آياته وتدبرها ، والعمل بها ، والتصدي للتأويلات الباطلة التي يتأولها الباطنية ، والصوفية ، وغيرهم ، ممن يحادون الله ، ويتجرون بدين الله .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ، فهي بمناصرتهم بالحق ، وبإخلاص المشورة لهم ، والجهار بكلام الحق عندهم ، وتحذيرهم من يلوذ بهم من أهل الملق الذين يزينون لهم المنكرات ، ويغرونهم بالفواحش ، ويبهجون لهم ما حرم الله ، من دماء وأموال وأعراض ..

وأما النصيحة لعامة المسلمين ، فتكون بالدعوة إلى الخير ، وبالأمر

— ٥ —

بالمعروف والنهي عن المنكر : كما يقول تعالى : « ولعلكم منكم أمة  
يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم  
الفلحون » (١) .. وإن من النصيحة للمسلمين أن يكون المسلم في ذات نفسه  
أولاً — مثلاً كريماً لأهل الإيمان ، في الاستقامة على ما يدهو إليه الإسلام ،  
من أداء حقوق الله ، وحقوق العباد ، فلا يقصر فيما افترض الله تعالى عليه  
من فرائض ، ولا يتعدى حداً من حدود الله ، كما لا يقصر فيما للمواد من  
حقوق عليه ، ولا يتعدى على حرمة من حرمتهم .. فإن مثل هذا المسلم  
يكون مفارقة هدى ، يعيش الناس إلى ضوئها ، وراية خير يهتدون عليها ..

فإذا كان النصيحة لله ، ورسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين ، عامتهم ،  
دستوراً قائماً على المسلمين ، وعقداً موثقاً بينهم ، وسنة متبعة عندهم ، كان  
لهم عندئذ أن يروا في أنفسهم ما وصفهم الله تعالى به في قوله سبحانه :  
« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر  
وتؤمنون بالله » (٢) ..



وإذا كان النصيحة لله ورسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ،  
أمراً ملازماً واجباً على كل مسلم ، أباً كان مكانه في الجماعة الإسلامية ، فإن  
كان المسلم من أهل العلم والفقه بدين الله ، كان هذا الأمر بالنسبة إليه  
ألزم وأوجب ، ثم إنه إذا شاع الفساد ، واستشرى الشر ، وعم البلاء ، لم يكن  
هذا المفروض على العلماء فرض كفاية ، بل إنه يصبح فرض عين ، فإن

(١) سورة آل عمران : ١٠٤

(٢) سورة آل عمران : ١١٠

قهر عالم في أدائه كان حسابه عند الله عسيراً ، وجزاؤه من العذاب مضاعفاً ،  
وليس يقوم له عذر أنه لم يكن من أشياع هذا الفساد ، : لا من المشاركين في  
هذا الشر ، ولهذا وقعت لعنة الله على اليهود جميعاً ، عامتهم ، وربانهم  
وأحبائهم ، كما يقول تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان  
داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون  
عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » (١) .

ويقول رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه : « إن أول ما دخل  
النقص على بني إسرائيل ، أنه كان ياتي الرجل الرجل ، فيقول : يا هذا :  
الله الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحمل لك ، ثم يلتزم من الغد ، وهو على حاله  
فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشربه ، : قعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله  
قلوب بعضهم على بعض » ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « لعن  
الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما  
عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا  
يفعلون » ( رواه أبو داود والترمذي ) .



والأمة الإسلامية في يومنا هذا ، رقدت في العال وتغشتها  
الضلالات وتزاحمت عليها البدع التي تتوالد في سرعة مذهلة ، كما تتوالد  
الجرائم ، حتى تدهأت على المسلمين الأمم ، كما تدهأت الأكلة على قصعتها ،  
تمتص دماء الحياة فيهم ، وتصبغهم بألوان غريبة من أخلاقها ومعتقداتها ،  
وتسوقهم سوق الراعي لقطيعه — نقول : الأمة الإسلامية وتلك حالها في

يومئذ هذا ، هي أشد ما تسكون حاجة إلى الأساة الذين يعرفون إلى مواطن  
الأدواء منها ، وإلى الطب لعلك الأدوية ، حتى تنزاح عنها ، وتذهب أسقامها  
وتقتسم أنسام الصحة والعافية ، لتسترد ما سابت يد الأيام منها ، وإلا أخذها  
الله — لا قدر الله — بما أخذ به الأمم التي لعبت بها ربح الأهواء وأغرقتها  
أمواج الصلالات ، والله تعالى يقول : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة  
أنعمها على قوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم »<sup>(١)</sup> .

ويقول سبحانه : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظهروا ، وجعلنا لمهلكهم  
موعداً »<sup>(٢)</sup> ويقول جل شأنه : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها  
ففسدوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً »<sup>(٣)</sup> .

ويقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — « ليأمرن بالمرورف ،  
وانهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد الظالم ، وتطأرنه على الحق أطراً  
وتقتصرنه على الحق قصراً »<sup>(٤)</sup> أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم  
يلعنكم كما لعنهم — أي بني إسرائيل — في قوله تعالى : « لعن الذين كفروا  
من بني إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا  
فكانوا يعقدون ، كانوا لا يفتنوهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا  
يفعلون »<sup>(٥)</sup> .

(١) سورة الأنفال .

(٢) سورة الكهف : ٥٩ .

(٣) سورة الاسراء : ١٧ .

(٤) أطره أطراً على الشيء : حملة عليه ، بالقوة والفهر ، وقصره على

الشيء : الزمه إياه ، وأمسك به عليه .

(٥) سورة المائدة ٧٨ - ٧٩ .

وفي المجتمع الإسلامي طوائف كثيرة ، تضم في صفوفها اليوم ملايين من المسلمين ، تحت راية التصوف ، الذي يزاحم بمتصوفيه الجماعة الإسلامية في مساجدها ودور عباداتها ، دالا على نفسه بشارات مميزة لأتباعه بأزيائهم ، وعماهم ، وبمسيحاتهم ومجامع أذكارهم ، وما يصحب هذه الأذكار ، من تصفيق بالأيدى ، وضرب بالأرجل ، ورقص بالأجسام ، إلى غير ذلك مما يجري في عالم المتصوفة .

والناس في هذا بين منجذب إلى هذا الضرب من العبادة ، وفي حسابه أن هذا هو الطريق إلى الله ، وبين منكر له ، مشفق على أهله أن يحترقوا بناره ، كما يحترق الفراش بالنار !! وبين هؤلاء وهؤلاء من وقفوا من التصوف والمتصوفة موقف الحيرة والشك ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، يتنازعهم وعب ورهب . . رغب فيما ينخيل إليهم من خير يرجونه من وراء هذا الأفق الذي يبرق ببرق الأمانى الواعدة بغيوث الفتوحات والتجليات . . ورهب من أن يكون هذا البرق خلباً ، لا يجيء من ورائه إلا الصواعق المهلكة المدمرة .

ولو أن التصوف كان سلوكاً فردياً ، يعيش به المتصوف في حدود ذاته ، غير مرتبط بتلك السلسلة الطويلة : من الشيوخ ، والتلاميذ ، والمريدين ، لما لفت الأنظار إليه ، ولا شغل الناس به ، ولـسكان خيره أو شره محصوراً في دائرة أفراد هنا ، أو هناك ، في الجماعة الإسلامية ، دون أن يكون أمره مستحوذاً على جماعة كبيرة في الأمة الإسلامية ، كما هر مشهود اليوم من طوائف المتصوفة ، وما ينضوي تحت كل طائفة من ألوف مؤلفة ، لا يكاد يحصيها المحصون .

وأما التصوف ظاهرة بارزة ، تتحرك في المجتمع الإسلامي بسماتها ،  
وشاراتها ، وطقوس عباداتها — فإن تأثيرها في الجماعة الإسلامية ،  
لا يمكن تجاهله ، أو الاستغفاف بآثاره السيئة أو الحسنة : اجتماعياً ،  
واقتصادياً ، وسياسياً .

ومن هنا كان لا بد من دراسة هذه الظاهرة -- ظاهرة التصوف —  
الحادثة في الإسلام — والكشف عن صلتها بالإسلام ، وقرنها أو بعدها  
منه ، وذلك لكون المسلم على بيئة من أمره إزاء التصوف ، قبولاً أو  
رفضاً : « ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيى من حى عن بينة » ( سورة  
الأنفال : ٤٣ ) .



ودراستنا لهذه الظاهرة — ظاهرة التصوف -- ومعالجتنا لها في هذا  
البحث ، إنما هي محاولة منا للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ، وعن صلتها  
بالإسلام : وهل هذا التصوف يمثل المثل الأعلى للمسلم ، في الوصول إلى مقام  
القرب من ربه ، والتعرض لنفحات رحمته ، ومواقع رضوانه ، كما يقول  
المتصوفة . أم أنه بدعة حادثة في الإسلام ، يصدق عليها قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد »<sup>(١)</sup>  
وقوله — صلوات الله وسلامه عليه — : « من رغب عن سنتي فليس مني »<sup>(٢)</sup>  
وقوله : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ،  
تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل  
محدثه بدعة ، وكل بدعة ضلالة »<sup>(٣)</sup>



- 
- (١) الحديث عن عائشة ، كما أخرجه في الصحيحين .  
(٢) الحديث عن ابن عمر ، كما أخرجه البخارى .  
(٣) أخرجه الترمذى ، وقال هذا حديث حسن صحيح .



والأمر الذى يتناول هذا البحث ، هو أمر خطير ، يمس ضرراً من ضروب السلوك الذى يتخذ مظهرآ من مظاهر الدين ، والذى يتمثل لأصحابه منه ، أنه المثل الأعلى لهذا الدين ، ومن أربابه ومريديه ، يكون الأولياء والصالحون من عباد الله !!

ومن هنا كانت المسئولية أمام الله عظيمة فى الحكم على التصوف وأهله ، بما يحمد أو يذم من هذا الطريق وسالكيه .

ومن أجل هذا كان على ينصب نفسه للقضاء فى تلك القضية ، أن يتجرد ما استقطاع من الهوى ، وألا يتمجّل الحكم فيها ، لأية بادرة تبدو له من وجوه الحق أو الباطل ، فى التصوف والمقصوفة ، بل إن عليه واجباً ملزماً أن ينظر ، وأن يطيل النظر ، وأن يدرس هذه الظاهرة من جميع جوانبها ، وأن يرصد آثارها فى المجتمع الإسلامى ، منذ بدء ظهورها ، إلى يومنا هذا . فإذا اطمأن إلى كلمة الحق فى تلك الظاهرة ، أعلاها على الناس ، شهادة يلقى بها ربه ، ولا عليه أن يرضى من يرضى ، أو يستخط من يستخط ، فإن الحق أحق أن يتبع .

وأشهد أنى قد بذت غاية جهدى فى صرف النفس عن النظر إلى ما يرضى الناس أو يستخطهم ، فإن أكن قد أصبت موقع الحق ، ووفقت إليه ، فذلك من فضل الله ، وبهديه وتوفيقه ، وإن يكن الأمر على غير هذا ، فإني عجزى وتقصيرى ومن وراء ما انعوت وأردت : « وإنما الأعمال بالنيات » وإنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .



هذا . ولا بد من الإشارة فى هذا التقديم إلى حادثة جرت لى منذ

سنوات ، كان لها وقع شديد على المتصوفة ، كما كان لها وقع شديد أيضاً على المسؤولين من رجال الدولة ، الذين يخشون ثورة المتصوفة ، وإن كانوا على بغضه لهم !!

وكان ذلك منذ نحو أربع سنوات ، حيث كنت على موعد للقاء بعض الأصدقاء في مسجد الحسين ، رضى الله عنه ، عصر يوم من أيام رمضان ، وذلك لمشاهدة رجل يشيعون عنه أنه من أهل العلم اللدني ، يتكلم في تفسير القرآن ، وهو شبه أمي كما يزعمون .

ورأيت الرجل ، وسمعت بعض ما يقول ، فما رأيت منه إلا جهلاً ، وما سمعت منه إلا أخطأاً من الكلام ، يحملها الملتفون حوله أسراراً متلقاة من عالم الغيب ، كما يزعمون ، فيهللون له ، ويكبرون !

وتركت الرجل ، وسألني أحد أصدقائي : ما رأيك ؟ قلت : إما أن يكون الرجل صائداً أو صيداً !! قالوا : ما معنى هذا ؟ قلت : قد يكون الرجل مشعوذاً خدع هؤلاء الملتفتين حوله ، الهاتفين بولايته . . فهو صائد !! وإما أن يكون قد وقع في يد مشعوذ من هؤلاء المجمعين عليه ، ليستهو به الناس ، ويفرر بهم ، فهو صيد !!

وهنا اعترض على أحد الأصدقاء ، وقال : إنك تنسك كرامات الأولياء فقلت : أنا لا أنسك أن هناك أولياء لهم كرامات ، ولكن الذي أنسكه هو ادعاء الولاية لكل مخبول أو مجذوب !! ثم إن الولي لا ينسك على نفسه أنه ولي ، كما يفعل أصحاب الألعاب السحرية ، الذين يعرضون أعمالهم السحرية على الناس في الميادين والطرقات !!

وهنا هتف بي أحدهم قائلاً : وماذا تقول في هذا الحديث الشريف

المسكوب على الهاب الموصل إلى ضريح الحسين ، رضى الله عنه ؟ فقلت : أى حديث هذا ؟ قال : تعال انظر واقرأ !!

فدنوت من الهاب ، وإذا مكتوب على أعلاه ، بالخط البارز ، الموه بماء الذهب ما يأتى :

« عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال عن الحسين رضى الله عنه : الشفاء فى تربيته ، والاستعجابه تحت قبته ، والأئمة من ذريته أو عترته » .

وأشهد أنى وقفت مذهولاً ، ينتفض جسدى كله ، من وعشة كر عشة الحموم ، ثم ما كدت أجدنى قادراً على الحركة حتى انفلت من بين أصحابى من غير النفات إليهم ، إلى بيتى !

وفى البيت ، جلست مهموماً معمولاً ، لا أدرى ما ذا أفعل فى وجه هذا المنكر الغليظ ، الذى ينادى به فى الناس ، على مشهد وسميع من علماء الدين وشيوخ الأزهر ، وهو على بعد خطوات منهم ، لا ينكرونه ، ولا يطمسون معاملته !!

ثم نظرت فى كتب الأحاديث ، فلم أجد لهذا الحديث المسكوب مكاناً فى الصحيح ، أو الضعيف منها . . ثم نظرت بعد هذا فى الموضوعات ، فلم أجد له مكاناً فى الأحاديث الموضوعات !!

وهنا تأكد لى أن هذا مولود من مواليد الشؤم التى ولدت فى هذه الأيام ، على لسان المتصوفة ، أو الشيعة ، وهما على طريق واحد فى هذا الاتجاه الذى يعلى من شأن الأضرحة ، وادهاء الأكاذيب على الأموات الذين تضمهم تلك الأضرحة !

ولم أجد بداً من أن أعمل عملاً ، أبرئ به ذمتى ، وأستبرىء فيه لذيتى !

فكتبتم مقالا تحت عنوان : « إلا تفعلوه تسكن فقمة في الأرض وفساد كبير » . وتناولات في المقال كذب هذا الكلام المكتوب على باب الحسين ، وأنه منكر ، يجب أن ينتبه إليه أولو الأمر ، وأن يعملوا على محوه وطمس معالمه ، لأن هذا من الفاحشة التي تشيع في الذين آمنوا ، والله تعالى يقول : « إن الذين يجهلون تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » ( النور : ١٩ ) :

وفدأقت الأدلة والبراهين على كذب هذا المكشوب على باب الحسين وذلك لأقيم الحجة على من يبدع الأمر لحماية المجتمع المسلم من آفات السكيد الذي يكاد له به ، من البدع والخرافات !!

وقد نشر هذا المقال في صحيفة الأخبار القاهرية ، حيث استغرق نحو صفحة كاملة منها .

ولأنه نظراً لخطورة الموضوع ، فقد بحثت « الأخبار » بصورها إلى المسجد فصور هذا الحديث المكشوب ، وصور معه المنبر القائم على يمين الباب الموصل إلى الضريح . . ونشرت هذه الصور على رأس المقال .

وفي الصباح اطلعت على المقال ، مؤيداً بالصور ، ففزعت لأني خشيت أن يؤدي ذلك إلى ثورة ، قد يهدم بها المسجد كله !! هكذا كان ظني بالمسلمين وغيرتهم على الدين الذي يدينون به .

ولكن الذي حدث كان على غير هذا تماماً .. حيث كانت الثورة متجهة إلى ، وإذا أحاديث تليفونية كثيرة ترد إلى من أشخاص معروفين وغير معروفين ، يرموني بالتهجم على سبط الرسول ، صلوات الله ولامه عليه والمعاداة لآل البيت . . وكان موقفى هو الاستماع ولا رد !!

وأغرب ما طرق سمعى من حديث فى هذا الأمر ، ما حدثنى به أحد  
الوزراء المسئولين ، القائمين على التوجيه الدينى فى مصر ، إذ قال لى : يا فلان ؛  
ماذا تريد بهذا الذى نشرته اليوم ؟ أتريد أن تثير علينا العامة ؟ فقلت له ؛  
ما قولك أنت فى هذا الحديث ؟ فقال ، ليسكن مكذوباً ، وهو مكذوب فعلاً .  
ولسكن التعرض له يشعل فتنة ، ويقم ثورة من العامة ، وأشياء العامة ا ا  
فقلت له : إذن فأنا قائم منذ اليوم بتعليق صورة لأمى ممثل ، مسلم كان أو غير  
مسلم ، على ضريح الحسين ، مكتوب عليها : الحسين بن على ، فى موقعة كربلاء .  
وسأطبع منها صوراً تباع للمتريدين على الضريح ا ا فقال : حسبك بما هيئت  
من مشاعر وما أثرت من فتنة . : فأتق الله فى الوطن . . ذلك ما حدث منذ  
أربع سنوات . . ولا يزال هذا الضلال راية قائمة على باب ضريح الحسين ا ا  
فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وصلوات الله وسلامه على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه والتابعين .  
وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

القاهرة : عبد الكريم الخطيب

ربيع الآخر : ١٣٩٩ هـ

مارس : ١٩٧٩ م

## الباب الأول

الدين والعقل





## الفصل الأول الدين فطرة

— ١ —

عندما أراد الله سبحانه أن يخرج إلى الوجود تلك الأمة الإنسانية ، خلق الأب الأول لها ، وهو آدم ، وخلق من مادة آدم زوجة ، ومن هذين الأبوين كانت مواليدها وذريتهما ، ومن هذه المواليد ، وتلك الذرية ، همرت الأرض بالناس . وقامت الجماعات والشعوب والأمم . . . وفي هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساء » (سورة النساء : ١) ويقول سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (سورة الحجرات : ١٣) .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى — فيما اقتضت من خلق الإنسان — أن يكون هذا المخلوق خليفة في الأرض ، ومن مقتضى هذه الخلافة الإنسان في الأرض ، أن يكون هو القائم على كل ما فيها من عوالم المخلوقات ، من جماد ونبات ، وحيوان .. يسوسها ، ويحكمها بما وهبه الخالق سبحانه من قدرات ، فيستخرج خبء الأرض ، ويكشف أسرار الطبيعة ، ويسخرها فيما ينفعه ، وبما يمكن له من سلطان عليها . وفي هذا يقول الله تعالى مخاطباً الملائكة : « وإذ قال ربك للملائكة ، إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال إني ( ٢ - التصوف )

أعلم ما لا تعلمون » (سورة البقرة : ٢٠) . ثم يكشف الله سبحانه للملائكة عن بعض علمه وحكمته بما أودع في الإنسان من قوى لم تسكن للملائكة ، وذلك في هذا الامتحان الذي عقده الله تعالى بين الإنسان (آدم) وبينهم ، حيث كان عند (آدم) من العلم ما لم تعلمه الملائكة . . وفي هذا يقول الله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (سورة البقرة : ٣١ - ٣٣) . . وهنا عرف الملائكة عن يقين ، أن آدم أحق منهم بالخلافة في الأرض ، بفضل علمه الذي لم يكن لهم . . ولهذا أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم ، تكريماً له ، واعتزازاً بمنزله وإقراراً بالتسليم بخلافته : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واسعكبر وكان من الكافرين » (سورة البقرة : ٣٤) .

وبهذا العلم تعرف الإنسان إلى خالقه ، وتهدى إليه . . وهذا العلم الذي كان لآدم ، ولذرية آدم ، هو منحة من الخالق سبحانه ، لهذا الخلق الذي جعله خليفة في الأرض . . وهو علم غريزي فطري ، ينمو بالنظر ، والبحث والعجربة ، فيكون علماً مكتسباً ، تتوارثه الأجيال ، ويضيف إليه كل جيل ما وقع له من علم ومعرفة ، وبهذا العلم تغير وجه الأرض ، وقامت الحضارات والمدنيات ، التي تزداد مع الأيام علواً ، وتشاخخاً .

وكما عرف آدم المصنوعات التي عجز الملائكة عن معرفتها ، والدلالة على

كل مصنوع باسم خاص به ، فإنه تعرف على الصانع سبحانه ، عن طريق الاستقراء والاستدلال بالمصنوع على الصانع . . ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وتفرد به بالخلق والأمر — كانت تلك الدعوة ، نتيجة لازمة لمقدمات ، هي النظر في عوالم المخلوقات وما تنطق به من دلالات معجزة ، في وحدة نظامها ، وإحكامها ، وضبط حركاتها وسكناتها ، بيد القدرة القادرة ، ذات السلطان المطلق الحكيم . . فيقول الحق سبحانه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » (سورة ق/ ٦ — ١١) .

ويقول تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » (سورة الحج : ٤٦) . . ويقول سبحانه : « ألم ير أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » (سورة فاطر : ٢٧ — ٢٨) . . ويقول جل شأنه : « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم توقنون ، وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها

زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن في ذلك لآيات لقوم يفهمون ، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » (سورة الرعد : ٢ - ٤) .

فالإنسان مدعو من فطرته إلى التهدي إلى الله ، والإيمان به إلهاماً واحداً خالقاً ، رازقاً ، لا شريك له . . وهذا ما يشير إليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » ( أخرجاه في الصحيحين ) .

وهذه الفطرة التي يولد عليها كل مولود من أبناء آدم : هي أشبه بالنواة من نوى النخل ، تضمّر في كيانها ، وفي جرمها الصغير هذا ، أصول نخلة باسقة ، وما تحمل من ثمر طيب ، وذلك إذا تهيأ لهذه النواة التربة الصالحة التي تغرس فيها ، والماء الذي يغذيها ويمسك الحياة عليها ، وإلا ظلت نواة ملقاة بالعراء أشبه بالحصا بين الرمال ! !

والذي يغذي الفطرة ، ويبعث فيها الحياة والنماء ، هو العقل ومدرّكاته التي تحمل إلى الإنسان العلم والمعرفة . . فإذا كان هذا العقل سليماً معافى من الآفات ، خالياً من الهوى ، ساق إلى الفطرة من علمه ومعرفة ما يمد مصباحها بالزيت الذي يشعل فتيلها ، ويضيء معالم الطريق لها إلى مواقع الهدى ومشاهد الحق . . أما إذا كان العقل سقيماً ، أو سقيماً ، فإنه يسوق إلى الفطرة سحياً داكنة من دخان سقمه وسقمه ، تسود بها صفحة مرآتها ، فلا تنطبع عليها حقائق الأشياء ، إلا شائبة الوجوه ، مطموسة المعالم ، وإذا الإنسان هنا متخبط في متاهات الضلال ، ساجح في أمواج اللّثن ، قد أطفأت ربيع هواء مصباح فطرته ، التي منحه الله إياها : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (سورة النور : ٤٠) .



— ٢١ —

— ٣ —

« كل مولود يولد على الفطرة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى أن يولد المولود على الفطرة ، هو أن يكون مهيناً للإيمان بالله ، مستعداً لقبول هذا الإيمان ، مضيفاً وجوده إليه ، متى عقل ورشد .

وإلى هذه الفطرة التي يولد عليها كل مولود ، يشير قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أقهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك فضل الآيات ، لعلهم يرجعون » (سورة الأعراف : ١٧٢-١٧٥) أى لعل الضالين يرجعون إلى فطرتهم السليمة ويلتقون مع دعوة الرسل لهم ، إذا هم أعادوا النظر إلى أنفسهم ، ورأوا ما غشيهم من ضلال ، وما حل بهم من داء .

وهذا يعنى أن الإيمان بالله تعالى ، قائم في فطرة الإنسان ، وأن هؤلاء الذين كفروا بالله ، إنما كان كفرهم بسبب ما غطى على فطرتهم من ضلالات أهوائهم وموروثات آباءهم . . . ومع ذلك فإن وراء كفرهم هذا إيماناً مندساً في أعماق فطرتهم غطى عليه بحجاب الغفلة والهوى ، حتى إذا نزلت بأحدهم نازلة ، أو أحاط به كرب ، انزاح هذا الحجاب ، وانجابت تلك الغيوم ، وإذا الفطرة متجهة إلى الله ، وإذا هذا الكافر ضارع إلى ربه ، لائذ يحماه يدعو مخلصاً أن يخرج منه مما هو فيه من بلاء .

ولأن إيمان هذا الذى كفر بالله ، كان في تلك اللحظة التي أحاط فيها البلاء به — كان إيمانه إيماناً واقعاً موقع اليقين منه ، مستولياً على كل ذرة في كيانه — فإن الله تعالى يقبل هذا الدعاء ، ويستجيب لصاحبه

فما طلب . . وفي هذا يقول الله تعالى : « هو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ربيع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم » ، دعوا الله مخاضين له الدين اثنى أنجيقتنا من هذه لنسكونن من الشاكرين ، فلما أنجهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق » ( سورة يونس : ٢٢ — ٢٣ ) .

ويقول سبحانه : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونهم تضرباً وخفية اثنى أنجاننا من هذه لنسكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » ( - ورة الأنعام : ٦٣ — ٦٤ ) .  
ولهذا كان دعاء المضطر مقبولا من الله تعالى ، مستجاباً عنده ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أمن يحيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » ( سورة النمل : ٦٢ ) .. وذلك أن الدعاء الواقع في حال الاضطراب ، يكون فيه الداعي مشرفاً على هلاك ، وأن إقناذه في تلك الحال يحتاج الى قدرة لا يملكها أحد ممن يعرفه في هذه الحياة . . وهنا يفر من وجوده كل من كان يرجوه لكشف الضر عنه ؛ من عوالم الخلوقات ، واذا داعى الفطرة يدعوه الى الله تعالى ، وإلى طلب النوث والنجاة من رب الأرباب ، مالك الملك ، لا شريك له .

روى أن عكرمة بن أبي جهل ، انطلق يوم فتح مكة مع جماعة من مشركي قريش يريد الفرار بشركه إلى الحبشة ، فركب البحر مع جماعة من أصحابه ، وفيما هم في عرض البحر ، هبت عاصفة عاتية ، تهدت السفينة وراكبيها بالغرق ، وإذا الصيحات تعلو بالدعاء الضارع إلى الله ، أن يكشف هذا الهلاك ، فلما هدأت العاصفة واطمأن راكبو السفينة ، قال عكرمة لأصحابه : إنكم كنتم تدعون الله والسفينة مشرفة على الغرق ولا تدعون آلهتنا التي نعبدوها . فكيف كان هذا ؟ فقالوا : انه لا ينفع

في صرف أخطار البحر إلا الله وحده . فقال عكرمة : إذا كان لا ينفع في البحر إلا الله ، فإنه لا ينفع في البر إلا الله . ثم أدار بأصحابه وجه السفينة إلى شاطئ العودة ، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إسلامه .

وبهذه الفطرة المستقرة في كيان كل إنسان ، يؤمن كل كافر أو ملحد أو مشرك إيماناً خالصاً بالله سبحانه ، عند النزع ومعاينة الموت وما بعده ، ولكن هذا الإيمان يرد على صاحبه ، لأنه لا نفع له منه ، وهو يودع الحياة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن فرعون حين أدركه الفرق فأعلن إسلامه : ( وجاوزنا بني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الفرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ) (سورة يونس : ٩٠-٩٢) .

ويقول تعالى : في أهل الكفر والضلال وما يكون منهم عند حضور الموت : ( هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك ، يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً ) (سورة الأنعام : ١٥٨) .

والعقل - كما أشرنا - هو الذي ينمي الفطرة ويفذيها ، بما يسوق إليها من مدركاته ، فإن كانت إدراكاته سليمة ، بعيدة عن وساوس الضلال ، ومنازع الهوى ، أخذت الفطرة طريقها إلى الله في استقامة وهدى . أما إذا كانت مدركات العقل مختلطة بدخان الجهل والهوى ، فإنه يغطي على الفطرة



— ٢٤ —

بهذه ، ويعمى عليها الطريق إلى الله ، وإذا الإنسان هنا راكب كل طريق من طرق الضلال التي يقوم على كل منها شيطان ، يدعو إليه الضالين ويزين لهم من المنكر ما يوافق هوى كل ضال من هؤلاء الضالين الذين أشار إليهم سبحانه بقوله : ( الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض ، أولئك هم الخاسرون ) (سورة البقرة : ٢٧) .

والذي أمر الله تعالى به أن يوصل في هذه الآية الكريمة ، هو إيمان الفطرة ، حين يصله الإنسان بإيمان الدعوة التي يدعو بها رسول الله . فمن لم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قطع إيمان فطرته وعزلها عن الإيمان الذي يدعو إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . وهكذا الشأن مع دعوات كل رسول من رسل الله ، عليهم السلام .

— ٤ —

وقد كان من العدل والحق ، أن يترك الإنسان ، وما يختار من هدى أو ضلال ، ومن إيمان أو كفر ، بعد أن أخذ الله تعالى عليه الميثاق ثم منحه الخالق سبحانه وتعالى الفطرة والعقل ، وسلحه بهذين السلاحين ليشق بهما طريقه إلى مواقع الإيمان والخير والفلاح ، وليدفع بهما ما يعترض طريقه هذا ، من أهواء النفس ، وسوس الشيطان ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ( بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ) (سورة التقيامة : ١٤ - ١٥) .

وقد آمن بالله ، وأقر بوحدانيته كثير من الناس ، بنظر عقولهم ، ووحى فطرتهم دون دعوة من رسول من رسل الله . . وهذا ما يقرره

الفيلسوف اليونانى القديم « أفلاطون » حيث يقول : « إن معرفة الله موجودة بالفعل فى كل عقل ، بل إن المعارف كلها كذلك ، وليست مهمة المعلمين تلقين المتعلمين ، ولكن تنبيههم إلى ما وقر فى نفوسهم ، وآمدت به عقولهم » (١) .

ومع هذا ، فقد كان من رحمة الله تعالى بالناس ، أن أرسل فيهم رسلا منهم ، يحملون إليهم رسالات الله تعالى ، محملة بالدعوة إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحده نيقته ، ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يدع الناس لما أودع فيهم من فطرة وعقل ، وذلك ليقيم عليهم الحجة البالغة ، كما يقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتيناهم داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ، وكلم الله موسى تكليماً ، رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله علماً حكماً » (سورة النساء : ١٦٣ - ١٦٥) . ثم كان من سعة رحمة الله تعالى بالناس ، أن جعل هذا الإيمان الفطرى العقلى غير المستند إلى دعوة من رسول من رسل الله إيماناً مستجاباً من صاحبه ، يثاب عليه ثواب المؤمنين ولا يعاقب إذا هو ضل عنه من غير دعوة رسول ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ( وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا

---

(١) « الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للمرحوم محمود حب الله ، وقد كان رحمه الله مديراً للمركز الإسلامى بواشنطن ثم كان أميناً عاماً للمجلس الأعلى للبحوث الإسلاميه بالأزهر .

مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) (سورة القصص: ٥٩) . وقوله سبحانه :  
(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإلما يضل عليها ، ولا تزر  
وازرة وزر أخرى ، وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) سورة الإسراء : ١٥  
وذلك - كما أشرنا من قبل - هو مزيد من رحمة الله تعالى بالناس ، ومضاهنة  
من إحسانه تعالى إليهم ، حتى تنقطع حججهم ، ولا يقوم يوم القيامة عذر  
لمعتذر منهم ، والله تعالى يقول : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا ببين  
لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد  
جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير) (سورة المائدة : ١٩) .

ففى الإنسان ، وللإنسان داعيان يدعوانه إلى الله ، ويكشفان له الطريق  
إلى الإيمان به سبحانه ، والإقرار بوحدايته : وأولهما هو داعى الفطرة  
فيض عليها العقل من علم ومعرفة ، وثانيهما داعى الله وهو الرسول  
وما يوحى إليه من ربه ، ليبلغه للناس . فإذا آمن الإنسان بداعى فطرته  
من غير دعوة رسول ، كان مميثا لاستقبال دعوة الرسول ، متلاقيا بإيمانه  
الفطرى مع الايمان الذى يدعو إليه رسول الله ، فيجمع بين إيمان الفطرة ،  
وإيمان الدعوة جمعا يؤاخذ بينهما ويمزجها مزج النور بالنور : (نور على  
نور يهدى الله لنوره من يشاء) سورة النور : ٣٥) .

وفى قوله تعالى : (إن الله لا يستجيب أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها  
فأما الذين آمنوا فيعملون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون  
ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به  
إلا الفاسقين ، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، يقطعون ما أمر الله به  
أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) سورة البقرة : ٢٦- ٢٧

في هذا القول السكريم بيان لإيمان الفطرة الوصول بإيمان الدعوة . ففي قوله تعالى : ( الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ) وصف كشف لفسق أولئك الذين فسقوا عن أمر ربهم ، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر ، ونقضوا بذلك الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الناس جميعا ، وهم في ظهور آبائهم ، وذلك في قوله تعالى : ( وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أقهلسكنا بما فعل المبطلون ) كما نقضوا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على أنبيائهم ، وذلك في قوله تعالى : ( وإذ أخذنا ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكن إصري ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين ) ( سورة آل عمران : ٨١ ) .

وفي قوله تعالى : ( ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ) لمشارة إلى أن الذين كفروا بالله قد قطعوا ما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وهو إيمان الفطرة ووصله بإيمان الدعوة ، ثم وصل إيمان المؤمنين بالرسالات السابقة على الإسلام بالإيمان بالإسلام . كما يقول تعالى : ( قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ) ( البقرة : ١٣٦ ) .

ومن هنا كانت مهمة رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - هي تبليغ رسالات الله إلى أتوامهم ، ليذكروهم بهذا ، ماغفلوا عنه من الإيمان المستقر

في فطرتهم بما دخل عليهم من موروثة الضالين من آباءهم وأقوامهم ،  
تلك المورثات التي زينها الشيطان لهم .

وفي هذا يقول الله تعالى للبيه الكريم : ( فذكر إن نفعك الذكرى )  
( سورة الأعلى : ٩ ) ويقول سبحانه : ( فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم  
بمسيطر ) ( سورة الفاشية : ٢١ - ٢٢ ) ويقول جل شأنه ( فذكر بالقرآن  
من يخاف وعيد ) ( سورة ق : ٤٥ ) .

ويقول تعالى عن القرآن الكريم : ( إن هو إلا ذكر وقرآن مبين )  
( سورة يس : ٦٩ ) ويقول سبحانه : ( وإن يكاد الذين كفروا ليزقونك  
بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين )  
( سورة ن : ٥١ - ٥٢ ) . ويقول تبارك اسمه : ( إنا نحن نزلنا الذكر ،  
ولنا له حافظون ) ( سورة الحجر : ٩ ) ويقول سبحانه : ( ص ، والقرآن  
ذی الذکر ) ( سورة ص : ١ ) . وهكذا تقوارد آيات الله تعالى عن القرآن  
الكريم ، وأنه ذكر يذكرك به أولو الألباب طريقهم المستقيم إلى الله ،  
وتنبعث به فطرتهم من غفلتها لتفتح عينها على نور الحق ، كما يتحدث القرآن  
الكريم عن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وأنه مذكر بهذا الذكر  
الذي يساق من آيات الله إلى الفطرة ( وما يذكرك إلا من ينيب )  
( سورة غافر : ١٣ ) . والنيب هو من يرجع إلى فطرته . فيستلهم منها  
الإيمان بالله الذي يدعو إليه رسول الله .



## الفصل الثاني الإيمان والعقل

وإذا كانت الفطرة هي النواة المستقرة فيها نطفة الإيمان ، فإن العقل هو الذى يحتضن هذه النطفة ، ويمدها بالغذاء الذى يخرج خبأها ، ويفتح زهرها ، وينضج ثمرها . . . والعقل هنا ، ليس هو العقل المريض السقيم ، الذى تدهأت عليه علل الجهل ، وتسلمت عليه آفات الهوى ، فهذا أشبه بالماء الآسن الذى تسبح فيه الجراثيم والديدان ، ومثل ذلك العقل إن ساق شيئاً منه إلى الفطرة ، فإما يسوق إليها ما يعلها ، ويمرضها ، ويقتل موطن الحياة منها . وإنما الذى يعتبر عقلاً حقاً ، هو العقل السليم ، المهيأ للاتصال بهذا الوجود واصطياد ما يقع في شبك مدركاته من العلوم والمعارف ، التى تسكن العقل الفطرة بأنوارها ، فإذا هى بصر وبصيرة ، تهتدى إلى مواقع الحق ، وتتجه إلى الله بإيمان وثيق ، وولاء مطلق .

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للناس أن يسوقوا عقولهم إلى آفاق النظر في هذا الوجود ، ليظالعوا في صحفه ما سطر من آيات الله ، الدالة على بديع صنعه ، وروعة حكمته ، وسلطان قدرته ، ومحيط علمه . فإذا ورد العقل هذا المورد استبدل بالخلوقات على الخالق ، وبالمبدعات على المبدع ، فينشرح لذلك صدره بالإيمان بالله ، ويحقق قلبه خفقات الولاء والخشوع لله رب العالمين .

يقول الله تعالى ، موجهاً عقول العقلاء إلى موارد العلم ، باسطاً بين يديها كتاب الـكون كله ، لتقرأ ، وتعدبر ، وتتعظ ، وتؤمن : ( إن في خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ) (سورة البقرة : ١٦٤) . ويقول سبحانه : ( والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن في ذلك لآية لقوم يسمعون ، وإن لسكم في الأنعام لعبرة نستقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون ) (سورة النحل : ٦٥ - ٦٧) . ويقول تبارك اسمه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ) (سورة العنكبوت : ٤٣) . ويقول سبحانه : « إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الأبصار » (سورة آل عمران : ١٩٠) .

ثم إن الله تعالى قد شدد النكير على أولئك الذين أهملوا عقولهم ، وشرّدوا بها في مقاهات الضلال ، فكانوا بهذا أضل سبيلاً ، وأنزل منزلة من عالم الحيوان فيقول سبحانه : « ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عى فهم لا يعقلون » (سورة البقرة : ١٧٦) . ويقول جل شأنه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (سورة الأنفال : ٢٤) . ويقول تبارك اسمه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (سورة الأعراف : ١٧٩) . ويقول الحق سبحانه في أصحاب النار ، وهم يلطمون الحدود حسرة وندماً على أنهم عطلوا



قوى المعرفة التي منحها الله إياهم ، فضلوا وكفروا : « وللذين كفروا بِهِمْ عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُور ، تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلًّا أَلْقَى فِيهَا فَوْج سَاءَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِير ، فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِير ، وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِير ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ ، فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِير » ( سورة الملك : ٦ - ١١ ) .

ومن هذا كانت التكاليف الشرعية منوطة بأصحاب العقل من الناس . فمن زايله العقل لمرض ، أو جنون ، أو كان صغيراً لم يبلغ الحلم ، فلا تكليف عليه .

وإذن فإن الدين مرتبط بالعقل أشد الارتباط وأوثقه ، وإنه لا دين بغير عقل ، إذ الدين أساسه المعرفة ، ولا معرفة إذا لم يكن هناك عقل يدرك ويميز بين المدرجات ، خيرها وشرها . صحيحها وسقيمها ، حقها وباطلها .

وإذا كان بعض الناس قد غالى بسطوان العقل ، وجعله الحاكم على أحكام الدين المنزلة من عند الله ، بمعنى أنه يعرض أحكام الدين على عقله أولاً فما قبله هذا العقل أجازوه واتضاه ، وما رده العقل طرحه ولم يأخذه به - نقول : إذا كان بعض الناس يذهب بالعقل هذا المذهب ، فإن ذلك يعد ظلاماً للعقل نفسه ، إذ يحرمه القلق من مصدر العلم كله المنزل من عند الله على رسول الله ، فيكون أشبه بالعصبى الذى يقدم نفسه على استأذنه ، أو كالمرضى الذى يرى أنه أقدر من الطبيب على معرفة الداء ، ووصف الدواء . وهذا من الغرور الذى يلقى بصاحبه فى التهلكة !!

وأسوأ حالا من هؤلاء الغرورين بعقولهم ، المتعثرين بها ، حيث

يحسكونها في أحكام الله - أسوأ حالا منهم أولئك الذين يهملون عقولهم ، ولا يشعرون بمكانها فيهم ، ولا يردون بها موارد العلم والمعرفة ، وإذا هم لمعات يقادون اسكل من يقودهم ولو إلى الهاوية !

وفي المأثور : ( لا يكن أحدكم لامة . يقول أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن ليقل أنا مع الحق حيث كان ) .



وخير الناس ، وأهداهم سبيلا من كان معه عقله ، حيث كان ، ينظر به في كل أمر يعرض له ، نظراً واعياً متدبراً . فإذا كان هذا الأمر من الله تعالى أسلم عقله له ، وأخضعه لما جاء الله تعالى به ، موقناً أن ذلك هو الحق الذي لا ينزع فيه ، سواء وافق عقله أم لم يوافقه . . أما إذا كان هذا الأمر مما تتوارد عليه عقول الناس ، فهو شريك لهم بعقله فيه ، يحاجهم بما عنده ، طالهاً للحق ، من غير تعصب لرأيه ، أرطلب للغلبة ، أتابع للهوى . وذلك هو شأن العقلاء الراشدين من الناس .

يقول الدكتور محمود حب الله :

« والإسلام دين عقلي ، لأنه قد راعى قوانين العقل ، في كل ما جاء به من شرائع وعقائد ، ثم تحاكم إلهم فيها ، فقضاياه ، وأحكامه ، وتكاليفه ، وأوامره ونواهيه ، وكل ما جاء به معقولة كلها ، وموجهة للعقل ، ومعروضة عليه ، ويقبلها حين يقبلها عن بينة وتدبر ، واختيار . وذلك لأنه مطمئن إلى صحة كل ما فيه ، من شرائع وعقائد ، وواثق من أنه ليس فيها ما يأباه العقل ، ويستعصى على الفهم . وليس على المرء إلا أن ينظر فيه بتدبر وإيمان ، مجرداً عن الهوى والتعصب ، ومن كل الأفسكار الغرضة ، ليرى كيف أنه

أى الإسلام — يتفق وقوانين العقل الخالص ، ويستجيب للمنطق العام ،  
والسنن العامة ، وليس على الجماعة أو الدعاة إلا أن تهتدى المرء سبيل هذا  
النظر ، حتى يؤمن — إن شاء — عن بينة ، أو يكفر — إن شاء — عن  
بينة كذلك ، وكلا من الكفر والإيمان عمل عقله وإرادته ، ونتيجة تدبره  
واختياره ، ولذا كان مسئولاً عنهما ، ولذا صح أن يثاب أو يعاقب ، ولذا  
لم يكلف كل من المجنون والصبي ، والمضطر ، بل من يعقل الخطاب ، ويقدر  
على التنفيذ»<sup>(١)</sup> .

وهذا الذى يقوله الدكتور محمود حب الله ، هو مستمد من معنى قوله  
تعالى : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر »  
( سورة الكهف : ٢٩ ) . . وقوله سبحانه : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين  
الرشد من الغي ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة  
الوثقى لا انفصام لها » ( سورة البقرة : ١٥٦ ) . . وقوله جل شأنه لنبيه  
الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست  
عليهم بمسيطر » ( سورة الغاشية : ٢٢ ٢١ ) وقوله تبارك اسمه : « فإما  
عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » ( سورة الرعد : ٤٠ ) وقوله سبحانه وتعالى :  
« أفأنت تسكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ ( سورة يونس : ٤٩٩ ) .

وذلك أن الدين عقيدة ، ولا عقيدة عن إكراه ، لأن العقيدة لا تثمر  
الثمر المرجو منها إلا إذا تقبلها العقل ، وانشرح لها الصدر ، واطمأن بها  
القلب ، وسرت فى مشاعر الإنسان مسرى الروح فى الجسد . . أما إذا جاء

---

(١) من كتاب : « الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للدكتور محمود حب

المعتقد عن إكراه ، فانه يكون أشبه بالطعام الفاسد ، الذى يأكله الإنسان عن إكراه ، واضطرار ، إن لم تفتحها المعدة ، أضر صاحبه ، وأهلكه .



ولا ندع الحديث عن العقل ، ومكانه من الإيمان ، والتهدى به إلى الله تعالى ، والاقرار بوحدانيته ، والولاء له سبحانه — دون أن نأتى له بشاهد من مقولات أحد العقلاء المشهود لهم بسداد الرأى ، وحسن التقدير للأمر وإن كان من غير المسلمين .

والشاهد الذى نفسح له مكانا فى هذا المقام . هو السياسى الإيطالى المعروف : « مازينى » الذى كان من رجالات أوروبا المحدثين فى القرن التاسع عشر .

يقول : « مازينى » فى مقام الحديث عن « الله » سبحانه وتعالى :

« إن الله موجود . . . ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده ! !

« الله موجود . . . لأننا موجودون ، وهو موجود فيما ، وفى شعور الإنسانية جمعاء ، وفى كل ما يحيط بها من عوالم . . . ولما نشعر بذلك فى كل الأوقات . . . فنشعر به فى ساعات الضيق والشدة ، كما نشعر به فى حالات السرور والنعمة . . .

« ولم يكن أول ملحد فى الأرض ، إلا أحد الجرمين الذين أخفوا إجرامهم عن كل الناس ، وظنوا أنهم يتخلصون بإنكارهم لوجود الله ، من شهادة الشاهد الذى لا تخفى عليه خافية . . . ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يعيشون فسادا فى الأرض ، فتحكموا فى أرواح الناس وفى حرياتهم

«وحاولوا أن يتحكموا كذلك في توجيه خضوعهم وعبادتهم، فأهلوا أنفسهم،  
أو أهلوا ما شاءوا من المواد والطبائع .

« ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس ، آخرون ، أدى بهم الانحراف  
الفلسفي ، وتصر النظر إلى تكوين نظريات إلحادية ، وكانوا من القلة بمكان  
فمنهم الخجل والحياء من الظهور ! !

« وجاء بعدهؤلاء آخرون ، أنسكروا وجود الله ، لما رأوا من الأفكار  
البدائية والمبادئ اللامعقولة التي تحيط باسمه ، والتي تنسب إليه<sup>(١)</sup> ، ولكن  
لم يكن ذلك الإنكار إلا لأجل محدود ، لم يتخاضعوا أثناءه من كل أنواع  
العبادات ، بل عبدوا الطبيعة أو العقل !

« ويبلغ الآن كثير من الناس الأديان ، لما اتصل بها من فساد  
والمحطاط<sup>(٢)</sup> ، من غير تفرقة بين الخبيث والطيب .

« فلما رأوا أن من القسيسين ورجال الدين من يدنس اسم الله لقاء دراهم  
ومعدودات ، ويفاضل بين الله والإنسان ، ويفضل جانب الأخير عندما  
يدهوه النظر القاصر إلى ذلك<sup>(٣)</sup> ، ورأوا أن الدين قد استغله القوى أداة  
بطش وجبروت ليخضع به الضعفاء وذوى الحاجة — لما رأوا ذلك وأمثاله ،  
أنسكروا الأديان . . . ولستكنهم لم يكونوا على حق في ذلك ، فليس لنا أن

(١) يشير بهذا الى ما يدخل على الدين الحق من ضلالات الضالين ،  
«وسفاهات السفهاء ، وأصحاب الأهواء والبدع » .  
(٢) هو يتحدث عما كان يراه من متناقضات في الديانة المسيحية التي  
تسلط عليها رجال الدين ، فأفسدوها بتأويلاتهم ، طلبا للتسلط على أتباعهم . . .  
(٣) لعله يشير بذلك الى ما وقعت فيه المسيحية من تأليه المسيح ونسبة  
«بنوته الى الله نمسبة حقيقية ، فتركوا الله تعالى ، وعبدوا المسيح !

نفكر وجود الشمس ، وأثرها في الحياة الأرضية ، حين يحجبها عنا البخار المتكاثف ، وليس لنا أن نرفض الحرية الشخصية ونلعنها ، لأن بعض الأشخاص يستغلونها استغلالاً سيئاً ، وليس لنا أن نذكر الأديان كذلك لأنه قد أسىء استعمالها ، أو دخلها كثير من الأباطيل والأكاذيب ، بفعل الإنسان . . ذلك لأن لها من القوى الذاتية ما يضمن لها الخلود ، على الرغم مما يلصقه الناس بها من أباطيل وأوهام . ولا بد أن يموت الكذب يوماً ولا بد أن تنفض الأباطيل ، وينكشف أمرها ، ويبقى اسم الله مطهراً من جميع الأرجاس ، وبخالد أباد الآبدى<sup>(١)</sup> .



هذا ما يقوره رجل من العقلاء الذين لم يستسلموا للمورثات الآباء والأجداد ، ولم يقبل كل ما يرد عليه من تلك المورثات من ضلالات وخرافات ، بل عرض تلك المورثات على عقله ، مجرداً من الهوى ، طالباً للحق ، فافكشف له ما دخل على دينه الموروث ، من تأويلات علماء هذا الدين ، التي أرادوا بها إعلاء سلطانهم في الناس ، حيث جعل رجال الكنيسة إلى أيديهم غفران الذنوب من جهة ، والحرمان من المغفرة من جهة أخرى وذلك بما يملكون بادعائهم ، من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان ، إلى غير ذلك مما لا يقبله عقل عاقل ، مثل ادعائهم أن الله تعالى ابننا هو المسيح ، وأن المسيح قدم نفسه للصلب ليغسل بدمه خطيئة آدم ، وخطيئة أبناء آدم ، الذين ورثوا الخطيئة ابناً عن أب ، وأباً عن جد ، حتى الأب الأول آدم !

(١) نقلاً من كتاب : « الحياة الوجدانية ، والعقيدة الدينية ، للمرحوم الدكتور محمود حب الله ، ص : ٢٧٢ - ٢٧٣ .

ولهذا ، فإنه منذ انحلت عن أوروبا ظلمات التورون الوسطى وأخذت العقول تتحرر من الجهل الذى غطى عليها ، بدأ الناس هناك يشكون فى الدين الذى يدّينون به ، وأخذ الصراع يشتد بين العلماء ورجال الكنيسة ، حتى ذهب فى سبيل ذلك كثير من ضحايا العلم ، الذين أهدرت الكنيسة دماءهم ، ثم بعد نحو قرن أو أكثر ، غلب سلطان العلم سلطان الكنيسة ؛ وانكشف ظل رجال الدين داخل الكنيسة ، فلم يعد لهم شأن فيما يقول العلم ، حتى قامت دول تحت شعار « العلمانية » التى لاشأن لها فيما يدور داخل الكنيسة التى لاسلطان لها على ما يقرره العلم .

وإذا كان هذا ما وقع من صراع : بين العلم والدين المسيحى الذى أخرجه رجال الكنيسة من دائرة العقل ، مما أولوا وحرفوا ، فإن الإسلام يفسح فى رحابه مكاناً مكيناً للعقل ، ويدعوه إليه ، حقياً به ، مكرماً له ، حتى يشهد وجه الحق مشرقاً ، فيقبس من أنواره ، ويقطف من ثماره ، ما يمدده بأسباب القوة ، ويبلغ به مبالغ الرشد ، وإذا هو قبس من أقباس العلم المستعد من نور الله .



## الفصل الثالث

### المسلمون . . وعلماء المسلمين

أما وقد مال بنا الحديث إلى العلم والدين ، وما قد يقع بينهما من وفاق أو خلاف .. وأما وقد ألمحنا — في إيجاز — إلى شيء من هذا الصراع الحاد العنيف الذي وقع بين العلم والدين المسيحي ، الأمر الذي أدى إلى الفصل بين العلم وهذا الدين ، فصلاً قائماً بين عدوين لا سبيل إلى أن يضع أحدهما يده في يد الآخر أبداً .

نقول : أما وقد مال بنا الحديث إلى ما بين العلم والدين المسيحي من خلاف شديد ، احتدم فيه الصراع بينهما زمناً ، حتى انتهى الأمر إلى تلك العزلة الباردة التي تقيم كلا منهما في واد بعيد عن صاحبه بعد ما بين المشرق والمغرب — فإن لنا أن نسأل بعد هذا :

أولاً : هل يمكن أن يقع بين الإسلام وبين العلم صراع مثل هذا الصراع الذي قام ويقوم إلى اليوم بين الدين المسيحي وبين العلم ؟

ثانياً : إذا قام بين الإسلام وبين العلم صراع كهذا الصراع — فهل منشأ هذا الصراع لأن الإسلام يناقض حقائق العلم ، أو لأن العلم تخطى حدود الإسلام ، وجاء بالجديد من المنسكرك الذي لا يجد له مكاناً في الإسلام ؟

ثالثاً : إذا سد الإسلام بابه دون حقائق العلم ، فهل يكون هو الدين كما ضم عليه كتاب الله وسنة رسوله ؟ أم أن سحجاً من الغبار زحفت على هذا الدين من الأدعياء والمضللين السكائدين لدين الله ، فنجبت الأبصار عن



حقائقه العليا وأضلت العقول عن موارده الصافية ، فلم تر العيون منه إلا أشباحاً باهقة ، ولم تمسك العقول من حقائقه إلا بما طفا على سطحه من أباطيل المبطلين ، وإفك الآفسين ؟

رابعاً : إذا أخذ العلم طريقه في عزلة عن الإسلام ، وفي استقلال عن الأخذ بمناهجه ، والتهدى بأنواره ، ووزن الحقائق بميزانه - فهل يكون هذا العلم علماً ينتفع به ، ويثمر الخير لأهله ، ويقيمهم على جناح أمن وسلام في هذه الحياة ؟

وفي حيدة مطلقة ، وبنية خالصة لوجه الحق ، نقرر :

أولاً : أنه لا يمكن أن يقع صراع أبداً بين الإسلام ، وبين العلم ، في أى موقع من مواقفه ، وفي أى متجه من متجهاته ، شريطة أن يكون هذا العلم مستولداً من عقول سليمة ، طالبة للحق ، وللخير الذى يكشف للناس أسرار هذا الوجود ، وما تمكن لهم تلك الأسرار ما يمكنهم تسخيرهم من القوى التى أودعها الله تعالى في هذا الكون العظيم .

فالإسلام يزكى كل علم يرفع من إنسانية الإنسان ، ويطلعه على ما في آيات الله الكونية من عظمة الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته .. وما ترك الإسلام شيئاً يمكن أن يكون مجالاً لنظر الإنسان ، ومراداً لعقله ، إلا دعا إليه وحث على النظر فيه .. في السماء والأرض .. في النجوم والأقمار .. في البر والبحر .. في السهول والجبال .. في ظواهر الأرض وباطنها .. في الحيوان والنبات .. في الإنسان : نقطة وعلة ، ومضغة ، وعظاماً ، ولحماً يكسو العظام .. في الحياة وفي الموت ، وفيما بعد الموت .

ولم يقم الإسلام على الإنسان في كل هذا أى قيد يقيد به ، أو يمسك

به عن شيء منه .. وغاية ما يطلبه الإسلام هنا ، هو أن يكون الإنسان حروباً على نفسه ، ممسكاً هواء أن يمنح به إلى مزالقي الضلال ، فيهوى من حائق ، حين يجاوز مده ، ويلقى بنفسه في البحر وهو لا يحسن السباحة فيه !!

ثانياً : إذا قام الأمر على هذا الوجه من جهة العلم ، فإنه لا يمكن أبداً أن يقع صراع بينه وبين الإسلام . بل إنه كلما أخلص العلم في طلب الحقائق وتمحيصها ، وجد يد الإسلام تمتد إليه ، معينة له ، آخذة به إلى غاية أعلى وأمكن من تلك الغاية التي وصل إليها .. فإذا وقع صدام بين العلم والإسلام ، فإن منشأ ذلك - من غير شك - هو من جهة العلم الذي لم يتحر فيه صاحبه وجه الحق ، أو لأن يده قصرت عن أن ترد مورد الحقيقة ، فسكن هذا علماً باطلاً ، أو متلبساً بباطل ، والإسلام كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .. وهيهات أن يلتقي الحق مع الباطل وأن يجتمعا على وفاق أبداً

ثالثاً : لا يمكن أن يغلط الإسلام بابه دون العلم الذي خلص للحق ، وتمحص من الباطل .. لأن الإسلام حق منزل من الحق سبحانه . وكل ما كان من موارد الحق ، فهو واقع في محيط الإسلام ، منه خرج ، وإليه يعود ، أشبه بالسحب الماطر ، تَطَرُّ البحر بمائها الذي حملته منه .. فهو منه وإليه ، كما قيل :

كالبحر يطره السحاب وماله فضل عليه ، لأنه من مائه

وإما يغلط الإسلام بابه دون كل علم صدر عن جاهل ، أو جاء من عالم باع نفسه للشيطان ، فجاء علمه محملاً بالبدع والأباطيل .

— ٤١ —

رابعاً : أن كل علم لا يجد له مكاناً في ساحة الإسلام ، هو علم زيف ، يرمى به في وجه صاحبه ، كما يفعل الصيرفي العاذق بالنقد الزائف ، ليس لصاحبه إلا أن يساق إلى موقف الاتهام ، ليحاسب ويعاقب على ما اقترف من خداع وتضليل .

— ٢ —

ونعود يعد هذا لنسأل : إذا كان مع المسلم عقل ، وكان هذا العقل وسيلة لتحصيل العلم والمعرفة ، وكان من أرق مطالب العلم والمعرفة ، ومن أشرف آياتهما ، العلم بالله ، والتعرف على ما يجب على العبد من الولاء له ، والإقرار بوحدايته ، والامتثال لإطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه — إذا كان هذا فهل مما يجوز للمسلم أن يتلقى دينه ، وأحكام دينه ، متابعاً في هذا غيره ، مقلداً له ، من غير نظر عقلي منه ، ومن غير إدراك ووعي لما يلقي عليه من أمر دينه ، عقيدة أو شريعة ؟

ومن الحق أن نقرر أن كثيراً من المسلمين يتلقون أمور دينهم متابعة وتقليداً ، إما عن وراثته الآباء ، الذين كانوا أيضاً مقلدين وراثته عن آبائهم وهكذا ، وإما عن تلقيات من علماء الدين ، دون مناقشة أو مراجعة .

وهذا من شأنه — دون شك — أن يقيم الدين عند هؤلاء المقلدين في حال ركود وسكون ، لاتنبعث منه حراوة تمحرك المشاعر ، وتثير الوجدان ، وتبعث في القلب خفقات الأشواق إلى الملأ الأعلى .

وإذا كان هذا الإيمان الخامد الساكن ، يباعدين أهله وبين عواصف الشك ورياحه ، فإنه مع هذا يجعل العبادات التي تؤدي في ظله ، عبادات آليته ، يأتيها صاحبها دون وعي لها ، أو إحساس بها ، ولهذا فإنها لا تمطره

من سماءها - إن هي أمطرت - إلا بقطرات لا تنبت زرعاً ، ولا تطلع  
زهراً أو ثمراً .

ثم إنه إذا ورد على أصحاب هذا الدين الخامد ، وارد من شك يسوقه  
إليهم ضال من الضالين ، أو ذو بدعة من المبتدعين ، لم يؤمن عليهم أن  
يقعوا فريسة لهذا الضال ، أو ذاك المبتدع !!

ومن هنا فإن عوام المسلمين الذين تلقوا دينهم عن متابعة وتقليد لغيرهم ،  
كانوا مرعى خصباً ، للضالين وأصحاب الأهواء والبدع ، الذين مزقوا  
شمل الوحدة الإسلامية ، بما نجم منهم من فرق ، ذهبت كل فرقة منهم  
بشطر من جماعة هؤلاء المسلمين ، المقلدين . . كـ فرق الخوارج ، والقدرية ،  
وإخوان الصفا ، وبعض فرق الشيعة ، والمتصوفة ، وغيرهم وغيرهم ، ممن  
اننسب إلى الإسلام وكانت له دعوى ادعاها فيه ، كـ أكاديبانية ، والبهائية ،  
وما تفرع منهما .



والذى يعيننا من هذه الفرق في بحثنا هذا ، هو فرقة المتصوفة ، التى  
تضم تحت جناحها أعداداً لا حصر فى كل بلد إسلامى . وهؤلاء الذين  
يدورن فى فلك المتصوفة هم من المنتسبين إلى أهل السنة الذين يتمذهبون  
بالمذاهب السنية الأربعة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية . .  
وسوف نعرض للتصوف والمتصوفة فى المباحث التالية ، بعد هذا إن شاء الله .  
وهنا سؤال يقتضينا المقام أن نجيب عليه ، وهو :

ما حكم الإسلام فى المسلم المقلد ، الذى يتلقى الإسلام عقيدة وشريعة ،  
وراثته ، من أهله ومجتمعه ، أو متابعة لغيره من أهل العلم عن تسليم مطلق  
دون أن يدخل بعقله فى شئ مما يلقى إليه ؟  
وهذا ما نجيب عليه فى الفصل التالى . . إن شاء الله .

## الفصل الرابع

### التقليد والمقلدون

- ١ -

اختلف العلماء في صحة إيمان المقلد ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى ، فمنهم من قال بصحة إيمانه ، إذا كان عاجزاً عن النظر بعقله ، ومنهم من يرى ، أن الاستدلال شرط لصحة الإيمان ، وعلى هذا يكون إيمان المقلد من غير بحث عن الدليل أو مشاركة في البحث عنه ، غير صحيح ، ومن يرى هذا الرأي الأشاعرة ، وجمهرة كبيرة من العلماء من بينهم محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير المعروف .

والحق أن الأمر يقتضى شيئاً من التحديد للمقلد الذي لا يصح إيمانه ، إذ المقلدون ليسوا جميعاً على مستوى واحد ، في موقفهم من المقلدين لهم .

فهناك من المقلدين من هم أشبه بالأطفال في تقليدهم للكبار تقليداً آلياً دون إدراك لما يرجى من وراء ما يقلدون .. ومثل هؤلاء من الناس يعدون في عداد غير الراشدين ، الذين رفع عنهم التكليف ، فيلحقون بالبله والجنى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (سورة الأعراف : ١٧٩) .

وهذا الصنف من المقلدين إما يسقط عنهم التكليف إذا كان ذلك .

هو مستواعم العقلى الذى عاشوا به ، وصحبهم فى جميع تصرفاتهم . . أما إذا كانت لم عقول يحسنون بها التصرف فى أمور معاشهم ، فإذا جاءوا إلى أمور دينهم لم يتكافوا لها جهداً ، ولم يوجهوا إليها عقلاً - فهؤلاء لا يرفع عنهم التكليف ، بل هم مكافون ومحاسبون على ما يكون منهم ، من كفر أو شرك ، أو تقصير فى توجيه عقولهم إلى فهم حقائق دينهم .

ولهذا يرى كثير من علماء المسلمين أن المسلم الذى معه فيما قل ، لا يكون مقلداً ، إذ يحمله هذا العقل دائماً على أن يفكر فى يرى أو يسمع . وأنه حين يتلقى أحكام دينه من أهل العلم ، فإنه يدرك كثيراً مما يلقاه ، وإن خفى عليه الكثير أيضاً ، إلا أنه فى ممارسته لأمر دينه وفى اشتراكه مع جماعة المسلمين فى أداء العبادات ، وفى المعاملات وغيرها ، كل هذا يتدرج به شيئاً فشيئاً إلى مزيد من المعرفة بحقائق دينه ، وإن حسب مع هذا من المقلدين ، إذ لا بد من أن تعرض له أمور يحتاج فيها إلى رأى أهل العلم الذين يستفتيهم فيفتونه بحكم الشرع فيها .

ولإذن فإنه يمكن القول بأنه لا يكاد يرى مقلداً فى الإيمان بالله ، وبرسوله ، وبأن القرآن كلام الله ، وبالبعث والحساب ، والجزاء والجنة والنار . . إذ أن العامى حين يسمع الناس يقولون : إن للخلق رباً خلقهم ، وخلق كل شيء وهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له - فاذا تكرر على أذنيه ذلك القول يوماً بعد يوم ، ورأى ذلك مجعاً عليه من العقلاء ، حكم بصحة إدراك هؤلاء ، لحسن ظنه بهم ، فاعتقد بما اعتقدوا به ، وبذلك يكون قد قام بالتراتب عليه من الإيمان ، إذ لم يبق سوى الاستدلال ، ولما كان مقصود الاستدلال ، هو حصول الجزم ، وقد حصل الجزم والاعتقاد بمتابعة

الإجماع ، وحسن الظن بأهل العقل والعلم - فقام ذلك الاستدلال الضمى .  
مقام الاستدلال الذاتى .

وقد أمر الله تعالى الذين يغيب عنهم شىء من فروع الدين أن يسألوا  
أهل العلم والتقوى فيهم ، فقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم  
لا تعلمون » (سورة النحل : ٤٣) وقال سبحانه : « وإذا جاءهم أمر من  
الأمّن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم  
لعلمه الذى يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان  
إلا قليلا » (سورة النساء : ٨٣) .

ولمّنه لظالم لنفسه ، مقصر فى أمر دينه ، سالك مسالك التية والضلال ،  
من عرض له أمر من أمور دينه ، وهو لا يدري وجه الحق منه ، ثم لم  
يسأل أهل الذكر عنه ، ويعرف حكم الشرع فيه .

ولمّنه لواجب شرعاً على أهل العلم أن يكشفوا حقائق الدين للعوام  
وأشباه العوام وأن يقوموا مقام الرسل فيهم ، بالدعوة إلى الحق ، وإزالة  
الشبهات ، وفضح الضلالات .. بقول الله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق الذين  
أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » (سورة آل عمران : ١٨٧) .

وخلاصة القول فى شأن التقليد والمقلدين فى الإسلام :

أولاً : أن أصول العقيدة والشرعة لا يجوز التقليد فيها ، ولا يصح  
إيمان المقلد فى تلك الأصول .. فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ،  
واليوم الآخر ، لا يكون الإيمان صحيحاً بها إلا باعتماد جازم ، ولا يقع

الاعتقاد إلا مع إدراك وعلم . . وكذلك الإيمان بما افترض الله على المسلم من عبادات ، وما حرم عليه من محرمات .

وقد توعد الله تعالى أولئك الذين وقعوا فريسة في أيدي دعاة الضلال ، وأئمة الفجور والفسوق ، وأنخذهم بما أخذ به قادتهم إلى هذا الضلال . وفي ذلك يقول الحق سبحانه : « إذ تبرا الذين اتبعوا من الذين انبعوا ، وروا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراء منا ؟ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم » ، وما هم بخارجين من النار . ( سورة البقرة : ١٦٦ - ١٦٧ ) . ويقول سبحانه : « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديننا كم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلموني ولو أنتم أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم » ( سورة إبراهيم : ٢١ - ٢٢ ) . . ويقول تعالى : « وإذا يستعاجون في النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » ( سورة غافر : ٤٧ - ٤٨ ) . ويقول سبحانه : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين أحق بعبادتهم القول ربنا هؤلاء الذين أغويانا ، أغويناهم كما غويننا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا شركاءكم فدعواهم فلم يستجيبوا لهم



ورأوا العذاب ، لو أنهم كانوا يهتدون » ( سورة القصص : ٦٣ - ٦٤ ) - ويقول تبارك اسمه : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أن نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كفتكم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نسكفر بالله ، ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا . . هل يحزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » ( سورة سبأ : ٣١ - ٣٣ ) .

ونعود بعد هذا للنسأل سؤالاً ذكرناه آنفاً وهو :

كم من المنتسبين إلى الإسلام منذ أخريات عصر الصحابة وإلى اليوم ، قد زهدوا في عقولهم واستغنوا عنها في التعرف على دينهم ، وتحولوا إلى جماعات من العميان فأساءوا أنفسهم لأهل الأهواء والبدع ، يقودونهم إلى حيث يشاءون ، كما يقود الجزار بهيمته إلى المذبح ؟ لهم كثيرون وكثيرون في كل بلد ، وفي كل جيل ، قد ركبوا طرقاً مختلفة ضالة ، من الطرق التي أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، في قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة » قيل من هي يا رسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي اليوم » .

والذي يعيننا النظر إليه في هذا المقام ، هو تلك الطرق الصوفية ، التي استهوت كثيراً من العامة وأشباه العامة ، وقد كثرت الأقوال في التصوف والمتصوفة ، قديماً وحديثاً واختلفت وجوه الرأي في أصحاب هذه الطرق ، وفي

الآخذين تلك الطرق معهم .. فهناك من يذهب إلى القول بأن القصوف هو الإسلام في أعلى منازلها ، وأصنى موارده ، وأنه أقوم الطرق وأقربها للإشراف على منازل القرب من الله ، وبلوغ مراتب الولاية .. وذلك على حين يرى كثيرون أن القصوف بدعة مستحدثة في الإسلام ، محملة بالاستهواء والتغريب ، لا ينجذب إليه إلا الجاهل والحمقى ، الذين يتهافون عليه ، كما يهافت الفراش على النار ، وأنه مصيدة للمآكل الآثمة التي ينصبها المشعوذون والمحتالون ، للتغريب بالفاس وسلب أموالهم . واستخدامهم كما تستخدم الأنعام .

ومن هنا ، كان علينا أن نكشف عن وجه هذه الظاهرة --- ظاهرة القصوف — وأن نحدد علاقة القصوف بالإسلام — إيجاباً أو سلباً — حتى يكون حكمنا عليه بعد هذا قائماً على ميزان العدل ، والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ، « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة » ( سورة الأنفال : ٤٢ ) .

ومع ما نعرف من ثقل هذه الأمانة ، وعظم تلك المسؤولية في هذا الموقف الذي نلقى الله تعالى به — فإنى لن أحجم أبداً عن حل هذه الأمانة ، وتحمل تبعاتها ، امعثالا لقوله تعالى : « ولتسكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » ( سورة آل عمران : ١٠٤ ) ولقوله سبحانه : « ولا تسكتوا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » ( سورة البقرة : ٢٨٣ ) .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر

ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه<sup>(١)</sup> على الحق أطراً ، وتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم — أى اليهود<sup>(٢)</sup> .

ويحسبنا في هذا الموقف أن نخلص النية ، وأن نتخلص من الهوى ، وأن نتحرى الحق ، ونهفى الظير للمسلمين ، ونحن في هذا مجتهدون ، إن أخطأنا فلنا أجر ، وإن أصبنا فلنا أجران ، كما يقول الرسول الكريم : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر . وذلك أن الخطأ هنا هو خطأ واقع من وراء نية البحث عن الحق ، على خلاف الخطأ المتعمد ، فإن صاحبه آثم ، عليه وزر خطئه ووزر من عمل به إلى يوم القيامة : « وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » .

هذا ، وإن البحث عن التصوف ، والتحقيق من نسبه إلى الإسلام ليقضيها أن نتعرف على دين الله ، ونتبين الأصول التي قام عليها . . فإذا عرفنا هذا أمكن أن نقيم على ميزان الدين كل قول يقال فيه ، وكل عمل ينسب إليه ، والله يهدي إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .




---

(١) أطرنه على الحق أطراً ، عطفه عليه ، ورده إليه ، وقصره على الحق قصراً ، قهره عليه ، والزمه إياه .  
(٢) رواه أبو داود ، والترمذي .



## الباب الثاني

### ألا لله الدين الخالص



## الفصل الأول

### الإيمان .. والشرك

في كل إنسان داع يدعو إلى الاعتقاد في قوة من القوى ، سواء كانت تلك القوة مشهودة له ، أو متخيلة له ، في عالم الأحلام والأوهام ، فيتميد لهذه القوة بألوان شتى من العبادات ، طمعاً في عونها ، أو خوفاً من ضررها .

وعلى قدر ما عند الإنسان من عقل ، وبصيرة وإدراك ، يكون معبوده الذي يعبده . . فقد ينحط عقل الإنسان فيعبد شجراً أو حجراً أو نهراً ، أو طائراً أو حشرة ، وإذا ارتقى عقل الإنسان درجة بعد درجة ، خرج من سلطان هذه المعبودات واحداً واحداً ، حتى لا يبقى من عالم المحسوسات شيئاً يعبده ، مهما بلغت قوته ، ومهما كان سلطانه . . وهنا يتجه ببصره إلى ما وراء الحس ، فيشهد فطرته أن فوق هذا العالم المحسوس قوة تقوم على هذا الوجود خلقاً وأمرأ . . قوة تنتهي عندها جميع القوى ، وتخصم لسلطانها كل المخلوقات . .

وهذا ما كان من إبراهيم — عليه السلام — حين مد بصره إلى قومه فرآهم ينحثون أحجاراً بأيديهم ، ثم يعبدونها ، ويقدمون لها القرابين . متصاغرين بين يديها ، خاشعين من ذلها — فأبت عليه فطرته ، وتأبى عليه عقله أن يكون لتلك الدخى الملقاة على الأرض أثر في نفع الإنسان أو ضرره ، وهي جاثمة لا تستطيع التحول عن حالها ، ثم أخذ إبراهيم — عليه

السلام — يدير بصره في العوالم القائمة على الأرض ، من جباد ، ونهات ، وحيوان ، فرآها جميعها أضعف من الإنسان قدراً ، وأضال شأنًا ، وإنه إذا صح أن يعبّد مخلوق لمخلوق ، وجب أن يعبّد الأدنى للأعلى ، لا أن يعكس الأمر فيعبّد الأعلى للأدنى ، كما يفعل هؤلاء الذين يعبدون ما يعبدون من عوالم الجباد ، والنهات والحيوان ، تلك العوالم التي سخرها الله تعالى للإنسان وأقامه خليفة عليها .

وحين أسقط إبراهيم عليه السلام — كل عوالم المخلوقات الأرضية ، وأنزلها من مقام عبودية الإنسان لها ، رفع بصره إلى السماء ، باحثًا عن قوة تخضع لها عوالم السماء كلها . . وفي هذا يقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم مسلّك السموات والأرض ، وليسكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا ، قال هذا ربي . . فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغًا قال هذا ربي فلما أفل ، قال لن لم يهْدني ربي لأكون من الضالين . . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين . . وحاجه قومه ، قال أتعجبوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئًا وسع ربي كل شيء علمًا ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنسكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعادون » (سورة الأنعام : ٧٦ — ٨١) .

وهكذا ينتهي النظر بإبراهيم — عليه السلام — إلى إيمان الفطرة والعقل ثم يأتيه من ربه إيمان الدعوة ، بما حمل إليه الوحي من آيات الله وكلماته .



— ٥٥ —

وكما يرتفع الإنسان من الشرك إلى الإيمان ، يدعى فطرته وعقله ،  
أو بدعوة رسول من رسل الله تعالى ، فإنه قد يتدلى الإنسان من الإيمان  
إلى الشرك ، بما يسوق إلى الإيمان من بدع وضلالات ، حتى يخون إيمانه  
وتزهد روحه ، من دخان الشرك المتصاعد من هذه البدع وتلك الضلالات ،  
وهذا ما كان من عرب الجاهلية ، الذي تحولوا من الإيمان الذي كانوا  
عابيه ، من دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام — إلى عبادة الأصنام  
التي وجدوا الإسلام عاكفين عليها .

● ★ ●

## الفصل الثاني

### الربوبية والالوهية

من الكلمات الدائرة على ألسنة المسلمين ، كلمتا الرب ، والإله ، وكثير من المسلمين لا يفرقون بين الكلمتين في مدلولهما ، فيجعلون كلمة الرب بمعنى كلمة الإله ، وكلمة الإله مقابلة لكلمة الرب . . والفرق بين الكلمتين هو الذي يفرق بين إيمان وإيمان ، بين إيمان خالص ؛ وإيمان متلبس بالشرك الذي يغتاله ، ويزيله من مكانه في العقول والقلوب .

فالزب :

من التزبية ؛ بحيث تولى الله سبحانه تصريف شئون خلقه ، وإمدادهم بكل ما يحفظ وجودهم من آلائه ونعمه ، فضلاً وإحساناً منه سبحانه : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (سورة طه : ٥٠) .

وأما الإله :

فهو الذي يأله له الخلق ، أي يفزعون إليه فيما ينوبهم ، وهو مشتق من الأله ، أي الفزع . . هذا ، ولم يختلف المبتدون لربوبيته تعالى ولم يشركوا به أحداً فيها : وإن كان بعض المبتدئين للالوهية يشركون في ألوهيته ، فيفزعون إلى غيره سبحانه في قضاء حوائجهم .

يقول محمد بن اسماعيل ، الأمير ، اليمني الصنعاني (١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ) :

( التوحيد قسمان ) :

### القسم الأول :

توحيد الربوبية والخالقية والرازقية : ومعنى هذا ، أن الله تعالى وحده ، هو الخالق للعالم ، وهو المربي لهم ، والرازق لهم .. وهذا التوحيد لا ينكره المشركون ، ولا يجعلون لله شريكاً فيه ، بل هم مقرون به :

يقول تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ( سورة الزخرف : ٨٧ ) .

ويقول سبحانه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن خلقهن العزيز العليم » ( سورة الزخرف : ٩ ) .

ويقول سبحانه : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . . فقل أفلا تتقون » ( سورة يونس : ٣١ ) .  
ويقول تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . . قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شيء ، وهو يحير ولا يحار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . . قل فأني تسحرون » .  
( سورة المؤمنون : ٨٤ - ٨٩ ) .

### والقسم الثاني

توحيد الألوهية ، وهو أفراد الله تعالى وحده بجميع العبادات ، والفرع إليه وحده سبحانه في كل ما ينوب الإنسان ، وما يرجو من جلب خير ، أو دفع ضرر ، وهذا هو الذي أشرك فيه المشركون .

وقد جاء رسل الله - عليهم الصلاة والسلام - بدعوة الناس إلى توحيد الله ، وتنزيهه سبحانه من أن يكون له شريك ، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم ، وأنه رب السموات والأرض ، إذ هم مقرون بهذا ، ولهذا لم ترذ الآيات القرآنية إلا بصيغة التقرير لوحدانية الله :

« هل من خالق غير الله ؟ » ( سورة فاطر : ٣ ) .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ » ( سورة النحل : ١٧ ) .

« أفى الله شك ، فاطر السموات والأرض ؟ » ( سورة الشورى : ١٠ ) .

« قل أغير الله أتخذ ولياً ، فاطر السموات والأرض ؟ » ( سورة

الأنعام : ١٤ ) .

« هذا خلق الله ، فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ؟ » ( سورة

لقمان : ١١ ) .

« أرونى ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك فى السموات ؟ »

( سورة الأحقاف : ٤ ) .

والرسل مبعوثون للدعوة إلى أفراد العبودية لله وحده :

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » ( سورة البقرة : ٢٢ ) .

« أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ » ( سورة الأنعام : ٢٢ ) .

« وقيل ادعوا شركاءكم ، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » ( سورة الأنعام : ٤٠ ) .

« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه ، لا يستجيبون لهم بشيء

إلا كياسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو بباله ، وما دعا الكافرين

إلا فى ضلال » ( سورة الرعد : ١٤ ) .

« إن الذين تدمون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » ( سورة الأعراف : ١٩٤ ) .

« والذين تدمون من دون الله ، لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون » ( سورة الأعراف : ١٩٧ )<sup>(١)</sup> .



وقد عرض شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه القضية عرضاً وافياً ، وذلك في كتابه : « كشف الشبهات في التوحيد » - يقول رحمه الله تعالى :

« اعلم رحمك الله ، أن التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة . وهو - أى التوحيد - دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده . فأولهم نوح - عليه السلام - أرسله إلى قومه لما غلوا في الصالحين : ود ، وسواع ، ويغوث ويعوق ، ونسرأ<sup>(٢)</sup> وآخر الرسل « محمد » - صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كسر صور هؤلاء الصالحين - أرسله الله تعالى إلى قوم يتعبدون ، ويحجون ويصدقون ، ويدكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض الخلائق وسائط بينهم وبين الله . يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله ، ونريد شفاعتهم عنده ، مثل الملائكة ، وعيسى ، وأناس غيرهم من الصالحين . فبعث الله محمداً -

---

(١) من كتاب : تظهير الاعتقاد عن أدیان الألاحاد ، لمحمد بن اسماعيل الصنعانى .

(٢) وهؤلاء من أهل الصلاح والتقوى فى زمنهم ، فلما ماتوا تعلق قومهم بهم ، وأقاموا على فبورهم المبانى الضخمة العالية ، وجعلوا يزورونهم •• ثم مع تراخى الزمن ، رفعوهم الى مقام الألوهية ، وعبدوهم من دون الله •• فكانت دعوة نوح عليه السلام ، هى كشف هذا الضلال الذى غرق فيه قومه •

صلى الله عليه وسلم - يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم - عليه السلام - ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد بحض حق الله ، لا يصلح منه شيء لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبى مرسل ، فضلاً عن غيرها ، وإلا فإن هؤلاء المشركين يشهدون أن الله هو الخالق وحده ، لا شريك له ، وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحى إلا هو ، ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السموات ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره .

ثم يقول الشيخ - رحمه الله - :

« فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون بهذا ، فأقرأ قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون ؟ » (سورة يونس : ٣١) . وغير ذلك من الآيات .

« فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ، ولم يدخلهم هذا في التوحيد الذى دعاهم إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرفت أن التوحيد الذى جحدوه ، هو توحيد العبادة ، الذى يسميه المشركون فى زماننا (الاعتقاد) كما كانوا يدهون الله سبحانه - ليلاً ونهاراً ، ثم مفهم من يدعون الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ، ليشفعوا لهم ، أو يدعون رجلاً صالحاً ، مثل « اللات » أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده

كما قال تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » (سورة الرعد : ١٥) . وتحققت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قائلهم ليسكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والاستغاثه كلها لله ، وجميع العبادات كلها لله ، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء الأولياء يريدون شفاعتهم ، والتعرب إلى الله بذلك ، هو الذى أحل دماءهم وأموالهم - إذا عرفت هذا ، عرفت حينئذ التوحيد الذى دعت إليه الرسل ، وأبى عن الإقرار به المشركون . وهذا التوحيد ، هو قولك : « لا إله إلا الله » - فإن الإله عندهم - أى المشركين - هو الذى يقصد لأجل هذه الأمور ، سواء كان ملكاً ، أو نبياً أو ولياً أو شجرة ، أو قبراً ، أو جنياً ، ولم يريدوا أن الله هو الخالق ، الرازق المدبر ، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، وإنما يعنون بالاله ما يعنى المشركون فى زماننا بلفظ « السيد » - فأتاهم النبي صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » والمراد من هذه الكلمة معناها ، لا مجرد لفظها والكفار والجهال ، يعلمون أن مراد النبي صلى الله عليه وسلم ، بهذه الكلمة هو أفراد الله تعالى بالتعلق به ، وبالكفر بما يعبدون من دون الله ، والبراء مما يعبدون من دونه . فإنهم لما قال لهم النبي - صلى الله عليه وسلم : قولوا : لا إله إلا الله قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب »<sup>(١)</sup> (سورة ص : ٥)<sup>(٢)</sup> .

ثم يمضى الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فى زيادة هذا الأمر وضوحاً فيقول :

(١) وهذا الاستسفاف منهم على سبيل الجحد والانكار .  
(٢) انظر كتاب : كشف الشبهات فى التوحيد : ص ٨ - ٩ .

« وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى في كتابه ، جواباً لسكلام  
احتجج به المشركون في زماننا ، عليهما ، فقول : » جواب أهل الباطل من  
طريقين : مجل ، ومنفصل .

« أما المجمل ، فهو الأمر العظيم ، والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك  
قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم  
الكتاب ، وآخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه  
منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى  
العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الأبصار »  
(سورة آل عمران : ٧) . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه  
قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سبى الله ،  
فاحذروهم »<sup>(١)</sup> . ومثال ذلك : إذا قال لك بعض المشركين : « ألا إن  
أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة يونس : ٦٢) وأن  
الشفاعة حق ، وأن الأنبياء لهم جاء عند الله ، أو ذكر كلاماً للنبي صلى الله  
عليه وسلم يستدل به على شيء من باطله ، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذى  
ذكره — فجوابه بقولك : إن الله تعالى ذكره أن الذين فى قلوبهم زيغ  
يتركون الحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكره أن  
المنكرين يقرون بالربوبية ، وأن كفرهم هو بقتلهم على الملائكة والأنبياء  
والأولياء ، مع قولهم :

---

(١) والذين سبى الله تعالى هم الذين فى قلوبهم زيغ ، كما جاء فى الآية  
الكريمة .



« هؤلاء شنعاءونا عند الله » — وهذا أمر محكم بين ، لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرت لي أيها المشرك ، من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكنني أقطع أن الله تعالى لا يتناقض ، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخالف كلام الله . وهذا كلام سديد ، لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهونوه فإنه كما قال الله تعالى : « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (سورة فصلت : ٣٥) .

ثم يقول الشيخ — رحمه الله : —

« وأما الجواب المفصل . فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة، يصدون بها الناس ، منها قولهم : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا ينفع ولا يضر ، إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرراً ، فضلاً عن (عهد القادر) — الجيلائي ، أو غيره .

« ولكن أنا مذهب ، وهؤلاء الصالحون لهم جاء عند الله ، وأطلب من الله بهم ١١

« فجاوبه : بأن الذين قاتلهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقرون بما ذكرت ، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً ، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة بهم . واقرأ عليه ما ذكر الله تعالى في كتابه ووضعه . فإن قال إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبدون الأصنام ، فكيف يجعلون الصالحين أصناماً ؟ — فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله ، وأنهم ما أرادوا من قصدوا إلا الشفاعة .

فاذكر له أن الكفار ، منهم من يدعو الصالحين ، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين يدعون ، يتغنون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه » (سورة الإسراء : ٥٧) . ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » (سورة المائدة : ٧٨) . واذكر قوله تعالى : « يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك ، أنت ولهمنا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (سورة سبأ : ٤٠ - ٤١) . ثم قل له : أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضاً من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

« فإن قال : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار ، المدبر ، لا أريد إلا منه . والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم !!

« فالجواب : أن هذا وقول الكفار سواء بسواء . واقرأ عليه قوله تعالى : على لسانهم : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (سورة الزمر : ٣) .

وقوله تعالى على لسانهم أيضاً : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (سورة يونس : ١٨) .

ثم يبغي الشيخ رحمه الله ، في دحض حجج أهل الشرك - فيقول :  
« فإن قال - أي الشرك - : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد

### الأصنام !!

« فقل له : وما معنى عبادة الأصنام ؟ أتظن أن عبادها يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار ، تخلق ، وترزق ، وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذب القرآن بما نطق به على ألسنتهم .

« وإن قال : الشرك هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية ، أو غيرها ، يدعو ذلك ويذبح له ، ويقول : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع عنا الهلاك ببركته .

« فقل له : صدقت . . وهذا هو فعلكم عند الأحجار والبنائات التي على القبور وغيرها . » (١) .

ثم ينهى الشيخ - رحمه الله - هذا الموقف بقوله :

« فإذا عرفت أن هذا الذي يسميه المشركون في وقتنا هذا « الاعتقاد » - أي الاعتقاد في جاء من يقوسلون به - هو الشرك الذي نزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه - فاعلم أن شرك الأولين - أي أهل الجاهلية - أخف من شرك أهل وقتنا ، بأميرين :

### ( أحدهما ) :

« أن الأولين لا يشركون ، ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا في الرخاء . . أما في الشدة فإنهم يخلصون الله الدين ، كما قال

(١) ص : ١٠ - ١١ من كتاب كشف الشبهات .

الله تعالى : ( قل أرايتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون ) . ( سورة الأنعام : ٤٠ - ٤١ ) وقوله سبحانه : « وإذا غشيهم موج كالأظلم ، دعوا الله مخلصين له الدين » . ( سورة لقمان : ٣٢ ) .

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدعون الله ، ويدعون غيره في الرضاء ، وأما في الضر والشدة ، فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له - وينسون سادتهم - فمن فهم هذا ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا ، وشرك الأولين ! ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً ؟ والله المستعان .

### ( الأمر الثاني ) :

« أن المشركين الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله ، إما أنبياء وإما أولياء ، وإما ملائكة ، أو يدعون أشجاراً وأحجاراً مطيعة لله ، ليست عاصية وأهل زماننا ، يدعون مع الله أناساً أفسق الناس ، والذين يدعونهم هم أنفسهم الذين يذكرون عنهم الفجور ، من الزنا ، والسرقه ، وترك الصلاة ، وغير ذلك » <sup>(١)</sup> .



ونقول ، رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ورضى عنه ، فقد فتح

(١) ص : ١٦ - ١٧ من كتاب كشف الشبهات .

بصره وبصيرته على هذه الأمة ، وهى تموج فى بحار الشرك والسكفر ، لا يكاد يبدو للإسلام فيها أى معلم من معامله ، فى عقيدة أو شريعة أو سلوك ، فآلمه الله أن يقوم فى وجه هذا الضلال الغليظ ، وأن يقيم ما استطاع أهله وعشيرته على صراط الله ، وأن يحدد لهم إيمانهم مبرأ من الشرك ، ودخائل الشرك ، حتى استتاع بمؤازرة من هداهم الله إلى الحق ، وشرح صدورهم له . أن يفتح طاقة من نوره ، حيث مطلع الرسالة الإسلامية ، ثم ما زالت تلك الطاقة تتسع ، وتتسع حتى وسعت الجزيرة العربية كلها ، ثم جاوزتها إلى آفاق كثيرة من أوطان الإسلام .

ومع هذا فإن جرائم الشرك ما زالت تسيح فى عقول كثير من المسلمين وتغفل مواطن الإيمان من قلوبهم ، حتى امتكاد تلك الجرائم تتسلط على أوطان بأكملها ، ولسان الحال هنا أفصح من كل مقال . . فهناك من أوطان المسلمين من دخلت فى الشيوعية رسمياً ، وآمنت بما آمن به الشيوعيون من أنه لا إله ، ولا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، وأن الدين هو « أفيون » الشعوب ، وأنه إذا كان هناك دين ، فهو المادة والدولة . . وهناك أوطان إسلامية لم تعلن رسمياً أنها تدين بالشيوعية لسبب أو لآخر - ولكنها تسير إليها بخطوات حثيثة واسعة !

وما ذلك إلا لأن الإسلام ، قد أخلى أو أوشك أن يخلى مكانه من عقول الناس وقلوبهم فى هذه الأوطان ، بما دخل عليهم من بدع المبتدعين ، وضلالات المضللين . ومن هنا وجد الإلحاد مكاناً خالياً مهيئاً له .

ولو أنه كان للإسلام مكانه الصحيح فى تلك الأوطان التى دينها

الإسلام ، لما جرؤ حاكم قائم على دولة إسلامية أن يعان على الملأ لإبطال أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلًا في تحمد وقاح : « حسبنا القرآن » !! بل إن هذا الجاهل المغرور ، جعل يغير في القرآن بما أملاه عليه شيطانه فكان يؤم الناس بالصلاة عن عمدٍ وسبق لإصرار لتبديل كلمات الله فيقرأ كل آية مصدرة بخطاب الله تعالى لرسوله الكريم بقوله تعالى : « قل » دون أن يذكر كلمة « قل » بل يقرأ : « الله أحد الله الصمد » .. « أهوذ برب الخلق » . « أهوذ برب الناس » دون كلمة قل في السور الثلاث ، مدعيًا أن الله قال ذلك للنبي ، ولم يقله لنا ! سبحانك هذا بهتان عظيم !!

والحق يدعوننا أن نذكر اسم هذا الحاكم ، وأن نلعنه على الملأ ليسكون تحت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .. إنه هو « نعيم القذافي » مسيلمة هذا الزمن ، وحاكم ليبيا ، الدولة المسلمة العريقة في الإسلام .

ولو أن الإسلام كان على صحته وسلامته ، وبكل حقايقه العليا ، راسخًا في العقول والقلوب ، لما كان لأى مذهب ضال ، أو دين فاسد أن يزحزح الإسلام قيد أنملة من مكانه . . وهل تجد الجرائم لها مكانًا في الجسد السليم ؟ لأنها تموت بمجرد أن تتصل بمثل هذا الجسد ، حيث تأتي عليها قوى المناعة والحصانة من هذا الجسد ، فتهلكها قبل أن تنال منه شيئًا .

فهل للمسلمين اليوم ، من يجدد لهم دينهم ، كما فعل محمد بن عبد الوهاب ؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وقد مضى على وفاة محمد بن عبد الوهاب

أكثر من مائتي سنة<sup>(١)</sup>. ومعنى هذا أن هذا المجدد قد أطل زمانه والمكان  
خال مهياً لاستقباله ، ولا شك أن المجدد بعد المائة الأولى من وفاة هذا الإمام  
قد ظهر في آل سعود ، الذين حلوا الأمانة من بعده ، إلى أن تم لهم فتح  
الجزيرة العربية كلها ، وجدّدا لأهلها دينهم ، فن هو ذلك المجدد الذي ندبه  
الله لتلك المهمة الجليلة العظيمة في وقتنا هذا ، وفي المائة الثانية من وفاة  
الإمام ؟ ذلك ما ينكشف عنه الغد ، « وإن غداً لناظره قريب » .



هذا ، وقد آن لنا أن نلتق بتلك الجهة التي يحاول ذلك المجدد المنتظر  
أن يعول جهادها ، ودفع ما تسوقه إلى المسلمين من بلاء ..

---

(١) ولد - رحمه الله سنة ١١١٥ - وتوفي سنة ١١٧٩ هـ .





# البَابُ الثَّالِثُ

عالم التصوف والمتصوفة



## الفصل الاول

من ظاهر هذا العالم الصوفي

كلمة التصوف :

لم تدخل في قاموس اللغة العربية ، ولم تجر على ألسنة العرب في الجاهلية  
وفي صدر الإسلام ومدة عصر الخلافة الأموية ، لفظة ( التصوف ) !

فهي كلمة ولدت فيما ولد ، واستحدثت ، من كلمات في العصر العباسي  
الأول ، حيث اشتد اختلاط المسلمين من الفرس ، والروم ، بالعرب ، وامتزجوا  
بهم ، وأصهروا إليهم ، ثم اتسع نفوذهم السياسي ، والاجتماعي ، حتى  
اصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية ، في أنظمتها السياسية ، وفي مظاهر  
حياتها الاجتماعية ، وحتى كادت الخلافة تتحول إلى الفرس على يد « البرامكة »  
في خلافة الرشيد ، لولا أن تنبه لهم ، وفكك بهم .

في هذا الجو ولدت كلمة « التصوف » تلك الكلمة الوافدة على اللغة  
العربية ، والتي لم يرد لها ذكر في كتاب الله ، ولا على لسان رسول الله ،  
ولا على ألسنة الصحابة والتابعين . بل إنها لم تجر على ألسنة الشعراء ،  
والخطباء في الجاهلية .

والكلمات أشبه بالكائنات الحية ، في أعمارها ، وآثارها . . فبعض  
الكلمات يموت بعد مولده ، لا يكاد يجرى على لسان أو بضعة ألسنة ، حتى

يختمنى إلى الأبد ، وبعض الكلمات يولد ، ثم تمتد حياته مع الناس جيلا بعد جيل ، ما دام للناس حياة على هذه الأرض . . ومن تلك الكلمات الحية تغذى العقول ، وتخلق المدركات وتنمو المشاعر ، حيث تبعث الدفء والأمل والحياة في الناس . . ومن بين تلك الكلمات التي تتصل بحياة الناس ما هو طيب ، ومنها ما هو خبيث . . فن الكلم الطيب قام التوحيد والإيمان الحق بالله ، ومن الكلمات الخبيثة ، قامت المذاهب الضالة ، والديانات المنحرفة التي يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، في كثير من الأمم والشعوب .

وبين هذه الكلمات التي تنمو ليومها ، والكلمات التي تصحب الزمن على امتداده ، أشكال كثيرة من الكلمات التي تملأ الفراغ الذي بين هذين الطرفين من الكلام .

وكلمة « التصوف » من الكلمات التي امتد بها الزمن طويلا ، فهي تعيش في المجتمع الإسلامي منذ اثني عشر قرناً ، ولا زالت تحيا ، وتمتد في هذا المجتمع إلى اليوم .

والكلمات التي تصحب الناس في حياتهم زمناً بعد زمن ، وقرونًا بعد قرون ، قد تكون من مواليد البركة والخير ، أو من مواليد الشؤم والشر . . فكلما أن الحق والباطل والخير والشر ، والهدى والضلال ، هي معان تعيش في الحياة مع الناس ، على ما بينها من تضاد — كذلك الكلمات التي تدل على هذه المعاني المتضادة ، تعيش في الحياة مع الناس ، وتجري على ألسنتهم ، وتؤثر في سلوكهم . إما حقاً وخيراً وهدى مع كلمات الحق والخير ، والهدى ، وإما شراً وبلاء ، مع كلمات الباطل والشر ، والضلال .

وقد ضرب الله تعالى مثلاً للكلمة الطيبة ، وآثارها المباركة ، وثمراتها

الطيبة . . فقال تعالى : « ألم تركب ضرب الله مثلاً ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (سورة إبراهيم : ٢٤ — ٢٥) .

كذلك ضرب الله سبحانه مثلاً للكلمة الخبيثة ، وآثارها السيئة ، وثمراتها السكدة ، فقال تعالى : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » (سورة إبراهيم : ٢٦) .

ولإذا كان هذا شأن الكلمة — طيبة كانت أو خبيثة — في حياة الناس وتأثيرها بها ، في صياغة أفكارهم ، وفي تشكيل أعمالهم — وإذا كان هذا شأن الكلمة ، فإن الحكمة تقضى بأن يتحري الإنسان اختيار الكلمات التي يصحبها في حياته ، ويتعامل بها مع الناس — أخذاً وإعطاء — كما يتحري ذلك في اختيار أصدقائه ومعارفه ، وشركائه ، فإن الكلمات هن أمهات الأعمال ، فالكلمات الطيبة تفرى بالأعمال الناجحة الطيبة ، والكلمات الخبيثة توحى بالأعمال الفاسدة المنكرة .

والسؤال هنا هو : ماذا توحى كلمة « التصوف » من موحيات الأعمال ؟ وما وزن هذه الأعمال في ميزان الخير أو الشر ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، يحسن بنا أن نجيب على سؤال آخر هو : ما مدلول كلمة ( التصوف ) ؟ وما نسبتها إلى اللغة العربية ؟ وهل هي مشتقة من أصل عربي أو معربة من أصل أعجمي ؟

### التصوف والصوفية :

اختلف الناس كثيراً في تحديد المصدر الذي دخلت منه كلمة التصوف

أو الصوفية إلى اللغة العربية . . فيقول « الكلاباذي » في كتابه : « التعرف لمذهب أهل التصوف » :

« قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية ، لصفاء أسرارها ، وفناء آثارها . . ! !

« وقال بشر بن الحارث . الصوفي ، هو - أي الصوفي - من صفا قلبه ! !  
( وقال قوم : إنما سموا صوفية ، لأنهم في الصف الأول بين يدي الله تعالى بارتفاع همهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه ! !  
« وقال آخرون . إنما سموا صوفية للبسهم الصوف .

« وقال غيرهم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ثم يعقب الكلاباذي ، على هذه الأقوال ، بقوله :

« أما من نسبهم - أي الصوفية - إلى الصفة والصوف فإنه يعبر عن ظاهر أحوالهم ، وذلك أنهم تركوا الدنيا ، فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الغلان ، وساحوا في البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأهروا الأجساد ، ولم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه ، من ستر عورة ، وسد جوعة ! !

وقال السري السقطي في وصفهم : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرق ، وكلامهم كلام الخرق . . وهذه كلها أحوال أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا غرباء ، فقراء ، مهاجرين ، خرجوا من ديارهم وأموالهم » (١) .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، للكلاباذي ص : ٢٨ - ٢٩ .

وهذه التعريفات للتصوف ، المتصوفة ، هي من مقولات المتصوفة أنفسهم ، ومن نظرهم إلى أنفسهم بعين الرضا عما هم فيه . . وهين الرضا عن كل عيب كليله ، كما يقولون .

ويقول ابن الجوزي ، في كتابه : « تلبس إبليس » عن منشأ الصوفية : « الصوفية ، من جملة الزهاد ، وقد ذكرنا تلبس إبليس على الزهاد ، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال ، وتوسموا بسمات .

والتصوف طريقة كان ابتداءؤها الزهد الكلي ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام ، لما يظهرونه من الزهد . . ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عنده - أي التصوف - من الراحة واللعب ! ثم يقول ابن الجوزي .

« كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن . . ثم حدث اسم . زاهد ، وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، فغفلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، رجل كان يقال له « صوفة » واسمه الغوث بن مر<sup>(١)</sup> ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، فسموا بالصوفية .

ثم يقول ابن الجوزي :

« وقد ذهب أقوم إلى أن التصوف ، منسوب إلى أهل الصفة . . فإن

(١) وقيل إن اسمه صوفة بن آدم بن طابخة ، كما يقرر ذلك ابن تيمية .

أهل الصفة كانوا قراء ، يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل لهم أهل الصفة .. « وفي الصحيح ، عن الحسن ، قال : بنيت صفة لضعفاء المسلمين ، فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ، فيقول : السلام عليكم يا أهل الصفة فيقولون : وعليك السلام يا رسول الله .. فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير يا رسول الله » .

ويعلق ابن الجوزي على هذا بقوله :

« وهؤلاء القوم ، إنما قعدوا في المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين ، استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا منها ثم يقول ابن الجوزي :

« ونسبة الصوفي إلى أهل الصفة غلط من جهة اللغة ، لأنه لو كان كذلك لقليل : صنف .

« وقد ذهب ذاهب إلى أنه — أى التصوف — من « الصوفانة » وهى بقلة رعناء قصيرة ، فنسبوا إليها لاجتزائهم بينات الصحرَاء ١١ « وهذا أيضاً غلط ، لأنه لو نسبوا إليها لقليل : صوفانى .

« وقال آخرون : هو منسوب إلى صوفة القفا ، وهى الشمرات الغابتة فى مؤخرة العنق ، كأن الصوفى عطف به إلى الحق ، وصرفه عن الخلق ١١ « وقال آخرون ، بل هو منسوب إلى الصوف » وهذا يحتمل (١) ١١

---

(١) أى من جهة اللغة ، فان النسبة الى الصوف ، صوفى .



ثم ينهى ابن الجوزى إلى بيان الجهة التى ينسب إليها الصوفى ، فيقول :  
« والصحيح الأول »<sup>(١)</sup> .

أى أن ابن الجوزى يرى صحة نسب الصوفية إلى « صوفة » واسمه الغوث  
ابن مر كما ذكر من قبل .

ونقول إن نسبة الصوفية إلى « صوفة » هذا الذى عاش فى الجاهلية —  
إذا صح أن الصوفية نسبوا طريقهم — أو طرقهم — إليه — هذه النسبة  
تلقى ظلالاً من التهم حول صحة نسبتهم إلى الإسلام ، لأن الرجل الذى انتسبوا  
إليه لم يكن على دين صحيح ، وإن سلك مسلك الزهد والتعبد ، حيث لا يستبعد  
أن يكون هذا مذهباً شخصياً له ، أو أنه تلقاه من بعض النساك والرهبان ،  
أو وصل إليه من بعض أصحاب الديانات الهندية .

وأياً كان هذا الرجل من الزهد ، والعبادة ، فإنه على فرض أنه كان  
مؤمناً بالله — لم يكن مؤمناً بمحمد رسول الله — صلوات وسلامه عليه ، الأمر  
الذى لا يتحقق إيمان المسلم معه إلا بالإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم  
ثم يرسل الله جميعاً — بعد الإيمان بالله .

ولمذنب ، فإن على الصوفية أن يتبرءوا من نسبتهم إلى صوفة هذا ، إن  
أرادوا أن يكون بينهم وبين الإسلام نسب صحيح ! !

وأما نسبة الصوفية إلى أهل الصفة ، فإنها غير صحيحة من جهتين :

---

(٢) تليپس ابلپس ٤ لابن الجوزى ص ١٦١ — ١٦٢ . طبعة ١٣٩٦ هـ .

### الجهة الأولى :

وهي اللغة ، حيث أن النسبة إلى الصفة لغة هي « صفي » ( بضم الصاد ، وتشديد الفاء مع السكسر ) .

### الجهة الثانية :

هي الصفة الجامعة بين المنسوب والمنسوب إليه . . فأهل الصفة لم يكونوا أشخاصاً بأعيانهم ، ولم تكن لهم صفة تميزهم في عباداتهم عن سائر المسلمين . . كما أنه لم تكن الصفة مكاناً جامعاً لهم ، إلا في حال عارض ، فلما ذهب هذا الحال العارض خلا السكان منهم ، والصوفية على غير هذا ، بما لهم من صفات ، وشارات ، يميزون بها .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - في كتابه : « الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » :

« وكانت الصفة شمالى مسجده - صلى الله عليه وسلم - ينزل إليها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ، ينزلون عندهم ، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد ، إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه !

ثم يقول ابن تيمية :

« ولم يكن أهل الصفة ناساً بأعيانهم ، يلزمون الصفة ، بل كانوا يلقون تارة ، ويكترون أخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ، ثم ينتقل منها . .

والذين ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين ، ليس لهم مؤزية في علم أو دين بل فيهم من ارتد عن الإسلام ، وقتله النبي صلى الله عليه وسلم ، كالعربانيين (١) الذين اجتمعوا للدينة (٢) حتى اسعوا نحوها ، فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ببلقح - أى إبل ذات لبن - وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها . فلما صبحوا قتلوا الرائي ، واستاقوا الإبل ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، وتركوا في الجرة ، يستسقون ولا يسقون . وحديثهم وارد في الصحيحين من حديث أنس ، وفيه أنهم أنزلوا الصفة : فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين : سعد بن أبي وقاص ، وهو أفضل من نزل بالصفة ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

« وأما الأنصار ، فلم يكن أحد منهم من أهل الصفة ، وكذلك أكابر الصحابة كآبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبي عبيدة وغيرهم »<sup>(٢)</sup>.



(١) نسبة الى عرينة ، قبيلة عربية ، وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم بعض منهم ، فأعلنوا اسلامهم ، واستضافهم المسلمون مدة : ثم أصابهم مرض فى المدينة ، فأخرجهم النبي الى البادية ، وسير معهم بعض الابل مع واستاقوا الابل يريدون قومهم ، فلحق بهم المسلمون ، وجاءوا بهم الى رسول واستاقوا الابل . يريدون قومهم ، فلحق بهم المسلمون ، وجاءوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام عليهم حد المحاربة الذى جاء فى قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » ( المائدة : ٣٣ ) .

(٢) اجتنبوا المدينة : أى كرهوا بها .

(٣) الفرقان : بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .

(٦ - التصوف )

هذا ، وأبقى الأنساب بالصوفية ، نسبتهم إلى الصوف ، من حيث صحة هذا النسب لغة ، ثم من حيث صحته معنى ، إذ كان الغالب على طلائعهم الأولى ليس الخشن من الثياب ، زهداً في الدين ، والزهد في طيحات الحياة أيضاً .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه .

« وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » ، فدخل فيهم العلماء والنسك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية » ، والقراء .

« واسم الصوفية ، هو نسبة إلى لباس الصوف . . هذا هو الصحيح .  
« وقد قيل : لأنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صفوة بن أد ابن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك . وقيل نسبة إلى الصفة ، وقيل نسبة إلى الصفاء . وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى .

« وهذه كلها أقوال ضعيفة .

« وهذا — أى الصوف — عرف حادث<sup>(١)</sup> !! أى أنه لم يكن في عهد رسول الله ، ولا في عهد الصحابة والتابعين وبهذا يصدق عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار »

ويقول ابن الجوزي : إن « التصوف » قد ظهر في أواخر المائة الثانية من الهجرة .

(١) المصدر السابق ص : ١٣ .

وهذا يعنى أن كلمات القصوف ، والصوفى ، والصوفية ، والمصوفية ،  
كان ميلادها فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، حيث لم ينطق بها  
فم قبل هذا الوقت ، فهى إذن كلمة دخيلة على الإسلام أريد بها من أعداء  
الإسلام أن يفتحوا بها ثغرة جديدة فى سياج الإسلام إلى جانب الثغرات  
الكثيرة التى فتحت فى هذا العصر ، وأن يضربوا الإسلام بسهم فى مقاتله  
إلى السهام التى كان يرمى بها .

وسنرى فى هذا المبحث إن شاء الله كيف جلب التصوف على الإسلام  
والمسلمين من شر ، وساق إليهما من بلاء .



## الفصل الثاني

### إن الدين عند الله الإسلام

#### أمة واحدة :

الأمة الإسلامية ، أمة واحدة ، ليست أمماً ، ولا فرقاً ، ولا مذاهب .  
 دستورهما القرآن ، وأسوتها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فكل من  
 آمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، وما بينه رسول الله ، كان مسلماً  
 وأخذ مكانه في الأمة المسلمة . . يدين بما يدين به المسلمون ، ويتعبد بما يتعبدون  
 به ، ويصف قدميه مع أقدامهم ، في كل أمر ، كما يفعل المسلمون في الصلاة .  
 فمن خرج عن الصف قليلاً أو كثيراً أعوج به الصف « والله تعالى لا ينظر  
 إلى الصف الأعوج » كما يقول الرسول الكريم .

هكذا المسلمون ، جسد واحد ، وبنیان واحد ، يشد بعضه بعضاً . فمن  
 شد عنهم شد في النار ، كما يقول الرسول . . صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا كان المسلمون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة  
 أبي بكر وعمر ، رضى الله عنهما . . ثم كانت الفتنة التي انتهت بقتل عثمان  
 رضى الله عنه ، ثم الحرب بين علي - رضى الله عنه - وبين عائشة وطلحة  
 والزبير ، ثم الحرب بينه وبين معاوية .

وكانت هذه الحروب عن خلافات اجتهادية ، لم يكفر فيها أحد الفريقين  
 الفريق الآخر .

فلما كانت الحرب بين علي ومعاوية - رضى الله عنهما - برقت من جيش علي مارقة، عرفت بالخوارج، فسكفرت المسلمين جميعاً، وهدت نفسها هي الجماعة المسلمة، وهي الفرقة الناحية، « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس: ١٢).

ثم توالى الأحداث بعد هذا، فظهرت فرق كثيرة، من فرق المعتزلة وفرق الشيعة، حتى الخوارج، انقسموا على أنفسهم، فكانوا فرقاً يكفر بعضها بعضاً.

وقد تحقق بهذا ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الشريف: « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة... قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي » (١).

وإذا كانت هذه الفرق التي انفصلت عن الأمة الإسلامية، بسبب دوافع سياسية ومطامع ذاتية، فعدت من الاثنتين والسبعين فرقة التي أخبر عنها الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنها في النار - فإنه يلحق بهذه الفرق، ويرد معها موردها من النار، كل من ابتدع في الدين بدعة، سواء أكانت تلك البدعة أفعالا، في الدين بالزيادة على ما أمر الله تعالى به، أم تحييفا على الدين باسقاط حكم من أحكامه... يقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم: « إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل

ضلالة في النار»<sup>(١)</sup> ويقول - صلوات الله وسلامه عليه - «إياكم ومحدثات الأمور»<sup>(٢)</sup> . . ويقول : « من فعل أمراً ليس عليه أمرنا فهو رد»<sup>(٣)</sup> .  
أى مردود عليه ، يحمل وزره يوم القيامة ، ويقول سفيان الثوري - رضى الله عنه : « لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول ، وعمل ونية ، إلا بموافقة السنة»<sup>(٤)</sup> ويقول أيضاً : « البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ، لأن المعصية يقاب منها ، والبدعة لا يقاب منها » وذلك لأن صاحب المعصية قد ينظر إلى نفسه فيرى أنه على غير الطريق المستقيم فعنازعه نفسه إلى الخروج من هذا الطريق . . أما صاحب البدعة فإنه يرى أنه على طريق مستقيم ، فلا يتحول عنه أبداً .

ويقول ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : « من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، فإن الله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » ( المائدة : ٢ ) .

ويقول الإمام الشاطبي في كتابه « الاعتصام » : « إن المبتدع معاند للشرع ، ومشاق له ، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة ، على وجوه خاصة ، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي ، والوعد والوعيد ، وأخبر أن الخير فيها ، وأن الشر في تعديها . . لأن الله يعلم ونحن لا يعلم ، وأنه

- 
- (١) الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .  
(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .  
(٣) من حديث رواه أبو داود والترمذى .  
(٤) من حديث أم المؤمنين عائشة في الصحيحين .  
(٥) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص : ١٢



إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.. فالمبتدع معاند لهذا كله ،  
فانه يزعم أن ثمة طرقاً أخرى.. كأن الشرع لا يعلم ، ونحن أيضاً لا نعلم ، بل ربما  
يفهم من استدراكه الطرق على الشارع ، أنه علم ما لا يعلمه الشارع .  
« وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع ، فهو كفر بالشرعية والشارع ، وإن  
كان غير مقصود ، فهو ضلال مبين » ١٠١ .

### العصوف .. إلى أين وجهته ؟

تحتسب كلمة « العصفوف » كما أشرنا من قبل — في المستحدث على لسان  
اللغة العربية ، ومن الكلمات ذات الشهرة العالية ، والذويوع الواسع ، فقد ظفرت  
تلك الكلمة في هذا المجال ، من الشهرة والذويوع ، بما لم يظفر به سوى أعداد  
قليلة من الكلمات التي كان لها في مجال الدين أو السياسة شأن

وقد سجل التاريخ لسكلمة « العصفوف » تحركات واسعة في مجال الفكر  
الإسلامي ، عصر بعد عصر ، وقل أن يخلو كتاب إسلامي ، أو أدبي من  
دوران هذه السكلمة في فصوله وأبوابه ، استعجانا أو استحسنانا .

ذلك أن العصفوف منذ اتخذ له مكاناً في المجتمع الإسلامي ، وهو مشقبيك  
في صراع عنيف ، وجدل متصل ، بين أوليائه وخصومه .. وليس مثل  
الخصومة في الدين ، والجلد حول أحكامه ومبادئه ، في إثارة  
النفوس ، وتهيج المشاعر ، وتحريك الألسنة والأقلام ، إن لم تكن السيوف  
والسهام !؟

ويذكر تاريخ الإسلام تلك الخصومات العنيفة المسعرة التي وقعت بين  
أصحاب المذاهب والنحل من جماعات المسلمين .

وتاريخ الخوارج ، والدماء التي سفكوها ، والدماء التي أريقَت منهم ، شهادة قاطعة لما نقول . . فقد بدأ الصراع بينهم وبين جماعة المسلمين ، خلافاً في الرأي ، ثم جدلاً فيه ، ثم تعصباً له ، ثم حرباً وقتالاً من أجله . . وكذلك كان الشأن فيما وقع بين الشيعة والسنة . . بدأ خلافاً في الرأي ، ثم جدلاً ، ثم تعصباً وقتالاً . .

أما الصوفية فإنهم — وإن لم تكن لهم مشاركة ظاهرة في الصراع الدموي — فقد كان لهم في ميدان الصراع الفكري جولات واسعة شملت جميع ميادين الجدل والمناقشة ، وجذبت إليها طوائف كثيرة من المسلمين ، وبخاصة العوام ، الذين ينقادون وراء كل داعية يأتي بالبدع والجديد من الآراء الخارجة على أصول الشريعة .

ومجال القول في التصوف والصوفية ، مجال فسيح لسكل ذى لسان أو قلم ، من المادحين والمقادحين على السواء . . إذ كان عالم التصوف عالماً رحب الجوانب مختلف المستويات ، في مناهجه ، وفي سلوك أتباعه . .

أما مناهج التصوف . فإنها أكثر من أن تضبط لها حدود ، أو يعرف لها وجه ، لأن طبيعة التصوف تسمح لأربابه أن يضعوا من المناهج ، ويرسموا من الطرق ما تفيض به مشاعرهم ، وما ينبعث من أشواقهم ومواجدهم ، حيث يدخل العقل مكانه ، تاركاً للذوق ، أو الهوى ، أن يملأ ما يشاء . . ومن هذا كان لسكل شيخ طريقته التي يسلكها إلى حيث تشير أشواقه ومواجده ، وإلى حيث يملأ هواه ، وتبلغ أطماعه .

أما المتصوفة أنفسهم ، فهم أنماط وأشكال لا عدد لها ولا حصر . . ففيهم

العلماء والفقهاء ، وفيهم الشذج والأغفال ، وفيهم الفلاسفة والحكماء ، وفيهم المعجاذيب والمهابيل ، وفيهم أولو الصدق والعزم ، وفيهم المخادعون المضللون . .

من أجل هذا كانت نظرة الناظرين إلى القصوف والمتصوفة ، تأخذ أكثر من أفق .. ومن هنا تباينت وجهات النظر ، واختلفت معايير الرأى ، واضطرب ميزان الحق ، في يد الأولياء والخصوم جميعا .. وحتى لسكان الشاعر على المتصوفة بقوله :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاهى  
شجبا قلب النخلى فقال غنى وبرح بالشجى ، فقال فاحا

الدين . . والتصوف :

ولاه من نافلة القول أن نشير إلى تلك الصلة بين الدين — أى دين — وبين القصوف . . إذ كان المتيجه الذى يتجهان إليه واحداً ، هو التعرف على الله ، والإيمان به ، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات ، ومجاهدة النفس ، ومغالبة الهوى . .

فالدين عقيدة وعمل ، والتصوف عقيدة وعمل ، ولا خلاف بينهما فى مناهل العقيدة ، وإن اختلفنا فى كثير أو قليل من وجوه العمل . .

ولهذه الصلة التى بين الدين والتصوف ، لم يسكد يغلو أهل دين من الأديان السماوية أو الوضعية ، من ظاهرة القصوف ، تلك الظاهرة التى تجذب إليها أعدادا كثيرة من المتصوفة ، ينزهون منزع الزهد ، والرهينة ،

والانقطاع للعبادة ، في صور وأشكال مختلفة ، وفي طرق وأحوال شتى .  
ففي اليهودية متصوفة ، وفي النصرانية متصوفة ، وفي البوذية متصوفة ،  
وفي الزرادشتية متصوفة . . ثم كان في الاسلام متصوفة !!

إن المؤمن ، وإن أدرك بعقله حقائق الايمان ، واستسلم لها ، فإن قلبه  
يظل دائماً متشوقاً إلى مواطن الاطمئنان الذي يجد منه برد السكينة واليقين . .  
لأنه مع إيمانه الراسخ ، في حاجة إلى نفحة من نفحات السماء ، تقطع الطريق  
على نزعات الهوى ، ووساوس الشيطان !!

وقد أرانا الله سبحانه المثل في خليله إبراهيم - عليه السلام - وهو من  
هو في وثاقة إيمانه ، وصدق يقينه ، إذ يقول مخاطباً ربه : « رب أرني كيف  
تحيي الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى . . ولكن اطمئن قلبي » . ( سورة  
البقرة : ٢٦٠ ) .

فاطمئنان القلب شيء أكبر من الإيمان ، وأبلغ منه .

وهذا موسى عليه السلام يقف هذا الموقف ذاته الذي وقفه إبراهيم -  
عليه السلام - وهو يطلب الاطمئنان لقلبه ، إذ يقول مخاطباً ربه سبحانه :  
« ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرني أظنر إليك ، قال : ان  
تراني ، ولكن انظر إلى الجبل ، فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تبلى  
رؤس الجبل جعله دكاً وخر موسى صعقاً ، فلما أفاق ، قال سبحانه تبت إليك  
وأنا أول المؤمنين » . ( سورة الأعراف : ١٤٣ ) .

ولإذا كان أنبياء الله - صلوات الله وسلامه عليهم - قد وجدوا الطريق

مفتوحاً أما مهم إلى رضوان الله ، فسألوا وأعطوا بما اطمانت به قلوبهم ، ورضيت عنه أنفسهم - فان غير الأنبياء - وهم أشد حاجة إلى اليقين وإلى طمأنينة القلب - ليس بين أيديهم سبيل إلى هذه السبيل المباشرة . . فكان لابد أن يلتبسوا لهم طريقاً آخر ، يبلغ بهم بعض هذه الغاية ، أو يدينهم منها .

وقد أخذ الناس من أجل هذا طرقاً كثيرة معقدة ، كلها قائم على المجاهدة والحرمان . . وهم في هذا بين مقصد وجائر ، فنجا القليل ، وهاك الكثير . والذين نجوا هم الذين لم ينقطعوا للعبادة ، ولم يجوروا على أنفسهم بالحرمان من طبييات الحياة ، فسكرتوا حلالاً ، وأكلوا حلالاً ، وأتمروا بما أمر الله به ، واجتنبوا ما نهى الله عنه ، فاذا وقع أحدهم في أمر لا يرضى الله تعالى عنه ضاقت نفسه بما وقع منه ، وندم على ما فعل ، وأقبل إلى ربه تائباً مستغفراً .

أما الذين هلكوا ، فهم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فاعتزلوا الحياة وأخذوها بالحرمان ، وألهبوا بسيطا لا ترحم ، وساقوها سوقاً عنيفاً ، على طريق المجاهدات .

وهنا يكمن الخطر ، وتطل نذر العطب ، حيث تضعف كثير من النفوس عن احتمال ما ألقى عليها من أعباء ثقال ، فتشرد ، وتحن ، وتركب طريق الغواية والضلال في غير مبالاة .

فالنفس إذا لم تحسن سياستها ، ولم تروض باللين مرة ، وبالشدّة مرة ، كانت لها ثورة مجنونة ، تأتي على كل شيء ١١ .

ومن هنا كانت الشريعة الإسلامية قائمة على اليسر ، والسماحة والرفق ، ومجانبة المشقة والخرج ، كما يقول تعالى : « هو اجتباكم ، وما جعل عليكم في الدين من حرج » (سورة الحج : ٧٨) .. ويقول سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة : ٢٨٦) .. ويقول الرسول - صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإنه لا يشاد الدين أحد إلا غلبه »<sup>(١)</sup> . يقول : « عليكم هدياً قاصداً »<sup>(٢)</sup> ويقول : « إن الميت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »<sup>(٣)</sup> .

ومن هنا أيضاً ، كانت الأمة الإسلامية أمة وسطاً ، كما يقول الحق سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (سورة البقرة : ١٤٣) .. والطريق الوسط هو القائم بين جانبي الإفراط والتفريط ، فلا مبالاة ولا تقصير .. لأن المغالاة قد تهوى بصاحبها من عل ، كما أن التقصير قد يمسك بصاحبه على مربط البهائم والأنعام .

روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان بين أصابعه ، وبيده مخرصة نخط بها خطأً ، ثم خط خطوطاً عن يمين هذا الخط ، وخط خطوطاً عن شماله .. ثم أشار إلى هذا الخط ، وقال : هذه سبيل الله مستقيمة ، وأشار إلى الخطوط التي على يمين هذا الخط ، والتي عن شماله ، وقال : هذه خطوط

(١) رواه أصحاب السنن .

(٢) رواه البخاري .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

على رأس كل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيماً ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »<sup>(١)</sup> (سورة الأنعام : ١٥٣) .

وفى صحيح مسلم ، عن بريدة ، قال : « خرجت ذات يوم أمشى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى ، فأخذ ييدى فانطلقا جميعاً ، فإذا برجل يعصى ، يطيل الركوع ، ويطيل السجود ، فقال صلى الله عليه وسلم أترى هذا يرأى ؟ فقلت الله ورسوله ، أعلم ، ثم أرسل يده ، وطبق بين يديه ثلاث مرات ، يرفع يديه ويضربهما وهو يقول في كل مرة : عليكم هدياً قاصداً ، فإن من يشاد الدين يغلبه » .

وقد كفر أهل الكتاب فى غلوهم فى دينهم ، فقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق » . (النساء : ٩٧١) - وقال سبحانه : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » (المائدة : ٧٧) .

### أين مكان التصوف من هذا الخط الوسط ؟

والوجه الذى ظهر به التصوف فى الإسلام لم يكن على الخط الوسط ، على التحقيق ، وإنما كان على واحد من تلك الخطوط التى على يمينه ، بمعنى أنه خرج عن هذا الخط الوسط إلى جانب المغالاة ، والافراط . .

---

(٤) رواه السنة مع اختلاف فى اللفظ .

ولهذا اتخذ له أصحابه هذا الاسم الحادث في الإسلام ! فلم يرض المتصوفة أن يكونوا من أهل الزهد والقصد في متاع الحياة الدنيا ، وفي أيديهم الكثير منها ، بل نفى المخلصون منهم أيديهم من كل شيء منها . ولم يرضوا أن يكونوا مسلمين في جماعة المسلمين ، بل جعلوا لأنفسهم مكاناً خاصاً بهم ، لا يأخذ أحد مكانه فيه إلا إذا كان متصوفاً .

وحق لكان الإسلام لا يتسع لتطلعاتهم إلى منازل القرب ، من الله ، إذا هم التزموا حدوده ، واستقاموا على أوامره ، واجتنبوا نواهيه .. وحق لقد سولت لهم أنفسهم أن يزدوا في دين الله ما وسوس لهم الشيطان به ، حتى يبلغوا تلك المنزلة التي نزل إليهم أنهم بالغوها بهذه البدع التي ابتدعوها في دين الله ! ولم يسألوا أنفسهم : أم خير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين وقفوا عند حدود الدين التي بينها الرسول لهم ؟ وهل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أمور الدين لم يبينها ؟ ثم ماذا يقولون في قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ( المائدة : ٣ ) وماذا يقولون في قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد » أي مردود عليه ؟

يقول ابن خلدون ، في مقدمته :

« إن طريقة هؤلاء القوم — يعني المتصوفة — لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية .. وأصلها العكوف على العيادة ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه ،



والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عامماً في الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا ، في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة <sup>(١)</sup> .

ولنا على هذا الذي يقرره ابن خلدون ، تعقيب عليه ، ومراجعة له ، وذلك من وجوه :

فأولاً : جعله التصوف امتداداً للزهد الذي كان السمة الغالبة في عهد الصحابة والتابعين — رضوان الله عليهم — مع أن زهد الصحابة كان زهداً عن امتلاك لما زهدوا فيه ، على حين أن زهد المتصوفة كان زهداً عن عجز واضطرار .. لأنه زهد العجز ، والتواكل ، والافلاس .

فالصحابة والتابعون — رضى الله عنهم — كانوا قد امقلات أيديهم من المغام التي عادت عليهم من فتوحات الشام ومصر ، والعراق ، فلم تفتنهم هذه المغام ، ولم تخرجهم عن الحياة التي عاشوها في صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فن زهد في متع الحياة مع هذا المال الوفير ، فإنما يجاهد نفساً يغيرها هذا المال ، ويأبى عليها أن ترد هذا المورد وهي تحترق ظمأً . وذلك هو الجهاد أبر الجهاد !!

أما زهد المتصوفة ، فهو عن هروب من الحياة ، وعن فقور الهبة في العمل والسكسب ، وليس بالمستبعد أبداً إذا طال الزمن بهذا الحرمان أن يضيق المتصوف ذرعاً به ، فيقوسل بكثير من الوسائل لاصطياد المال ، وإغراق نفسه في الشهوات ! وهذا ما انتهى إليه أكثرهم !

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٣٩٨ — مطبعة الشعب بالقاهرة .

وثانياً : ليس صحيحاً ما يقوله ابن خلدون من أن زهد الصحابة والتابعين كان بالانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وأن ذلك كان هاماً في الصحابة والسلف .

فالصحابة والتابعون رضوان الله عليهم ، كانوا يمثلون ميادين الحياة كلها ، عملاً ، وجهاداً ، في سبيل الله . . وبسيوفهم عز الاسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً . . وبسيوفهم دانت للاسلام دولة الفرس والروم . . ثم مصرروا الأمصار وضبطوا سياسة الشعوب التي استظلت بظل الاسلام ، حيث أقاموا ميزان العدل وأقاموا على الرعايا سياجاً حصيناً من الأمن على الدماء ، والأموال ، والأعراض . . . وما كان ليتم شيء من هذا أبداً والصحابة والتابعون منفردون عن الخلق في الخلوات للعبادة ! !

إن الاسلام يدعو إلى العمل في ميادين الحياة طلباً للرزق ، بل ويعمل العامل في كسب رزقه كالجهاد بسيفه في سبيل الله ، بل ومقدمات عليه .

يقول الله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه » (١) .

لقد قدم الاسلام في هذه الآية ، الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، على المجاهدين في سبيل الله ، حيث لا يكون جهاد إلا بالعدد والعتاد ، ولا عدد ولا عتاد إلا بالعمل والعمل .

(١) سورة المزمل : ١٧

بل إن الاسلام جعل العمل مقدمة بين يدي فريضة من أعظم فرائض الاسلام ، وهى الصلاة ، كما جعل العمل موصولاً بها بعد أدائها . . . وفي هذا يقول الله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسمعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا في الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، وإذا كروا الله كثيراً لعلمكم تفلحون » (١) .

فلو كان ترك العمل ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، ما صلح عليه شأن الأمة الاسلامية ، ويعلم به مكانها في الحياة ، وتحمى به حوزة الدين ، لكافدت دعوة الاسلام إلى ترك العمل واضحة صريحة ، ولكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رهباناً في الصوامع ، تاركين الدنيا لأهلها الذين يملكونها ، ويمسكون من فيها من المسلمين ، وغير المسلمين ، ولكن الاسلام دين الحياتين ، الدنيا والآخرة جميعاً ، حيث يمسك المسلمون الدنيا بيد ، ويمسكون الآخرة بيد . ففككون لهم الدنيا والآخرة جميعاً . . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمسكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً » (٢) . وقوله سبحانه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلننجيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » (٣) . ويقول الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه : « من آثر دنياه

(١) سورة الجمعة ٩ - ١٠ .

(٢) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة النحل ٩٧ .

أُضر بآخرته ، ومن آثر آخرته أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى»<sup>(١)</sup> ومعنى إِيثار ما يبقى — وهو الآخرة — على ما يفنى — وهو الدنيا — هو أن ترجح كفة الآخرة عند المؤمن على كفة الدنيا ، كما يقول تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »<sup>(٢)</sup> . وإذن فليس في الإسلام ، ولا من الإسلام ، لإطراح الدنيا وتخليتها تطليقاً بائناً ، وإنما الذي كان من الإسلام ، هو التحذير من فتنة الدنيا ، والاسترسال وراء شهوات النفس منها ، حتى لا تستولى على وجود الإنسان كله ، فإن حب الحياة ، والرغبة الصارخة في امتلاك أكبر قدر من متاعها وزينتها ، طبيعة غالبة في النفس الإنسانية ، تحتاج من المؤمن إلى كبح جماحها حتى يسلس له قيادها ، وإقامتها على طريق معتدل متوازن . . . وفي هذا يقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحَرْث . . . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »<sup>(٣)</sup> .



(٣) رِوَاهُ مُسْلِمٌ .

(٤) سُورَةُ الْقَصَصِ ٧٧

(٥) مَبُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ١٤ .

## الفصل الثالث

### وسطية الإسلام

قلنا إن الإسلام دين يسر وسماحة ، أقام أتباعه على طريق وسط ، دون الإفراط وفوق التقصير . . ونقول : إن الإسلام ، كما شدد النكير على المقصرين من أتباعه ، وتوعدهم بالحساب العسير ، والعقاب الأليم ، في كثير من آيات الكتاب الكريم مثل قوله تعالى : « فويل للصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »<sup>(١)</sup> وقوله سبحانه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اکتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين »<sup>(٢)</sup> . . إلى كثير من آيات القرآن الكريم ، التي تحذر من التقصير في الأمور ، والجرأة على تقحم المنهيات . . فإن الإسلام كذلك شدد النكير على المغالين في الدين ، المتحاملين على أنفسهم ، المجاوزين بها حد الاعتدال . . وذلك في مثل قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> . . فطيبات الحياة الدنيا ، هي للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها غيرهم ، ولسكن هذه الطيبات هي خالصة للمؤمنين في الحياة الآخرة ، لا يشاركهم فيها غيرهم .

(١) سورة الماعون : ٤ ٧ ٥

(٢) سورة المطففين : ١ - ٥

(٣) سورة الاعراف : ٣٤ ٣٥

وفي صحيح البخاري ، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما هذا ؟ » فقالوا : أبو إسرائيل . . نذر أن يقوم في الشمس ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم !! فقال صلى الله عليه وسلم « مروه ، فليجلس ، وليتكلم ، وليتم صيامه » .

وثبت في الصحيحين ، أن رجلاً سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنهم تناولوها - أي رأوها قليلة - فقالوا : وأينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال رابع : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، خرج مغضباً ، وخطب في الناس ، فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا ، وكذا ؟ ولكني أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء . . فن رغب عن سنتي ، فليس مني » .

ذلك هو الإسلام : دين ودنيا . . دين حياة وعمل . . حياة تستظل بظل الدين ، فلا تحترق بسعار المادة ، وعمل يزاوج بين الروح والجسد ، فلا يفنى الروح في كثافة الجسد وضراوة الشهوة ، ولا يفسد الجسد بالجوع المقهمل والحرمان الدائم ، والعزلة القاتلة .

وكيف يكون الإسلام على غير هذا ، وهو الذي يعد أتباعه لقيادة الإنسانية ، وخلافة الله تعالى في أرضه ؟ فأى خلافة تكون بغير سمي دائب

في الحياة ، وعمل متعصل لعمرائها ، واستبغراج خهئها ، وكشف أسرارها ،  
وتسخير القوى الكامنة فيها ؟

ولإذن ، فإن كل دهوة تظهر في المجتمع الإسلامي ، يراد منها عزل المسلمين  
عن الحياة ، ونفض أيديهم من مناشط العمل فيها ، وانقطاعهم للعبادة في  
الصوامع والخلوات - هي دعوة شيطانية ، يراد بها الكيد للإسلام ، وتحويل  
أهله إلى مجرد أشباح لا يقام لهم وزن في الدنيا ولا في الآخرة .

ولإذا كان الزهد طريقاً سلسكه كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه  
وسلم والتابعين ، فإن هذا الزهد قد اتسم بسمتين ظاهرتين .

السمة الأولى : أنه كان عملاً فردياً ، نابهاً عن شعور ذاتي ، بمعنى أن  
الزاهد كان زهده نابهاً من ذات نفسه ، كل على قدر طاقته ، دون أن يكون  
زهده مرتبطاً بزهد غيره ، ودون أن يكون زهد الزاهد ملتزماً بقواعد  
ثابتة ، وطقوس محددة ، وإنما يقوم الزهد أساساً على رياضة النفس ، على  
العزوف عن كثير من شهواتها ، وعدم الاسترسال مع رغباتها وأهوائها ،  
فلا تسعكثر إن وجدت ، ولا تجزع إن لم تجد .

إنه زهد الاستعلاء بالنفس عن ممتع الأنعام إلى هذا المستوى الإنساني  
للكريم ، الذي يكون فيه الإنسان ممسكناً من كل أسهاب المتع واللذات ،  
ثم يرد نفسه عن هذا المورد ، احتساباً لله ، كما يفعل الصائم في مواجهة  
الجوع والظما ، والطعام الشهى ، والماء الروى ، بين يديه ، ولا يقر بهما  
أبدأ ، حتى يهوى وقت الإفطار .

والسمة الثانية من زهد الصحابة والتابعين : أن هذا الزهد لم يكن أبداً

زهد العاجزين المفلسين ، بل كان زهد الواجدين للمساكين لما همته أيديهم ،  
ولما كان لهذا العمل من ثمرات .

أما زهد عامة المتصوفة ، فهو زهد المفلس العاجز ، الواقع تحت حكم  
الاضطرار ، الذى ليس لصاحبه فيه حيلة ولا حول ، فإن وجد صاحب هذا  
الزهد شيئاً يمكن أن يناله بأية حيلة ، هجم عليه كما هجم الذئب على قاصية  
الغنم ، فى سعار مجنون .

وأمر كهذا لا يحقق معنى الزهد ، ولا يمكن الإمساك به عند تبدل  
الحال من فقر إلى غنى ، ومن ضيق إلى سعة ، حيث لا يأمن الإنسان فى تلك  
الحال ، أن يحطم كل حواجز الخلق والدين ، ليشبع جوعاً طال صبره عليه ،  
وليترضى من نفسه حرماناً امتد حبسها عليه . . تماماً كما يفعل السجين  
الذى عاش فى سجنه زماناً ، وهو يطل على الحياة خارج السجن من كوة  
أحلامه وخيالاته . . فاذا خرج من سجنه إلى واقع الحياة مع الناس ، كان  
كن أصابه مس من الجنون ، يقلب بصره فى كل شيء ، ويمد يده إلى أى  
شيء ، من حرام وحلال ، وخبيث وطيب !!

فالزهد إذا لم يكن عن قدرة على المزهود فيه ولم يكن عن اختيار من  
الزاهد ، كان فتنة لصاحبه ، وإغراء له بالانحراف إلى جانب النهم الذى  
لا يجد معه الشبع أبداً .

روى أن « ابن المبارك » الورع الزاهد ، سمع مرة فى مجلس وعظه ، من  
يقول له : شيخنا الزاهد ، يقول كذا وكذا .. فيغير وجهه . وقال لهذا القائل  
منسكراً عليه قوله : « شيخنا الزاهد » : أنا زاهد ؟ وفيم زهدت ولا شيء



عندى أزهد فيه ؟ الزاهد ، هو خليفتم هذا ، عمر بن عبد العزيز . . الدنيا كلها بين يديه ، وما أنتم هؤلاء ترونه وقد اكتفى بالكفاف منها !! » .

ويقول الغزالي ، في كتابه « إحياء علوم الدين » :

« والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء ، إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه ، أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه ، بوجه من الوجوه . فن رغب عما ليس مطلوباً لنفسه لا يسمى زاهداً . . فتارك التراب لا يسمى زاهداً .

« ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يقصور إلا بالعدول إلى شيء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . . فالزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا ، عدولا عنها إلى الآخرة ، أو عن غير الله عدولا إلى الله ، وهو الدوحة العليا » .

نعم ، ذلك هو الزهد الذي لا يتحقق إلا عن مجاهدة للنفس ، وصراع بين الشهوات الحاضرة العاجلة ، ابتغاء لمطلب أسمى وأعلى وأكرم ، فيما بعد هذه الحياة الدنيا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « إن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ( آل عمران : ٩٢ ) . . وقوله سبحانه : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » ( الحشر : ٩ ) . . وقوله جل شأنه : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطيراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » ( الإنسان : ٥ - ١٢ ) .

ذلك هو الزهد ، الذى عرفه الإسلام فى الصدر الأول ، وتحلى به المسلمون فى عهد الصحابة والتابعين .

فإذا جاء « التصوف » بعد هذا ليأخذ مكان هذا الزهد ، وليخيل للناس منه أنه درجة أعلى من الزهد ، وأنه الطريق الذى تنال به الولاية ، والدرجات العالية عند الله - فذلك دعوى تحتاج إلى شاهد من واقع الحال يشهد لها ، ويدل عليها . . وهيهات ، هيهات !

### لماذا التصوف والمتصوفة ؟

لابن خلدون عبارة ، نقلناها عنه فيما سبق وعلقنا عليها ، يقول فيها :

« طريقة هؤلاء القوم - أى المتصوفة - لم تزل عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم - طريقة الحق والهداية . . وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا ، فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » .

ويعنيها من عبارة ابن خلدون هنا ، الفقرة الأخيرة التى يقرر فيها ، أن ظهور التصوف والمتصوفة ، كان نتيجة لجنوح الناس إلى مخالطة الدنيا فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، فكان ذلك من شأنه أن يتخذ المقبولون على العبادة ، الزاهدون فى الدنيا ، اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا ، فسموا أنفسهم الصوفية أو المتصوفة !!

وهذا يعنى أن حركة التصوف إنما كانت وليدة لرد فعل للحياة الخلية الماجنة التي ظهرت في العصر العباسي .

وذلك أنه لا جدال في أن الزمن قد فعل فعله في نفوس المسلمين . فلقد فتح المسلمون بلاداً زاخرة بالخير ، مليئة بمفاتيح الحياة ، هي بلاد فارس والروم ، التي تضم مصر . والشام ، والعراق ، ثم تمتد إلى شمال أفريقيا إلى المحيط ، ثم إلى الأندلس وسهول فرنسا .. وقد دخل أهل تلك البلاد في الإسلام ، ومعهم موروثات متمكنة في نفوسهم ، من معتقدات وعادات وتقاليد ، إن استطاع الإسلام أن يعنى على كثير منها ، فإن كثيراً منها أيضاً قد ظل سابحاً في خيال كثير منهم ، أو حياً متحركاً في نفوس كثير منهم أيضاً .

ويحفظ تاريخ العصر العباسي بكثير من ألوان التهلك السافر ، والمجون الخليع ، حيث قامت للخلعاء والماجنين دولة لا ينفض لها سامر إلا قام سامر ، ولا يهلك من زعمائها زعيم إلا خلفه زعماء .. وكانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً ومراحاً لهؤلاء السفهاء والسفيمات من الناس ، ثم سرت العدوى إلى أمهات الأمصار في الأقطار التي تضمها دولة الإسلام .. وكان من هذا أن استخف كثير من الناس بالدين ، وسخروا من المتدينين ، وجأهروا بالفسق والفجور ، وظهر في الناس أصحاب المقالات الغارقة في الزيغ والإلحاد ، وعرف في الناس من يسمون بالزنادقة والملاحدة ، إلى جانب المجان والخلعاء .. وكان على رأس هذه المآثم جماعات ، يزينوها للناس ، ويفرونهم بها ، ويلبسونها لباس الفلسفة والمنطق

فوقع كثير من الغلمان ، والشبان ، والنساء ، في شباك هذه الدعوات الفاجرة حيث غصت بهم حانات ، الخمر والرقص ، والغناء .

وكان على رأس هذه الفرق جماعات من الشعراء ، والمغنيين والمغنيات .. وكان أبو نواس على رأس هذه المدرسة الشيطانية ، ومن شيعته وأتباعه ، أسقاذه « والبة بن الحباب » ، « ومطوع بن إلياس » « ويحيى بن زياد » ، « وبشار بن برد » ، « وحمام عجرد » ، وعريب المغنية ، وعنان الشاعرة ، وكثير كثير غيرهم .

وكرر فعل هذه الحياة الفارقة في اللهو والخلاعة والمجون ، فقد استغذرت بعض النفوس هذا الطعام العفن ، والتمست طريق الفرار من هذا الجو الموبوء ، فلبست ثوب الزهد من رأسها إلى إخص قدميها ، وودت لو أنها سدت أنوفها حتى لا تتنفس في هواء هذه البيئة الموبوءة .

ففي مواجهة شعراء الخلاعة والمجون ، قام أبو العتاهية ينشئ القصائد في الزهد في الدنيا ، والإزراء على طلابها ، المقلعين بأذيالها .. كما قام كثير من غير الشعراء من الفقهاء بالتزام العزلة ، بعيداً عن الناس ، فذلك - في تقديرهم - أدنى إلى السلامة ، في حال كتملك الحال التي تدهمت الفتن فيها علماً ، الناس من كل أفق .

في خلال هذا الصراع ، الظاهر والخفي ، بين أصحاب الأهواء والهدع من جهة ، وبين أصحاب الجدد وأهل المروءة والدين من جهة أخرى ، أخذ كل فريق ينمزل بأصحابه ومن هم على شاكلته ، ويجمع إليهم ، ويرسم الطريق لحياته الجديدة معهم .

فأهل الأهواء والمجون ، يجتمعون يوماً هنا ، ويوماً هناك ، غارقين في ألوان المهانة ، باحثين عن الجديد في كل ما يثير الشهوات وبغذيتها . . وأصحاب الجد ، والخلق الكريم ، يجتمعون في ساحات المساجد ، يتناصحون ويتذاكرون ، ويتمسكون مواطن النجاة من هذا البلاء المحيط بهم . . فكثرت العبادات ، وتنوعت الأذكار والأوراد ، واشتدت حاجة الناس إلى العلماء والفقهاء ، ينشدون عندهم الدواء ، ويتلقون عندهم الوصفات الواقية لهم من هذا البلاء !!

وفي تاريخ العصر العباسي ، الأدبي ، والسياسي ، والاجتماعي ، مؤلفات كثيرة ، رصدت الحياة في هذا العصر ، ورسمت صوراً دقيقة لهذه المقتاضات التي كان يعيش فيها الناس في هذا العصر . . فهناك أهل الخلاعة والعريضة والمجون ، في الحانات والمراقص ، وفي الطرف المقابل أهل الزهد والتقوى ، تحويهم المساجد والزوايا ، أو تضمهم الخلوات بعيداً عن الناس .

وهنا تسنح الفرصة للغلو في الدين ، من أهل الصدق والاخلاص ، ومن أصحاب الأهواء ، والبدع ، على السواء . .

فأهل الصدق والاخلاص ، يرون أن الأخذ بالاعتدال في تلك الحال التي فسدت فيها الزمان ، وتمسك فيها سلطان البدع والضلالات ، لا جدوى منه ، في مقاومة هذا الانحراف العنيف ، فلا بد إذن من دواء مر شديد المرارة ، ومن تجربة قاسية ، يمر بها من أراد السلامة لنفسه ، والتمسك بدينه . .

وهذا لاشك أسلوب غير حكيم ، فإن الشر إذا استشرى ، كانت الحكمة هي السلاح الفعال في مقاومته . .

ولهذا قانه عن طريق المغالاة في الدين ، استطاع أصحاب الأهواء والبدع

أن يكيدوا لدين الله ، بإدخال كثير من المعتقدات الفاسدة على المسلمين ، في صور من الزهد الغبي ، وألوان من الأذكار في مصاحبة المزمار والغناء ، بحجة أن ذلك يصرف الناس عن مجالس الرقص ، والغناء في الحانات !! وصدق الذى يقول :

إذا استشفيت من داء بـداء

فأقتل ما أهلك ما شفا كا

ويكفى أن يخرج من بين يدي هذا الموقف ما عرف بالتصوف ، وما ضم عليه من كثير من البدع التي لم يعرفها الإسلام والمسلمون ، في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في عصر الصحابة والتابعين .

في هذا الجو العاصف المضطرب ، تسلت كثير من المذاهب الإلحادية والماتوية ، والهابلية ، إلى المسلمين ، ودخلت عليهم من كل أفق : من أفق السياسة وطلب السلطان ، ومن أفق العصبية للجنس والوطن ، ومن أفق التسلط على العامة والاستهواء للسذج ، بما يقدمه الشيوخ لهم من البدع والضلالات ، يخيلون إليهم من ذلك أنهم سائرون في طريق الولاية والكشف . ومن . . ومن . . مما يفتن العامة بالتدليس والشعوذة ، الأمر الذى هيماً للتصوف فرصة لاحتواء جماعات كثيرة من المسلمين تحت جناحه . . إذ كان — في ظاهره — دعوة إلى الفرار من هذا العالم المائج المضطرب ، والافلات من أيدي هذه الفتن التي تملأ السهل والوعر ، والعكوف على العبادة ، في المساجد ، والزوايا ، والخلوات . .

ولهم لكي يسوغوا للناس طعم هذه الحياة البعيدة عن واقع الحياة ،  
والمنقطعة عن ملاسة الاتصال بالناس ، ومشاركة العاملين في هذه الحياة ،  
فقد قام دعاة التصوف وشيوخه ، ومن ورائهم السكائدون للإسلام ،  
والمتربصون الفرصة فيه ، يمدونهم بالبدع والمفتريات ، ويفذونهم بقلك الهلوسات  
والأوهام ، — قام هؤلاء وأولئك جميعاً يفتحون للناس أبواباً واهمة ، من  
عالم الغيب ، مما وراء الحس ، حيث يطلعون عليهم من هذا العالم المحجوب  
المشوق ، برؤى عجيبة من الأسرار التي في أيدي قوى روحية خارقة ، حتى  
إنهم ليخيلون إلى الناس من تلك القوى أنها تعيش معهم في واقعهم ، وإن  
كانوا لا يرونها ، وأنه ما على من يريد معايشة تلك القوى ، إلا أن يدخل  
في عالم التصوف ، ويروض نفسه على ما يأمره به الشيوخ ، وإذا هو مطلع  
على الغيب ، مع الملائكة الخافين من حول العرش !!

وفي داخل المساجد ، والزوايا ، والخلوات ، انتصبت المقصوفة قباب ،  
تضم تحتها رفات أموات ، يقال عنها إنها رفات فلان من الصالحين ، أو من  
يدعى لهم الصلاح ، ممن كانت لهم حياة معروفة ، أو غير معروفة في تاريخ  
الإسلام . . ثم ينسب إلى هؤلاء الموتى الراقدين — أو الذين يقال إنهم  
راقدون — تحت تلك القباب — ينسب لهم من الكرامات والخوارق ،  
التي يتصرفون بها في الحياة ويملكون منها ما لا يملكه إلا الله تعالى ،  
من النفع والضرر ، ومن قضاء الحاجات وشفاء المرضى ، بل وإحياء الموتى ،  
ومنح العلم السكفي للذي لمن يتمسح بأضرحتهم ، ويستشفع بهم ، وينال  
مرضاتهم بتقديم القرابين والنذور لسد نفقهم !

وهي هذا الزاد الوهمي الخرافي ، عاش ، ويعيش كثير من ملايين

المسلمين الذى انتظموا فى سلك التصوف ، وما هم فى الواقع إلا غرقى أو هام  
وطلاب ماء من سراب « يحسبه الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ،  
ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب .

ولأن التصوف — كما أشرنا من قبل — متصل بالدين بطرف من  
أطرافه ، وهو الزهد — وذلك فى أول نشأة التصوف — فقد كان للتصوف  
أثره وتأثيره فى جذب الناس إليه ، وتعلقهم به ، مما يمثل خطراً داهماً على  
العقيدة الإسلامية ، حيث اتسع لشيوخ المتصوفة ، مجال التسلط على أتباعهم  
ومريديهم ، واستغلالهم باسم الدين استغلالاً شيطانياً خبيثاً ، أحاطهم فى يد  
شيوخهم أموالاً فى يد الغاسل ، الذى يغسل الميت ، ويلفه فى السكفن ، ثم  
يلقى به فى قبره ؟

هكذا الأنباع والمريدون من المتصوفة فى يد شيوخهم ، دمي يعيث بها  
الشيوخ كما يعيث الأطفال باللعب — بل إن الغلاميد ، أو المريدون ، لا يقبل  
الله منهم عدلاً ولا صرماً ، إذا خالف أحدهم شيخه ، ولو أمره بقتل نفسه  
أو ولده !

فأى جنابة يجنيها هؤلاء الشيوخ على تلاميذهم ومريديهم ، إذا هم سلموهم  
أقوى مقومات الحياة للإنسان ، وهما العقل والإرادة .. لإنهم قتلوا سفاحون ،  
يقتلون عمداً نفوساً حرم الله قتلها ، وأهدل قلوبها عذاب جهنم خالد  
فيها أبداً .

يقول ابن الجوزى ، شارحاً هذا الانحراف الشديد الذى كان  
من المتصوفة :



« وهذا الاسم - أى التصوف - ظهر للقوم - أى للصوفية - قبل سنة مائتين للهجرة .. ولما أظهره أوائلهم ، تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطمع ، بوجه من الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة ، من الزهد ، والحلم ، والصبر ، والإخلاص والصدق .. إلى غير ذلك من الأخلاق الحسنة التى تسكب المدايح فى الدنيا والثواب فى الآخرة .

ثم يقول ابن الجوزى :

« وعلى هذا كان أوائل القوم .. فلبس عليهم إبليس فى أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم .. فكلما مضى قرن زاد طمعه فى القرن الثانى ، فزاد فى تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن » !!

ثم يكشف ابن الجوزى عن مداخل إبليس التى دخل منها فى تلبيسه على التصوفة ، فيقول :

« وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم ، وأراه أن المقصود هو العمل<sup>(١)</sup> . فلما أطفأ - إبليس مصباح العلم عندهم تحبطوا فى الظلمات . ففهم من أراه - إبليس - أن المقصود من ذلك - أى من التصوف - ترك الدنيا

---

(١) وكيف يكون عمل بغير علم ، إذ العلم هو البصيرة الكاشفة عن العمل والميزان الذى يوزن به هذا العمل ، والا كان العمل أشبه بما تقوم به البهائم والله تعالى يقول لنبيه الكريم : « وقل رب زدنى علما » ويقول سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » ؟ ولكن هكذا يتسلط إبليس بضلالاته على من يعطى أذنه له ، ويسلم عقله وقلبه إليه .

في الجملة ، وشبهوا المال بالمقارب !! ونسوا أنه - أى المال - خلق للمصالح .  
وبالغوا في الحمل على النفوس ، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع<sup>(١)</sup> . وهؤلاء  
ربما كانت مقاصدهم حسنة ، غير أنهم على غير العبادة - أى على غير الطريق  
المستقيم - ومنهم من كان لقلة علمه ، يعمل بما يقع له من الأحاديث الموضوعة  
وهو لا يدري<sup>(٢)</sup> . ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى  
عشق الحق ، والهيان فيه ، وكأنهم - في حالهم تلك - تخيلوا شخصاً مستحسن  
الصورة ، فهاجوا به .. وهؤلاء هم بين الكفر والبدعة !!

ثم يمضى ابن الجوزى ، قائلاً :

« ثم تشعبت بأقوام منهم - أى من المتصوفة - الطرق ، ففسدت عقائدهم ،  
فمن هؤلاء من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخبطهم  
بنفون من البدع ، حتى جعلوا لأنفسهم سنناً !!

« وجاء أبو عبد الرحمن السلمي - من شيوخهم - فمصنف لهم كتاب  
السنن - أى سنن المتصوفة - وجمع لهم ما سماه حقائق التفسير ، فذكر فيه  
العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم ، من غير إسناد ذلك إلى أصل من  
أصول العلم ، وإنما هو من مدهيات علم الباطن ، أو الباطل ، الذى  
يقولون به » .

---

(١) وهذا لا شك مما دخل على المتصوفة من التصوف الهندى ، وبخاصة  
مذهب « الديوجا » .

(٢) وأن مثل هذا الجو الذى تنعقد فى سمائه سحب الجهل ، والحماس  
الدينى الأهوج الاعمى ، ليفتح الباب على مصراعيه للخبثاء المدجلين ، الذين  
يغنون هذا الجهل ، وذلك الحماس ، بالأحاديث التى يضعونها فتجد لها سوقاً  
رائجة لهؤلاء السذج المتهوسين !

« وصنف لهم أبو نصر السراج » كتابا ساه « لمع الصوفية » ذكر فيه من الاعتقاد القبيح ، والكلام الرذول ما أملاه عليه الشيطان من وساوس — محشوا ذلك كله ، بالأحاديث الموضوعة ١١ . .

« وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، كتاب « الرسالة » فذكر فيه العجائب والغرائب من الكلام ، في الفناء ، والبقاء ، والقبض ، والبسط ، والحال ، والوجد ، والجمع والتفرقة ، والصحو والسكر ، والذوق ، والشرب ، والخو والإتيات ، والتجلى ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والطواع ، واللوازم ، والتكوين ، والشرعية ، والحقيقة ، وغير ذلك من التخليط ، الذى ليس بشيء ، وتفسيره أعجب منه (١) ١١

وجاء « أبو نعيم الأصبهاني » فصنف لهم كتاب « الحلية » وذكر في حيلوه التصوف أشياء منكرة قبيحة ، ولم يستحي أن يذكر في الصوفية ، أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وسادات الصحابة — رضى الله عنهم — فذكر عنهم فيه المعجب . . وذكر منهم — أى من الصوفية — شريها القاضى ، والحسن البصرى ، وسفيان الثوري ، وأحمد بن حنبل .

ونقول لمن هؤلاء السادة الكرام رءاء من أن يوسموا بهذه السمة ، وأن تخلع عليهم هذه البدعة ، وإنما يتحكك بهم الصوفية ، ليرجوا البدعهم ،

---

(١) هذه المسميات من منازل أو دركات ، يفتلج فيها الصوفية ، ويحل كل فريق منهم فى واد من أوديتها المهلكة ، وليس فى الاسلام ولا من الاسلام شيء من هذه البدع التى ابتدعوها ، ورتبوها هذا الترتيب الشيطاني .  
( ٨ - التصوف )

وليخادعوا الناس بأنهم على طريق الصحابة والتابعين . . ومأمم لإلا على سبيل  
غير سبيل المؤمنين ، والله تعالى يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد  
ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم  
وساءت مصيرا » ( النساء : ١١٥ ) ..

ثم يقول ابن الجوزى :

« وجاء أبو حامد الغزالي ، فصنف لهم كتاب « الإحياء » على طريقة  
القوم أى للتصوفة — وملاؤه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها ،  
وتسكلم فى علم المكشفة ، وخروج على قانون الفقه ، وقال — مثلا : إن المراد  
بالسكوكب والشمس ، والقمر ، اللواتى رآهن إبراهيم ، صلوات الله عليه ،  
أنوار ، هى حجب الله عز وجل ، ولم يرد هذه المخلوقات المعروفة . .  
وهذا من جنس كلام الباطنية ، وقال — الغزالي فى كتابه « المنهج  
بالأحوال » : إن الصوفية فى يقظتهم ، يشاهدون الملائكة ، وأرواح  
الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ؛ ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى بهم الحال  
من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق ! !

ويتعجب ابن الجوزى من هذه المقولات والمصنفات فيقول :

« وكان السبب فى تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء ، قلة علمهم بالسنن  
والإسلام ، والآثار ، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم ، وإلما  
استحسنوها — أى الطريقة — لأنه قد ثبت فى النفوس مدح الزهد . . ثم إن ميل  
الناس إلى هؤلاء القوم شديد ، لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة ،

والتمهيد ، وفى ضمنها الراحة والسمع . . والطباع تميل إلى ذلك . . وقد كان  
أوائل الصوفية ؛ ينفرون من السلاطين والأمراء ، فصاروا أصدقاء لهم !!  
ثم يقول ابن الجوزى :

« وجهور هذه التصانيف التى وصفت لهم ، لا تستند إلى أصل ،  
وإنما هى واقعات ، تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها ؛ وقد سموها بالعلم  
الباطن » (١) .

ومن هذا الادعاء الباطل الذى يدهيه الصوفية من علم الباطن ، فتحت  
أبواب الفتن ، التى تطل منها رؤوس الشياطين ، فتلقى على أفواه الضالين  
والمبطلين كل المنكرات ، مدموغة بأنها من علم الباطن ، الذى هو بحر  
لا ساحل له ؛ وجاز لكل ضال ومبتدع أن يقول ما شاء من البدع  
والضلالات ، بحجة أنها من هذا البحر المحيط ؛ ومن كذب أو شك فليخض  
هذا البحر !! وهذا يذكرنا يقول من سئل عن عدد نجوم السماء ، فقال هى  
كذا وكذا من الآلاف ، والمئات والعشرات ، والآحاد ، فلما قيل له :  
وكيف عرفت هذا ؟ قال : من شك فليعد النجوم !

ولا ننسى أن نضيف هنا إلى تلك المؤلفات التى ذكرها ابن الجوزى  
لشيوخ المتصوفة ، وما حملت من بدع وضلالات — لانسى أن نضيف  
كتاب : « الطبقات الكبرى » للشعرانى ، الذى بدأه بعاقبة الصعابة والتابمين ،  
فالتزم فى هذا حد الاعتدال ؛ حتى إذا جاوز طهمة الصعابة والتابمين إلى من

---

(١) تلبيس إبليس ، لابن الجوزى ، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

بعدم إلى عصره ، جاء بالبدع والخرافات ، والأباطيل ، التي لا تدخل  
عقل أى عاقل ، فنسبها إلى البدوى ، وإبراهيم الدسوقي ، ومحيى الدين  
ابن عربى ، وسعدون الجنون ، وغيرهم وغيرهم .

ومن يطلع على هذا الكتاب وما ذكره المؤلف عن هؤلاء ومن إليهم ،  
يشهد من العجائب الخيالية الخرافية ، ما يقصر عنه حكايات « ألف ليلة  
وليلة » — فإن كان من أهل العلم والبصيرة — رى به بعيداً عنه ، وإن كان  
من العامة وأشباه العامة ، تعبد به ، وغرق فى بحر الهلاك .

# الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن





## الفصل الأول

### التصوف : بين الحق والباطل

قطعت الإنسانية دهرًا طويلًا من حياتها في طفولة أشبه بتلك الحياة التي يعيشها الأطفال ، قبل أن يجاوزوها إلى الصبا والشباب والاكتمال . . . حياة كلها رؤى وأحلام ، تتحكم فيها الانفعالات والمواقف التي لا يرى للعقل أثر فيها ...

وكما تقدم الزمن بالإنسانية ، وتواردت عليها مشكلات الحياة ؛ ومواجهة الواقع ، والتماس التغلب على ما يصادفها من عقاب ، استفادت الإنسانية تجربة ، وأحس الإنسان أنه تملك قوة تبصره بالحياة ، وتكشف له الكثير من أغوارها ونخباتها ، فاعتز بهذه القوة ، وعمل على التعويل عليها في كل ما يعرض له من مشكلات ، والثقة بما توحى به إليه من أفكار ، ومدرجات . . . وهذه القوة ، هي القوة العاقلة الماركة في الإنسان . .

وشيئًا فشيئًا زاد اعتزاز الإنسان بالعقل والمبالغة في الثقة به ، حتى انتهى الأمر إلى أن حاول بعض الناس تصفية حسابهم مع جميع ماسكاتهم وبخاصة القلب ، والاكتفاء بالعقل وحده ، وتسليمه القيادة والزعامة منفرداً لا يشاركه في ذلك سواه .

وعن هذا الاتجاه ظهر الفلاسفة والحكماء الذين آمنوا بالعقل وحده ، واتبعوا سبيله في كل ما يشير به .

وقد أجهد كثير من الفلاسفة عقولهم ، وأجروها في مجالات لحدود لها ، وكان لهذا أثره من ناحيتين :

### الأولى :

أن الفلاسفة أنفسهم لم يحتفل كثير منهم بالنتائج التي وصل إليها عن طريق العقل ، إذ كان أكثر هذه النتائج واقفاً بأصحابه عند مراحل الشك ، أو الإنكار . حيث انتهى بهم العقل في جولاته إلى آفاق تغمدر فيها الرؤية له ؛ فلا يرى إلا ضباباً ، متراكماً ، ودخاناً كثيفاً .

وليس هذا مما ينقص من قدر العقل أو يهون من شأنه . فإن له مدى يجب ألا يتجاوزه ، شأنه في هذا شأن الطواش ، من سمع وبصر وغيرهما ، لها مجال تعمل فيه ، فإذا هي جاوزته تغطلت بمعطياتها ، ولا يالحق بها ذلك نصاً أو عيباً .

وكذلك الشأن في العقل . فاهو إلا حاسة من حواس الإنسان ، وظيفتها الإدراك لما هو واقع في مجال محدود ، إذا تجاوزه ، اختلطت عليه المدركات ، وغابت عنه ، فإذا غامر به صاحبه ، ورعى به إلى ما وراء حدوده ، انطلقاً مصباحه ، وخبا نوره ، وألقى بصاحبه في متاهات الخيرة والظنون .. وليس هذا عيباً في العقل ، وإنما العيب من صاحبه الذي لم يحسن سياسته معه !!

وكان موقف الفلاسفة من هذه النتيجة : إما عناد وإصرار على السير

في هذا الطريق الذي غامروا به لم يفهم فيه ، فكان منهم الشك والارتياب في كل ما لا يراه العقل ، ثم إنكاره ، فأنكروا المغيبات كلها ، وجعلوا ما وراء الطبيعة . . وإما تسليم بقصور العقل وعجزه عن إدراك المغيبات ، والإحاطة بها ، وإخضاعها لمنطقه وأحكامه . . وقد انتهى إلى هذا كثير من الفلاسفة ، فأشركوا القلب مع العقل في خوض معركة المعرفة ، وجعلوا للعقل كشف الطبيعة وتعليل ظواهرها ، وتفسير غوامضها ، ووكّلوا إلى القلب استشفاف ما وراء الطبيعة ، في لمسات حائلة على أجنحة من أشواق الروح ، ووهج الضمير !!

وثانياً : إن النتائج التي انتهى إليها الفلاسفة ، لم ترض كثيراً من طلاب الحقيقة ، ولم ترو ظمناً المنشوقين إليها ، فأنكروا العقل ، أو بعبارة أخرى : أنكروا هذا السلطان المطلق للعقل ، واستخفوا بالحقائق التي انتهى إليها ، وعدوها شيئاً تافهاً بالإضافة إلى الحقيقة الكبرى ، والتي وقف العقل إزاءها موقف المتحير ، أو الشاك ، أو المنكر . . فاتجهوا بوجودهم كله إلى القلب ، وطرحوا العقل وراءهم ظهرياً ، وبالفعل في هذا أشد المبالغة ، فعاشوا في الناس بوجدانات لا يحكمها عقل ، ولا يضبطها منطق ، وكان من هذا أن ظهر في تصرفاتهم انحرافات كثيرة ، حملت الناس على القول السيئ فيهم ، ورميهم بالسفه والعتة ، والجذب ، والجنون ، إلى غير ذلك من الصفات التي نراها قد لصقت بعالم المتصوفة ، ونالت الكثير من رجالهم . .

وقد أدى هذا إلى قيام جبهتين متعارضتين : جبهة الفلاسفة ، وجبهة المتصوفة . . كل جبهة ترى الأخرى بأسوأ ما عندها ، ولا ترى جانباً من جوانب الخير فيها . . فالفلاسفة في نظر المتصوفة ، 'مخدوعون مغرورون ،

يحبسون أنفسهم في ضوء نهار مشرق ، وهم غارقون في ظلام ليل دامس ..  
والمتمصوفة في حساب الفلاسفة ، جماعة من السذج والمهايل والحقى ، تستبد بهم  
العواطف العمياء !!

والحق أن كلا الفريقين متطرف في موقفه ، أعمى بأى عينيه شاء ،  
لا يرى من الحقيقة إلا أحد جانبيها ، وقد خفى عليه الجانب الآخر منها ..  
ففى الإنسان عقل وقلب ، لا يتحقق وجود الإنسان سوى إلا بهما  
معاً ، وأن الاكتفاء بأحدهما وعزل الآخر ، هو أشبه بتعطيل حاسة من  
حواس الإنسان ، كالسمع أو البصر مثلاً .

يقول العالم الفيلسوف : « محمد إقبال » فى كتابه : تجديد التفكير  
الدينى فى الإسلام ، وهو يعرض ما للعقل والقلب معاً من مكان فى إقامة  
الدين القويم فى الإنسان .. يقول إقبال ، سائلاً هذا السؤال :  
« هل من الممكن أن نستخدم المنهج العقلى البحث للفلسفة ، فى مجال  
الدين » ؟ .

ويجيب على هذا بقوله :

« إن روح الفلسفة ، هى روح البحث الحر .. يضع كل مسألة موضع  
الشك .. وظيفة الفلسفة أن تتقصى فروض الفكر الإنسانى التى لم يحصها  
النقد ، إلى أغوارها ، وقد تنتهى من بحثها هذا إلى الإنكار ، أو الإقرار ،  
فى صراحة بعجز التفكير العقلى عن اكتناه الحقيقة القصوى » ١ .

- ١٢٣ -

ثم يتحدث إقبال عن طبيعة الدين ، فيقول :  
« أما جوهر الدين ، فهو الإيمان . . والإيمان كالأطائر ، يعرف طريقه  
الخالى من المعالم ، غير مسترشد بالعقل » .

ثم يعقب على هذا بقوله :  
« على أننا لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أكثر من مجرد شعور ،  
فهو في حقيقته يشبه رضا النفس ، عن علم ومعرفة . .

« وفي الحق أن الدين — نظراً لوظيفته — أشد حاجة — حتى من  
المبادئ المقررة المسماة — إلى أساس عقلى ، لمبادئه الأساسية . . وليس  
هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الفكر والبداية متضادان بالضرورة ،  
فهما ينبعان من أصل واحد ، وكل منهما يكمل الآخر . . فأحدهما — وهو  
العقل — يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً ، والآخر — وهو القلب — يدركها  
في جملتها »<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

### التصوفة عور بأى العينين ؟

وعيب التصوفة في أنهم أقاموا وجودهم على القلب وحده ، غير معترفين  
بالعقل ومدركاته ، ولا بالمنطق وحدوده . . والقلب إذا لم يكن وراءه عقل

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، لمحمد إقبال ص ٦٧ ، ترجمة

— ١٢٤ —

سليم متمكن من العلم والمعرفة ، اللذين يغتذى منهما القلب ، أصيب هذا القلب بالجفاف والجذب ، فلا يخرج منه إلا ما يشبه أنين المرضى ، وزفرات المحمومين ، وهراء المجانين !!

والآثار التي بين أيدينا من حياة المتصوفة ، ومقولاتهم ، تكشف عن عالم غريب ، في لغته ، التي يترجم بها عن مواجهه وأشواقه ، وإلهاماته ، حيث إنها أشبه بزقزقة الطير ، أو همهمة الأطفال ، لا يضبطها حكم ، ولا يحددها تأويل ، بل يمكن أن يكون من محاملها الشيء وضده .

وسنعرض لهذا في فصل تال إن شاء الله .



## الفصل الثاني

### العناصر التي تشكل منها التصوف

سؤال نريد أن نسأله ونجيب عليه أولاً ، قبل البحث عن العناصر التي تشكل منها التصوف الذي انتسب إلى الإسلام .. وهو : هل يقبل الإسلام نسبة التصوف إليه ؟ وإذا قبله ، ففي أي مكان يضعه منه ؟ وإذا لم يقبله ، فإذا يكون موقف المسلمين منه ؟

والجواب على هذا يقتضينا أن ننظر في وجه التصوف في مواجهة الإسلام وما حملت تعاليمه من أحكام في العقيدة والشريعة ، ونرى ما بين التصوف وتعاليم الإسلام وأحكامه من وجوه الاتفاق أو الاختلاف ، وهذا يمكن الحكم على التصوف وعن مدى نسبه إلى الإسلام ، صحة أو بطلاناً .

وقبل النظر في وجه التصوف ، ينبغي أن نتعرف أولاً إلى الدوافع التي قمت به إلى الظهور يوم ظهر في المجتمع الإسلامي ، واتخذ أتباعه أماكنهم في بيوت العبادة واتخاذهم فيها صوراً من الذكر الجماعي ، المصحوب بالإنشاد والتصفيق .. ثم نتعرف ثانياً إلى مقولات المصوفة ، وما يجري على ألسنتهم من أهازيج ومعانيات ، لا مفهوم لها عند عامة المسلمين .

ونقول : إن ظهور التصوف في صورة منظمة لها شيوخ ومریدون ، وتلاميذ ، ولها أزياء خاصة ، وأذكار وأوراد يأخذون أنفسهم بها — إن ظهور التصوف في هذه الصورة ، كان تحدياً لتلك الحياة الخليعة الماجدة التي

غرق فيها الناس في العصر العباسي ، وكان هذا التجدي زهداً أولاً ، ثم زيادة في الزهد ثانياً ، ثم عبثاً ومجوناً آخر الأمر ١١

والذي انتهى بالتصوف إلى هذه النهاية السيئة ، هو أنه لم يحتفظ بالمفهوم الحقيقي للزهد المعروف في الإسلام ، والذي كان عن منزع ذاتي . يأخذ كل مسلم منه بالقدر الذي يحتمله ، دون أن ينضوي تحت غيره من الزهاد . أو أن يتقيد بمراسم خاصة يلتزمها ، وحسبه في هذا أن يتخفف ما استطاع من مطالب الحياة ، ومتاعها ، وأن يكون على مراقبة دائمة لجلال الله سبحانه وقيوميته عليه .

كما أن الذي انتهى بالتصوف إلى هذا الطريق الموعج ، أنه استمد كثيراً من أصوله ، من معارف غير إسلامية ، من هندية وفارسية ، ورومية ، ويهودية ، ونصرانية ، وغيرها .. فكان منه هذه الانحرافات الحادة التي باعدت كثيراً بينه وبين تعاليم الإسلام .

يقول الفيلسوف الألماني « جولد تسيهر » في كتابه : « العقيدة والشرعية في الإسلام » وهو يتحدث عن ظاهرة التصوف التي ظهرت في محيط الإسلام . . . يقول :

« وقد تجلت هذه المبالغة عند المتصوفة في ناحيتين : الأولى تعبدية ، والأخرى أخلاقية :

« فالناحية التعبدية ، تتمثل في « الذكر » الذي احتفظ بمسكاته طوال الأدوار التي مر بها التصوف الإسلامي فإذا كان الإسلام يقصر



الصلاة على أوقات محدودة في النهار والليل ، فإن المبادئ النسكية للتصوف تخالف هذا التعديد ، بما تحتمه من تلاوة القرآن وذكر الله ، فيما بين أوقات الصلاة ، وربما ترفع من شأن الأذكار إلى أن تصل بها إلى مرتبة الفرائض الحتمية ، التي قد تتضاءل دونها الفرائض ، وتصبح الفرائض بالنسبة لها واجباً ثانوياً !! سيان أداؤه أو إغفاله !!

« وهذه الأذكار الصوفية لا تزال حتى اليوم الهيكل الأساسي في بناء الصوفية !

« وأما الناحية الخلقية ، فتبرز واضحة جليلة في المبالغة في التوكل ، وهي العاطفة التي دفعت بهم إلى أقصى درجات الطمأنينة النفسية ، القائمة على أنهم لا يبالون بشيء ، ويهملون الدنيا إهمالاً مطلقاً ، بل يتركون أفعالهم تركاً لعناية الله وقضائه ، ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة ، كالبيت بين يدي الغاسل .. فهم يبعدون عن محيط تفكيرهم ، أن يعنى المرء بمسقبله ، وأن يرهى شؤنه وحاجاته » (١) .

ونسأل : إذا كان هذا دعوة من دعوات الإسلام إلى أتباعه . وكان ذلك سلوكاً في صورة جماعية لهم ، فهل يبقى مع ذلك إسلام ؟ وهل يكون هناك مسلمون لهم مكان في المجتمع الإنساني ؟ ويجب على هذا الفيلسوف « جولد تسيهر » فيقول :

(١) الشريعة والعقيدة في الإسلام ، للمستشرق تسيهر ص ١٤٩ والرسالة التفصيلية : ص ٢٤٣ .

« ومن البديهي ، أن تصوراً كهذا للحياة ، لم يتفق مع الآراء الراجحة في محيط الفكر الإسلامي ، في القرن الأول الهجري ، وهي آراء سبق أن سارت ، وهي سائرة في طريق نموها وتطورها ، متعجبة نحو الحقائق الواقعة .  
ثم يقول :

« ومع ذلك ، فلما أن تنساءل : كيف استطاعت نزعة النسك والتصوف هذه أن تصادف قبولاً واستحساناً ، في مجتمع ديني شارف أوج عظمته ، وبلغ أقصى ما يصبو إليه من توسع وفتح ؟؟ » .

ونقول : إن هذه نسكسة من النسكسات التي تصاب بها الأمم في أدوار حياتها .. صعود ، وهبوط ، ثم صعود وهبوط .. وهكذا .

ثم يقول « جولد تسيهر » — مشيراً إلى تلك العناصر الغريبة التي تشكل منها التصوف المنسوب إلى الإسلام :

« وقد حاكى هؤلاء الزهاد المسلمون وعبادهم — أي المتصوفة — نساك النصارى ورهبانهم ، فارتدوا الصوف الخشن ، ويمكن أن ترجع هذه العادة وهي ارتداء الصوف ، إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، على أقل تقدير حيث بدأ فيه استعمال كلمة صوفي ١١ » .

ثم يقول « جولد تسيهر » كاشفاً عن عنصر آخر من العناصر التي تشكل منها هذا التصوف — فيقول :

« وقد نفدت تعاليم الأفلاطونية الحديثة ، إلى نطاق الحياة العقلية في الإسلام ، وبعد هذا الحادث ذا أهمية حاسمة ، من جهة التصوف الإسلامي .

« فالزاهد المتصوف ، الذى نبذ الدنيا ، واحتقرها ، واطرحها ، وسما بروحه إلى الخالق الأعلى وملاذه الأوحد ، يجد ما يثبت يمينه بمنهج حياته الذى نهجه ، وما يقوى نزعة الروحية الإلهية . يجهذا في مذهب الفيض الإلهي عند أفلوطين ، ونظرتة في وحدة الوجود .

« يقول المتصوف جلال الدين الرومي ، في بعض مواجده :

« لم تسكن روحانا في الأصل ، سوى روح واحدة .. كذا كان ظهوري وظهورك » !!

« فمن الخطل ، الكلام عني وعنك .. فقد بطل فيما بيننا كلمة : أنا وأنت !! » .

« لست أنا ولست أنت .. فإني أنا وأنت في وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معا » <sup>(١)</sup> !!

وهناك عنصر ثالث تغذى منه التصوف الإسلامي - وهو التصوف الهندي الذى يقوم على إفناء الجسد وإرهاقه بضروب الرياضات المرهقة ، نتيجة لاعتقاداتهم الفاسدة في الحياة ، وأنها بلاء لا خلاص للإنسان منه إلا بهذا الموت البطيء !!

يقول جولد تسيهر :

« وعند إلقاء نظرة عامة على التصوف الإسلامي ، لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفاتها عوامل ذات أثر نافذ ، وأقصد بها المؤثرات الهندية التي بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذى انتشر فيه الإسلام شرقا حتى

(١) العقيدة والمشيعة في الاسلام . لجولد تسيهر ص ١٥٧ .  
( ٩ - التصوف )

حدود الصين ، فتخطت أفقه تدريجاً ، تلك الآراء الهندية ، التي ظهرت بعض آثارها في الأدب ، والبعض الآخر في الفكر الديني الإسلامي . .

« وكما أن المرء في البوذية ، لكي يبلغ أرق درجات الفناء ، كان عليه أن يتقدم مرحلة مرحلة ، متعباً طريقاً يتسكون من ثمانية مراحل . . كذلك للصوفية طريقها ، ومراتب الترقى في هذا الطريق . . والسائرون فيه يسمون أهل « السلوك » !! .

« ومن اليسير أن نلاحظ أثر العقائد الهندية في تطور حياة الزهد والاعتساف في الصوامع . كما نلاحظ أن حياة التسول التي يحميها الصوفيون ، والتي تدفعهم إلى ترك الجماعة ، ما هي إلا صورة تحاكي حياة لرهبان والسائلين الهنود ( السادس ) »

ونقول : إن نزع التسول التي يتخذها كثير من المتصوفة شعاراً لهم ، إنما تقوم على تصور خاطيء مريض ، يحملهم على إذلال النفس ، هذا الإذلال المبهين بتعرضها لسؤال الناس ، وتلقى ضروب المهانة ، والازدراء من المائعين أو المائعين على السواء . . وهذا في نظرهم طريق إلى تأديب النفس - بل وقتلها - وهي أعدي عدو للإنسان ، في نظرهم .

وهذا لاشك ضرب من ضروب الانتحار . . فالإنسان بغير نفس ، هو شبح لا وجود له في عالم البشر !!

ولما تظهر عظمة الإنسان ، وتعلو مكانته في الناس بوجود هذه النفس ، وما يتحرك فيها من شهوات ، ثم يكون لها من عقل الإنسان ودينه ، ما يردها عن شهواتها ، ويغلبها على أهوائها ، وذلك هو الجهاد الذي تنال به مرضاة الله ، ووضوانه . . ومن هنا كان الغنى الشاكر خيراً عند الله

من الفقير الصابر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى »<sup>(١)</sup> . . لأن اليد العليا هى اليد العاملة ، التى تعمّر الحياة بعمالها ، وتجنّب من ثمرات كدها وسعيها ما يسد حاجتها ، ويتسع لحاجات المحتاجين الذين لا يعملون . يرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صافح يد أحد أصحابه ، فوجدها خشنّة من العمل ، فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله !! »

ثم يتحدث « جولد تسيهر » عن أثر الديانة الهندية فى التصوف الإسلامى فيقول :

« وما يدل أيضاً على أثر العقائد الهندية فى التصوف ، أن المريد عندما يتم قبوله فى الجماعة الصوفية ، يمنح خرقة ، تعتبر رمزاً للفقر ، واعتزال الحياة الدنيا ، وقد وجدت الصوفية ، تبعاً لأسلوبها ومنهجها ، أصلاً للخرقة فى السيرة النبوية ، وربطت موضوعها بالنبي نفسه ﷺ »<sup>(٢)</sup> .

وهذا الذى يتخذه الصوفيون من إلباس الخرقة للمريد ، وجعل ذلك إشارة له بالدخول فى عالم التصوف ، واستنادهم فى ذلك إلى أثر منسوب للنبي صلى الله عليه وسلم - إن هو إلا بدعة شيطانية ، ألقى بها الشيطان فى روعهم وزين لهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأنه - صلوات الله وسلامه - ألبسها على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه ، وأن علياً ألبسها الحسن البصرى . . ثم صارت شعاراً يتلقاه الخلف عن السلف !!

(١) رواه البخارى ومسلم .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ، لجولد تسيهر ، ص ١٥٩

وهكذا يزين الشيطان لأوليائه من البدع ما يضلهم بها عن سبيل الله ،  
والعياذ بالله من الشيطان ، وأولياء الشيطان .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - فى دحض فرية الخرقه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وبهتاننا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقد ذهب الهوس والخيال  
بالصوفية إلى القول المقتري ، بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما أعلن  
للقراء أنهم سيدخلون الجنة قبل الأغنياء ، سقطوا منجذبين ، ومزقوا ثيابهم ،  
وعندئذ نزل جبريل عليه السلام ، من السماء ، وقال للحمد : إن الله يطالب  
بحظه من هذه المزق ، فتحمل واحدة منها ، وعلقها على عرشه تعالى ، وهذا  
هو نموذج لباس الصوفية الخرقه » (١) .

ونقول : إن هذا الخبر المكذوب ، ينادى على نفسه بالكذب المنفوخ  
من وجوه :

فأولاً : كيف يمزق الصحابة ملابسهم ، ويشقوا جيوبهم ، ورسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ،  
ودعا بدعاء الجاهلية » ؟ أفىكون ذلك من الصحابة وبمحضر من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولا ينهاهم عنه ، بل ولا يجرهم عليه ؟ ثم كيف يأخذ قطعة  
منها ويلبسها عليها رضى الله عنه ؟ .

وثانياً : كيف يطالب الله تعالى بحظه من هذه الخرق الممزقة ، وهو  
سبحانه له ملك السموات والأرض ؟ ثم كيف يعلقها بالعرش ، ليزينها به ؟

إن هذا لا يكون إلا بمن يتصورون الله في صورة صنم ، أو شيخ من مشايخ الطرق الصوفية . . سبحانك ربى ، هذا بهتان عظيم !

ويقول ابن الربيع الشيباني ، في كتابه : « تمييز الخبيث ، مما يدور على ألسنة الناس من الحديث » - يقول : « لبس الخرقة ، وكون الحسن البصرى ألبسها من على ( رضى الله عنه ) قال ابن دحية ، وابن الصلاح : إنه باطل . . ولم يرد في خبر صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، أن النبي صلى الله عليه وسلم ، ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية ، لأحد من أصحابه ، ولا أمر بفعل ذلك ، وكل ما يراه من ذلك فباطل . . ثم قال : إن من الكذب المفتري قول من قال : إن عليا ألبس الحسن البصرى الخرقة ، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن البصرى ؛ سماعا ، من على فضلا عن أن يلبسه الخرقة »<sup>(١)</sup>

ويمضى « جولد تسيهر » في بيان ما دخل على التصوف المنسوب للإسلام ، من التصوف الهندى . فيقول :

« ويوجد بين أساليب التعبد الصوفى الإسلامى ؛ طريقة ذاعت ذيوها عظيما . . تجاوزت البيئات الصوفية ؛ إلى غيرها ؛ وهى « المسيحية » و«التسييح»<sup>١</sup> وهما يرجعان دون ريب إلى أصل هندى .

ونقول إن المسيحية والتسييح بها ؛ إن لم تكن ترجع إلى أصل هندى ؛ فإنها على التحقيق ان ترجع إلى أصل إسلامى ؛ فما عرفها رسول الله صلى

---

(١) انظر هامش ص ١٦٣ من كتاب العقيدة والشريعة لجولد تسيهر ، ترجمة ابو ريذة .

الله عليه وسلم ولا عرفها أصحابه ولا التابعون رضوان الله عليهم ، وإنما هي بدعة ابتدعها المبتدعون في دين الله .

ثم يقول جولد تسيهر :

« ويوجد خلاف جوهري في علاقات المذاهب الصوفية بالإسلام الشرعي ، فأئمة التصوف الأدلون ، الذين وضعوا أساس نظرية الصوفية وآراءها ، آثروا « عمل القلب » وفضلوه على الأداء الرسمي لفرائض الإسلام وأحكامه أو كما يقولون « عمل الجوارح » .

« وهناك طوائف من الصوفية ، ترفض هذه الشعائر رفضاً باتاً ، لأنها ترى مثل هذه القيود الشرعية ، لا تربط العارفين . بل لانعدام أن نجد بين هؤلاء فريقاً لا يستبيح لنفسه إغفال هذه الشرائع ، فحسب ، بل ولكنه يرى أن من حق الصوفي أن يتخطى كافة النواميس الخلقية ، وأن يخرج على العرف الاجتماعي ، وعلى ما يسمى بالخير والشر ، وقدوتهم في هذا « اليوجا » للهنود ، وبعض الفنوصيين ، من المسيحيين ! !

« وهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السننى تقديرًا عالميًا ، فان لغالبيتهم نزعة مشتركة ، إلى محو الحدود التي تفصل بين العقائد والأديان .

« وقد ارتفعت بعض الأصوات - من المتصوفة - منادية بأن العلم بوحداية الله ، يشتمل على عنصر من عناصر الاتحاد والإخاء بين البشر ، بينما الشرائع والأديان تسعى لإثارة التفرقة والانقسام ، فيما بينهم ! ! » (١) .

(١) الشريعة والعقيدة في الإسلام ، للمستشرق جولد تسيهر ، ص ١٧٠ ترجمة أبو ريعة .



ونقول : إن هذا التصور الشيطاني عند الصوفية ، وعدم وقوفهم على حدود الشريعة ، باعتبار أنهم وصلوا إلى عالم الحق ، وبهذا رفع عنهم التكليف ، فلا يفتقون عند حرام أو حلال ، ولا يقيّدون بفرائض وأحكام - نقول : إن هذا التصور الشيطاني عند الصوفية ، إنما أرادوا به أن يفتنوا العامة ، وأن يروهم أن طريق التصوف يرفع الحرج عن شيوخه وأرباب طرده ، فلا يعترض أحد إذا رأى شيخه يزني ، أو يشرب الخمر ؛ أو يبيت مع الغلمان ، وعندهم أن الشيخ فوق أن يحاسب على منكر ، لأنه في حال اتحاد مع الله !! وهل يحاسب الله نفسه ؟ « كذلك زين للمصرفين ما كانوا يعملون » .

وعن هذا المنزع الشيطاني . . يقول أبو سعيد أبو الخير الصوفي ، لصديقه ابن سينا ، معبراً عن عقيدته ، وعقيدته أمثاله - يقول :

« ما دامت المساجد والمدارس لم تهدم هدماً تاماً ، فدوف لا ينجز الدراويش عملهم !! وما دام الكفر والإيمان لم يتشأها ، ولم يتأثلا تماماً ؛ فما من رجل يكون صحيح الإسلام ؛ والإيمان « !! »<sup>(١)</sup> .

وهذا الضلال المبين الذي غرق فيه كثير من الصوفية ؛ هو نتيجة لازمة لمذهب وحدة الوجود ؛ ذلك المذهب المفرق في الكفر والإلحاد ، حيث الوجود كله في هذا المذهب ؛ وجود واحد ؛ فلا خالق ؛

- ١٣٦ -

ولا مخلوق ؛ ولا حق ؛ ولا باطل ، ولا إيمان ولا كفر ،  
ولا إنسان ولا حيوان ، ولا ذكر ولا أنثى ، وأن الجميع شيء واحد  
لا اختلاف بين شيء وشيء .

ويقتضينا المقام هنا أن نفرد هذا المذهب - مذهب وحدة الوجود -  
ببحث خاص ، إذ كان أكثر ما في التصوف من خروج سافر عن العتل  
والدين ، إنما يتسكىء على هذا المذهب الفارق في أحوال الضلال .

★ ● ★

## الفصل الثالث

### التصوف ووحدة الوجود

القول بوحدة الوجود ، مذهب قديم ، دان به فلاسفة الهند ، كما دان به كثير من فلاسفة اليونان ، حيث يخلق العقل بخياله الجامع إلى ما فوق الواقع ، فيرى عوالم الموجودات كلها على مستوى واحد ، فلاسهول ولا نجود ، ولا قم ولا سفوح ، تماماً كما ينظر الإنسان من طائرة تطير على علو يبلغ آلاف الأميال ، فلا يرى الأرض إلا بساطاً ذا مستوى واحد ، ولون واحد ، حيث تختفي الجبال ، والدور والأشجار ، وكل ما يجري أو يدب على الأرض . . فإذا هبطت الطائرة إلى مستوى قريب من الأرض ، وجد الناظر أن الأمر على خلاف ما كان يراه من قبل ، وأن لكل شيء ذاتية الخاصة به ، فيقال : هذا جبل ، وهذا نهر ، وهذا إنسان ، وتلك سيارة ، وهذه نخلة ! ! وهكذا تعدد الأسماء بتعدد الموجودات ، وتقوم الحدود الفاصلة بين كل موجود ، وغيره من الموجودات ، وبهذا يأخذ كل شيء وضعه الذي يناسبه ، فلا يختلط شيء بشيء .

فالقول بوحدة الوجود ، ضلالة من ضلالات الوهم ، وخدعة من خدع الغياب العقلي ، في سكرة من سكراته ، لس من جنونه ، أو غيبوبة من صرع .

وقد دخل القول بوحدة الوجود على الصوفية من باب واسع ، إذ وجدوا

انجذاباً إليه في مواجهتهم ، حين تطير عقولهم بالرقص على أصوات المغنين ،  
ومزامير الزمرين ، وحيث تنهدقواهم الجسدية ، وتأخذهم غيبوبة أشبه بغيبوبة  
الحمى . وصرع الجنون ، حتى ليقول قائلهم في حال تواجده : « انا الله » أو  
« ما في العجبة إلا الله » كما عرف ذلك عن « الحلاج » !!

### ابن عربي ووحدة الوجود :

وابن عربي - المعروف عند الصوفية بالشيخ الأكبر - هو الذي أقام  
لهذا المذهب الضال منطقاً سقيماً من الجدول السفسطائي ، وجعل منه مركباً  
سبّح به الصوفية في بحر لجي لانجاة لراكبه .

وقد تولى ابن تيمية - رضى الله عنه - بتنفيذ هذا المذهب الضال ، وألقم  
ابن عربي حجراً فيما يقوله عن وحدة الوجود - يقول ابن تيمية - فضر الله  
وجهه - حاكياً مقولة من مقولات ابن عربي ، وضلالة من ضلالاته ، ثم  
يرى بذلك في وجهه :

« يقول ابن عربي : إنه يأخذ العلم من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي  
يوحى به إلى الرسول . . والمعدن عنده هو العقل ، والملك هو الخيال ،  
والخيال تابع للعقل !!

« وهو - أى ابن عربي - بزعمه ، يأخذ عن الذي هو أصل الخيال ،  
والرسول يأخذ عن الخيال !! لهذا صار هذا الغوى عند نفسه فوق النبي !! » (١)

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن ترمية ص : ٤٣ ...  
الطبعة الاولى مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣٢٥ هـ .

وهذا التطاول المجنون من ابن عربي ، دعاه إلى القول بوحدة الوجود  
واتحاده مع الله سبحانه وتعالى ، كما دعاه إلى أن يرى الله في كل شيء . . .  
في حجر ، أو شجر ، أو حيوان . . . فإذا عبد صنما ، أو كلباً ، أو دابة ، فهو  
في دينه الفاسد ، إنما يعبد الله !!

يقول ابن عربي إمام الصوفية ، وشيخها الأكبر :

لقد صار قاي قابلا كل صورة فرعى لغزلان ، ودير لرهبان  
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف وألواح تورا ومصحف قرآن  
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه ، فالحب ديني وإيماني .  
ويقول ابن تيمية - رضى الله عنه - رأيته صريحاً في ابن عربي ، ومن  
اتخذوا بضلالاته - يقول :

« فابن عربي ، وأمثاله ، وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية  
الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلاً عن أن يكونوا من  
مشايخ أهل الكتاب والسنة .

ثم يقول ابن تيمية ، ذاكراً ما جرى على لسان ابن عربي في رده على  
الجنيد الذي ينسكرك القول بوحدة الوجود :

« يرد ابن عربي على الجنيد في قوله عن التوحيد ، وأنه أفراد الحدوث  
عن القدم ، فبين أن التوحيد هو أن تميز بين القديم والحديث ، وبين الخالق  
والخلوق فيقول ابن عربي في مخاطبته الخيالية الشيطانية : يا جنيد : هل يميز  
بين الحديث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ » .

ويقول ابن تيمية - نصر الله وجهه - صفع ابن عربي ، وفضح فسسطه الشيطانية وقوله : «هل يميز بين المحدث والقديم إلا من كان غيرها ؟ ولما لم تسكن القسمة إلا محدثاً أو قديماً ، ولا ثالث غيرها ، فإذا لا يمكن التمييز بينهما ، وإذا سقط التمييز فلا بد من قديم أو محدث ، ولا يجتمعان ، ولما كانت صفة القدم هي اللاتمة بالله ، فقد بطلت المحدثات ، وصار الوجود كله قديماً » !! هذا ما حاج به ابن عربي ، الجنيد يريد إلزامه القول بقديم المعالم ، ووحدة الوجود .

يقول ابن تيمية رداً على هذا الإفك الشيطاني من ابن عربي :

« فيقال لهذا المجد : ليس من شرط المميز بين الشئيين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالثاً ، فالعبد يعرف أنه عبد ، ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل وعلا ، يميز بين ذاته وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده .

ثم يقول ابن تيمية : « وأما هؤلاء الملاحدة - من الصوفية - فيزعمون ما كان يزعمه التمساني ، وهو أحذقهم في اتحادهم - أي في القول بوحدة الوجود - فإنه لما قرئ عليه الفصوص « لابن عربي » ، فتبيل له : القرآن يخالف فصوصكم ، فقال - أخزاء الله - : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا !! فتبيل له : إذا كان الوجود واحداً ، فلماذا كانت الزوجة حلالاً ، والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ولكن هؤلاء المحجبون - يقصد أهل السنة - قالوا حرام فقلنا حرام عليكم !!

ثم يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - دحضاً لهذا الكفر الصراح .

« وهذا مع كفره العظيم متناقض . . فإن الوجود إذا كان واحداً ،  
فمن المحجوب ومن الحاجب ؟

« ولهذا لما قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك إن في الكون  
سوى الله فقد كذب !! قال له مريده : فمن هو الذى كذب ؟ »<sup>(١)</sup>.

وهكذا أخطت بداهة العقل ، هذا الشيخ المتربع على عرش التصوف ،  
المحمول على يد الشيطان !! « فهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم  
الظالمين » .

### ابن الفارض . . ووحدة الوجود :<sup>(٢)</sup>

ولابن الفارض الملقب عند الصوفية بسلطان العاشقين — لابن الفارض  
هذا ، ديوان شعر ، هو قرآن الصوفية ، وذكرهم الذى يستنبطون به مواجدهم  
لينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، حيث يخيل لهم أنهم يتحدثون مع الله  
بحلولهم فيه ، أو حوله فيهم ، فإذا هو هم ، أو هم هو !!  
والديوان كله كفر وإلحاد . .

وناقل الكفر ليس بكافر ، إذا كانت غايته من نقله هو كشف وجهه  
المنكر ، والتحذير منه . يقول ابن الفارض فى ديوانه هذا ، متحدثاً عن  
الذات الإلهية :

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص ٤٥ .

(٢) هو عمر بن أبى الحسين ، على بن المرشد المعروف بابن الفارض ،  
المصرى المولد ، توفى سنة ٦٣٢ هـ .

جلت في تجليها الوجود لناظري      ففي كل مرئي أراها برؤية  
ففي المصحو بعد المصحو لم أك غيرها      وذاتي بذاتي إذ تجلت تجلت  
فإن دعيت كنت المجيب، وإن أكن      منادى، أجابت من دعائي ولبت  
فقد رفعت ثاء المخاطب بيننا      وفي رفعها عن فرقة الفرق رفعتي  
ولولاي لم يكن وجود، ولم يكن      شهود، ولم تعهد عهود بذمة  
فلاحى إلا من حياتي حياته      وطوع مرادى كل نفس مريدة  
وكل الجهات الست نحوى توجهت      بما تم من نساك وحج وعمرة  
لها صلواتي بالمقام أقيمها      وأشهد فيها أنها لي صلت  
كلانا مصل واحد، ساجد إلى      حقيقة بالجمع في كل سجدة

وكفى، كفى، من هذا الكفر الغليظ، وصدق الله العظيم : « إنهم  
اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون »  
(الأعراف : ٢٩) .

#### الجيلي . . ووحدة الوجود : (١)

وقد جاء بعد ابن الفارض من شعراء المتصوفة كثيرون ، غرقوا هلكي  
في بحار وحدة الوجود . ومن هؤلاء عبد الكريم الجيللي ، وقد أمدع الجيللي  
في الضلال ، حتى لقد أقام نفسه ربا على هذا الوجود ، خلقاً وأمرأ . . يقول  
في إحدى كفرياتة التي حملها ديوانه :

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم الجبلاني أو الجيللي - توفي سنة ٨٣٠ هـ .



لى الملك فى الدارين لم أر فىهما      سوى ، فأرجو فضله ، وأخشاه !!  
وقد حزت أنواع السكّال ، وإبنى      جمال جلال السكّال ، ما أنا إلا هو !!  
لى الملك ، والمسكرات نسجى وصنعى      لى الغيب ، والجبروت منى منشاء !!  
وإبنى رب للأنام ، وسيد      جميع الورى اسم ، وذاتى مسماه !!  
فإبنى ذات السكّال ، والسكّال مشهدى      أنا المتجلى فى حقيقة ، لا هو<sup>(١)</sup> !!

وهكذا يمضى الجليل فى هذا الجنون ، فيخيل له جنونه أنه الوجود كله ،  
وأن كل موجود قد حل فيه ، فلا رب ولا مربوب إلا هو !! بل هو المتجلى  
فى هذا الوجود ، ليس الوجود إلا من تجلياته !

فأى عالم يكون هذا العالم الذى يتصوره الصوفية ، وهم يذهبون هذا  
المذهب الضال ، من الحلول ووحدّة الوجود ؟ وأى حدود بين الأشياء والمعانى ؟  
إن السكّال عندهم واحد ، فلا خير ولا شر ، ولا حق ولا باطل ، ولا حلال  
ولا حرام ، ولا طيب ولا خيميت ، ولا رب ولا مربوب !!

وهذا انقصور المريض الجنون يلغى الشرائع السماوية ، بل والوضعية ،  
ولا يعمل مكاناً للرسول والمصلحين ، إذ لا مكان للإصلاح ، حيث السكّال  
صالح ، والسكّال على سواء !

ومن عجب أن يتعبد المتصوفة بهذه المقولات ، ويحتمعون على الذكر بها  
ويرونها سلم العروج إلى منازل السكّال ، ومرفقة الشهود !! وهذا إبطال  
لزعيم بوحدة الوجود التى يدّعون بها . . إذ ليس فى عالم الوحدة هذه

(٢) الانسان الكامل ، للجيلى - ص ٢٠ وما بعدها . طبعة ١٢٩٣ هـ .

انتقال من حال إلى حال ، حيث السكل سواء ، فلا علو ولا سفلى ، ولا فرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين إنسان وحيوان أو جماد !! ولكن للشيطان خدعه وضلالاته ، وهؤلاء القائلون بوحدة الوجود أو بالحلل ، هم شياطين فى صورة آدميين لمبس الشيطان صورهم ، ويدارى شخصه فيهم حتى لا يخشاه الناس ولا يرتابون فيما يلتقيه من ضلالات على ألسنة شياطين الإنس هؤلاء .. والله تعالى يقول : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (سورة الأنعام : ١١٢) ..

### والغزالي أيضا !!

لقد بدأ الغزالي حياته فيلسوفا ، فلما لم يجد فى الفلسفة شيئا من يرد الطمأنينة فى قلبه ، هجر الفلسفة إلى التصوف ، فانتقل بهذا من طرف إلى طرف ، دون أن يقف عند الوسط الذى بينهما ، وهو ما قامت عليه شريعة الله !!

ومن هنا كان الزلق الذى انزلق إليه الغزالي ، سواء فى فلسفته أو فى تصوفه ، ولو أن الغزالي لم تأخذه العجلة والاهفة ، وهو يهرب ، من الفلسفة ، ناشداً طمأنينة قلبه ، حتى ألقى بنفسه فى بحار التصوف — لو أنه لم يفعل ذلك ، وانتقل من الفلسفة إلى الشريعة ، ولزم حدودها ، ولم يتعطبا إلى التصوف ، لوجد فى حقائق الشريعة حاجته من طمأنينة القلب ، طمأنينة تسكن العقل والقلب معاً ..

إن الغزالي ، حين دخل عالم التصوف ، لم يصحب عقله معه ، بل أتى به على عتبة الدار عند الفلاسفة !! .

استمع إلى الغزالي<sup>(١)</sup> الصوفي ، وهو يتحدث عن التوحيد ومراتبه —  
يقول الغزالي : « للتوحيد ، أربع مراتب :

الأولى : الإقرار باللسان ، بأن لا إله إلا الله ..

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ،  
وهو اعتقاد العوام !!

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الله ، وهو  
مقام المقربين ! وذلك بأن يرى الأشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها  
صادرة عن الواحد القهار !

والرابعة : ألا يرى في الوجود ، إلا واحداً ، وهي مشاهدة الصديقين ،  
وتسمية الصوفية : الفناء في التوحيد !!

« لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذا لم ير  
إلا نفسه لكونه مستغرقا بالتوحد ، كان فانياً عن نفسه في توحيده ، بمعنى  
أنه فنى عن نفسه واخلق !! (٢) »

ولم يسأل الغزالي نفسه : أى توحيد هذا الذى يغيب فيه الإنسان عن  
نفسه ، فلا يعلم من هو ؟ ولا أين هو ؟ ولا يدري فرق ما بين حق وباطل  
أو بين حلال وحرام ؟ أهذا إنسان يكلف بعبادات وطاقات ، وقربات ؟ .  
ونستمع إلى الغزالي ، وهو يحاول أن يجيب على السؤال ، بالكشف  
عن التوحيد في مرتبته الرابعة ، أو العالما — يقول الغزالي : « والرابع :

(١) من كتاب « احياء علوم الدين » للغزالي — جزء ٤ ص ٢١١  
وما بعدها طبعة دار الكتب العربية .

( ١٠ = التصوف )

موحد، بمعنى أنه لم يحضره في شهوده غير الواحد .. فلا يرى الكل من حيث  
لأنه كثير، بل من حيث لأنه واحد، وهذه هي الغاية القصوى في التوحيد !!  
ثم يمضي الغزالي، شارحا هذا التوحيد .

« فان قلت : كيف يتصور أنه لا يرى إلا واحدا ، وهو يشاهد السماء  
والأرض ، وسائر الأجسام المحسوسة ، وهي كثيرة ؟ فكيف يكون الكثير  
واحدا ؟ - فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات !! وأسرار هذا العلم لا يجوز  
أن تنص في كتاب ، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوية كفر » (١)

ونسأل الغزالي : ما هي علوم المكاشفات التي يطلع منها المطلع على أن  
الكثير واحد ؟ وأين ذلك في كتاب الله أو سنة رسوله ؟ وهل عرف أحد  
من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العلم ؟ وهل عرف أن أحداً  
منهم فني عن نفسه ، وتوحدت عنده الموجودات ، فلم ير النبي أنه نبي ؟ ولم  
يميز بين أبنائه ، وأهله وإخوانه ؟ وإذا لم يكن ذلك قد وقع لأحد من  
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يقع لغيرهم لا يبدو أن  
يكون ضلالا ، وإفكاً مبيناً !!

ونسأل الغزالي أيضا : لمن جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى  
إلى النظر في ملكوت السموات والأرض .. إلى الشمس في مسارها ،  
وإلى الكواكب والنجوم في مداراتها ، وإلى الأرض ، وما تخرج من  
زرع ، وثمر .. وإلى الإنسان من أي شيء خلق ؟ . وإلى الظير مستخرات  
في جوف السماء ما يسكنن إلا الله ؟ . وإلى الليل والنهار وتعاقبهما ..؟ وإلى

كل ما تقع عليه العين في هذا الوجود ، لمن جاءت هذه الآيات الكريمة في كعاب الله ؟ أليست جاءت دعوة للنظر في هذه الموجودات ، والاستدلال منها على وحدانية الله ، وماله سبحانه من قدرة قادرة ، وعلم عليم ، وحكمة حكيمة ؟ .

فإذا اختلطت الموجودات ، فصارت كتلة متضخمة ، لا يعرف منها رأس من ذنب — فكيف يستدل بتلك المخلوقات على الخالق ؟ وكيف تتوثق صلة المخلوق بخالقه ، إذا لم يملأ ناظره من هذا الوجود ، ويشهد فيه بديع صنع الصانع ، وتدير المدبر ، وحكمة الخالق ؟

إنها شطحة صوفية ، ألفت بالغزالي في متاهات هذا العالم المجهول الذي أطلق عليه علوم المكاشفات . . هذا ، وقد فطن بعض المستشرقين إلى صوفية الغزالي هذه ومدى تأثيرها في عالم المتصوفة ..

فهذا المستشرق « نيكلسون » يقول : « إن الغزالي أوسع المجال لبعض صوفية وحدة الوجود ، أمثال ابن عربي وغير هؤلاء من طوائف الصوفية ، الذين كانوا إخواناً في ذلك الدين الحر ، بكل ما لكلمة الدين الحر من معنى » (١)

ويقول المستشرق « جولد تسيهر » : « وابن عربي » الذي أشرنا من قبل إلى تأثيره بالغزالي ، يخضع تفسيره — للقرآن — الذي نحافيه منه

---

(١) من كتاب « في التصوف الاسلامي » لنيكلسون ، ترجمة الدكتور

ابو العلا عفيفي (ص ١٠٤)

التأويل ، اخضاعا تاما ، لوجهة النظر ، التي أخذ بها الغزالي »<sup>(١)</sup> .

ويقول : « كارل بيكر » : « ولقد سادت روح الغنوص — أى الرمزوية — قرون صدر الإسلام كلها ، ثم سادت التصوف ، الذى كان يعد فى البدء بدعة خارجة عن الدين ، ولكنه أصبح بفضل الغزالي ، خاليا من السم ، معترفا به من أهل السنة »<sup>(٢)</sup> .

وهكذا كان الغزالي بمعارفه الواسعة ، وقلمه البليغ ، بانثيا من بنى — التصوف ، وإن كان البناء معبدا للشيطان !!

هذا ونختتم هذا الفصل بكلمة للأستاذ عباس محمود العقاد ، فى حديثه عن الصوفية ، وقولهم بالحلول ، وحادثة الوجود . .

يقول الأستاذ العقاد .

« فالدين الإسلامى ، الذى انتشر ، فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، قد تسرب بعضها إلى أبناء تلك الأقطار ، واختلط بعضها بالعقائد الإسلامية ، عن طريق الوراثة والاستقرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط ، فاقترن فى أقوال ناس من المفتسمين إلى الاسلام بما يجوز . وبالا يجوز . .

« وعلى الجملة فإن الاسلام ينسك من تلك المذاهب الصوفية مذهبين دنششرين فى الصوفية على عمومها : ينكر مذهب الحلول ، كما ينسك المذهب

(١) من كتاب : مذاهب التفسير « ليجولد تسيهر ص ٢٥٩ .

(٢) التراث اليونانى ، ترجمة الدكتور أحمد بدون ص ١٠ .

— ١٤٩ —

القائل بوحدة الوجود.. فلا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله في جسد إنسان، أو غير إنسان، ولا يقر مذهب القائلين بقناء الذات الإنسانية في الذات الإلهية..

« ولا يتر الاسلام مذهباً يقول بوحدة الوجود<sup>(١)</sup>، أو يقول بأن الله، هو مجموعة هذه الموجودات، وأن الكون كله بسمائه وأرضه، ومخلوقاته العلوية والسفلية، هو الله<sup>(١)</sup> ».




---

(١) من كتاب الصوفية في الاسلام، للاستاذ عباس محمود العقاد  
ص : ٨٢ وما بعدها \*





## الباب الخامس

التصوف . . وطرائقه ، ومهمياته



## الفصل الاول

### نظام الطبقة في التصوف

التصوف دين قائم بذاته في مواجهة الدين الإسلامي وإن تحركت بالإسلام وأضاف نفسه إليه وانتسب نسبة الدعى إليه .

فالإسلام دين ينتسب إليه كل مسلم ، لا يعرف له نسباً غيره ، فالمسلم مسلم وحسب والمسلمون أمة واحدة تحت راية واحدة تظل المسلمين جميعاً ، هي راية الإسلام .

وإن أى إنسان أو جماعة لا يكون الإسلام نسباً له أو لها لا يحسب من المسلمين . . فالصوفى ، والقاديانى ، والبهائى ، والفاطمى ، والإسماعيلى والمعتزلى ، وغير ذلك من الأسماء التى تتسمى بها بعض الفرق هي معزولة عن الإسلام مهما بعدت أو قربت عزلتها عنه .

ولإلا ، فلم كانت هذه الأسماء ، إذا كانت لأصحابها دعوى في الإسلام أو النسب إليه ؟ إن ذلك يعنى أنها — على أحسن الأحوال — لإسلام وشىء عندها فوق الإسلام وإلا لما كان لتلك الأسماء الحادثة معنى ! !

والإسلام هو الإسلام ، الذى جاء به القرآن الكريم وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن أية إضافة للإسلام أو حذف منه ، لا يكون إسلاماً . . فما أخلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مكانه من هذه الدنيا ،

إلا بعد أن تم دين الله ، وكل . . والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (سورة المائدة : ٤) ويقول سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين » (سورة آل عمران : ٨٥) .

ونسأل المتصوفة : إما أن يكونوا مسلمين ، فلم هذا الاسم ، الذي استبدلوه بالإسلام ؟ وإذا قالوا : إن التصوف هو الإسلام ، فلم يهجرون كلمة الإسلام التي جعلها الله تعالى عنواناً على هذا الدين ، إلى كلمة التصوف ؟ والله تعالى يقول : « أاستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟ » (البقرة : ٦١) .

وإذا كان التصوف ديناً حاداً ، مستقلاً بطوقه ، ونواميسه ، فلم يتحسك بالإسلام ، ويخلط نفسه به ؟ إن ذلك ضرب من ضروب النفاق ، والكفر الصريح - على فداحة مآثمه وشروبه - خير من النفاق . وفي الشر خيار ! !

ثم إن التصوف بطوقه ومراسمه ، وطرائق شيوخه ، ليس ديناً واحداً ولا مذهباً واحداً ، بل هو أديان شتى ، ومذاهب مختلفة . فكل من وصل إلى كرسى الشيخة في التصوف ، اتخذ له طريقة خاصة به ، وشارة مميزة لأتباعه وضروباً من الأدعية والأذكار يعكف عليها مريدوه

وكل صاحب طريقة من تلك الطرق الصوفية ، يتخذ له ضريحاً من تلك الأضرحة التي تضم تحتها اسماً تدعى لصاحبه الولاية ، فيسكون هذا الضريح قبلة صاحب الطريقة وأتباعه ، لا ينقطعون عن زيارته ، ويحجون إليه في يوم مولده ، ويؤدون له من المناسك ما يؤدي المسلمون من مناسك حجهم ،

ويقدمون له القربان، والنذور... ثم إن الجاثم في هذا الصريح مذكور دائماً عند أتباعه، يهتفون به في كل حال من أحوالهم، في سرائرهم وضرائهم، يظلمون منه المدد والغوث، ولا يكاد يخطر لهم ذكر الله في أحوالهم تلك.

ولا شك أن هذا شرك صريح، يدخل به صاحبه في عالم المشركين، الذين يقول الله تعالى فيهم: «ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، وهم عن دعائهم غافلون، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء، وكانوا بعبادتهم كافرين» (الأحقاف: ٥ - ٦).



ومع هذا الشرك الصراح الذي يعيش فيه المتصوفة، فإنه - كما أشرنا - طرائق متعددة، يقوم على كل طريقة شيخ، يتسلط على أتباعه تسلط العبدارين، فسلطته قانون، وإشارته حكم، من حدثه نفسه بمخالفته، أحرق بنار الطرد والحرمان من رحمة الله.

ثم إن من وراء هذا الشيخ حواريين، ومن وراء الحواريين أوتاداً ومن وراء الأوتاد نقباء... وهكذا وهكذا، كل من كان منهم في درجة تسلط على أصحاب الدرجة التي دون درجته، كما تسلط شيخ الطريقة على أتباع الطريقة، دون مراجعة أو اعتراض، امثالاً لهذا المبدأ الصوفي: «من اعترض امترض» والمبدأ الصوفي القائل: «ينبغي أن يكون المريد بين يدي شيخه كاليت بين يدي الغاسل ١١».

أرأيت إذلالاً للإنسان، وامتهاناً لكرامته، وإهداراً لأدميته، ووضعاً كهذا الوضع الذي يسلب فيه الإنسان عقله، ويفقد فيه إحساسه ومشاعره؟

إن الله سبحانه ، وهو خالق الإنسان ، ورازقه ، ومحبيه ومميتة ، لم يفرض لذاته سبحانه على الإنسان سلطاناً كهذا السلطان ، الذى يسلبه وجوده ، وحقه فى النظر إلى ما يدعوه إليه سبحانه ، وما يفرض عليه من طاعات وعبادات ، بل جعل لكل إنسان الحق فى أن يقدر ويفكر فيما يدعى إليه من دين الله ، ثم إن له بعد هذا أن يؤمن أو يكفر ، فيكون إيمانه عن اختيار ، وكفره عن اختيار أيضاً ، وبمقتضى هذا الاختيار يكون حسابه ، ويكون ثوابه أو عقابه . . والله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ( البقرة : ٢٥٦ ) . . ويقول سبحانه : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » ( الإنسان : ٢٩ ) ويقول جل شأنه لنبيه الكريم : « أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » ( يونس : ٩٩ ) . . ويقول تعالى : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ( الرعد : ٤٢ ) . . ويقول تبارك اسمه : « أرايت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً » ( الفرقان : ٤٣ ) . . ويقول سبحانه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » ( القيامة : ١٤ — ١٥ ) ويقول سبحانه : « فذكر ، إنما أنت مذكر » لست عليهم بمسيطر » ( الفاشية : ٢١ — ٢٢ ) .

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدى الناس جميعاً إلى الإيمان ، والعمل بمرضاته ، ولكن هذه القدرة الملزمة القاهرة لا تجعل للإنسان مجالاً للاختيار ، ومن ثم يرتفع البلاء ولا يكون بين الناس مكان للفضل والفاضل ، ولا مجال للشواب والعقاب . . يقول الحق سبحانه : « أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً » ( الرعد : ٣١ ) . . ويقول سبحانه : « ولو شاء ربك

لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم»  
(هود: ١١٨ — ١١٩) .. ويقول جل شأنه : « ولو شاء الله لجمعهم على  
الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين » ( الأنعام : ٣٥ ) .. ويقول سبحانه :  
« ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها » ( السجدة : ١٣ ) ويقول جل شأنه :  
« ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً » ( يونس : ٩٩ ) ..

ذلك هو حكم الله في عبادته ، وتلك مشيئته فيهم : أهرم ونهاهم ، ثم جعل  
لهم حرية الاختيار فيما أمر ونهى .. فلا إلزام ولا إكراه ، ولكن اختيار  
وابتلاء : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ..  
( السكف : ٢٩ ) .. « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حى عن بينة »  
( الأنفال : ٤٣ ) .

ولكن الصوفية ، تغزل على أتباعها من سلطان متسلط جبار ، يحرق  
بناره كل من خالف شيخه ، أو اعترض على حكم من أحكامه : بل إن  
المريد يجب أن يكون بين يدي شيخه ، كالبيت بين يدي غاسله !! وهل  
للميت أن يكون منه اعتراض على من يغسله ، إذا هو غسله بالخر ، أو بالخل؟  
وهل ترجو أمة أو جماعة يكثر فيها هؤلاء الأشباح الذين تعطلت  
ملكاتهم ، وذهبت عقولهم ، وماتت مشاعرهم وأحاسيسهم — هل ترجو  
أمة يكثر فيها أمثال هذه الأمساخ ، أن تحصل خبراً لدنياها أو آخرتها ؟

إن عالم المتصوفة يحيل أتباعه إلى عالم الموتى ، حيث يختم على أعمال  
الموتى ، فلا عمل لهم بعد الموت .. كذلك المتصوفة الذين يعملون تحت هذا  
الاستعباد القاهر ، لا يقيم لأعمالهم وزن ، مهما عملوا ، لأن هذا العمل واقع

تحت حكم الاضطراب الذى لا إرادة لصاحبه فيه ، سواء أ كان من باب الخير  
أو من قبيل الشر !!

فأعمال المصوفة ، فضلا عن أنها مدموغة بطابع الشرك ، فى كثير من  
صورها وأشكالها تقوم على أساس طبقى ، كل طبقة تعيش فى حدود طبقتها ،  
تذل للطبقة التى فوقها وتتعالى على الطبقة التى تحتها . .

وقد خضع الصوفية لهذا النظام العسكرى الصارم ووقعوا تحت سلطانه  
الذى لا يرحم من تحدته نفسه . بالخروج عليه . . فإن فعل كان مجازفا بنفسه  
معتوقاً الويلات تنصب عليه من أصحاب التعريف ، الذين يقومون على  
اتباعهم مقام الرب على عباده .

إن هذه القيود الثقالة ، التى قيدت بها الصوفية أتباعها على ربط الذلة  
والاستكانة للشيوخ وأصحاب الطرق ، لى بلاء دونه أى بلاء يقع فيه الأسير  
ليد أسريه ، من ألد أعدائه !!

وماذا يبقى للإنسان من معانى الإنسانية، إذا اختفت أنفاسه ، وسجنت  
عواطفه وذهب بعقله ؟ هذا هو الإنسان — أو شبح الإنسان — فى عالم  
الصوفية . .

يقول الصوفى الكبير ابن عطاء السكندرى ، فى كتابه : « لطائف  
المن » :

« من لم يكن له استعاذ يوصله بسلسلة الاتباع ، ويكشفه عن قلبه القذاع ،  
فهو فى هذا لقيط ، لا أب له ، دعى لا نسب له » ..

وإذن ، فالمسلمون جميعاً أذعياء ولا نسب لهم إلى دين ، إلا إذا دخلوا  
فى عالم التصوف ، وانظلموا فى سلك التلاميذ والمريدين .



ويقول « محمد عثمان » شيخ الطريقة البرهانية ، التي استولت على عقول كثير من أبناء السودان ، ومصر ، في هذه الأيام - يقول - وهو لا يزال حياً بقي هذا اللغو على أتباعه ، فيما يجب أن يلتزم به المريد في حضرة شيخه من آداب ، فيقول : « ومنها - أى من هذه الآداب - أن تجلس مجلس جلوس الصلاة عنده ، وأن تقف فيه ، وألا تجلس فوق سجادته ، وألا تقوضاً بإبريقه ، وألا تتسكى على عكازه ، واسمع ما قال بعض الأصفياء : « من قال لشيخه لم ؟ لا يفلح » !! وليكن محضره في قلبك وخيالك ، فإن غبت عنه وقتاً فهذا من مقتك !! واجتهد في أن تنال مقام الفناء فيه ، ومن ثم ترقى إلى مقام الفناء فيه »<sup>(١)</sup>.

ويقول : هـ : يبقى بعد هذا عند المسلم في قلبه أو عقله لله تعالى ، والمريد مستغرق في شيخه ان فيه ، فإن غفل عن اشتغال عقله وقلبه به ، حل عليه المقت ؟ وكيف يؤد . ريد الصلاة ، وهو مشغول بشيخه ؟ لا بأس !! إنه يصلى لشيخه القائم مقام ربه . . سبحانه هذا بهتان عظيم !!

هذا ، وتقرر الصوفية على لسان « الشعراوى » : أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع في الشرك بالله ، !!<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن عطاء الله السكندري : « من أخذ الطريق على غير شيخه ، كان على غير دين » !!<sup>(٣)</sup>.

(١) الهبات المقتتمة ، لمحمد عثمان سنة ١٩٣٩ م .

(٢) قواعد الصوفية ص : ١٣١

(٣) لطائف المنن ، لابن عطاء الله : جزء ٢ صفحة ١٠٣ .

ونسأل هذا الشيخ الصوفي الكبير : ما حكم من يأخذ طريقه إلى الله من كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يأخذ هذا الدين من أحد شيوخ المتصوفة ؟ أيقبل هذا الدين من صاحبه ، أي يعد دينه باطلاً وانهاً ؟ ثم ما حكم المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله قبل أن يظهر المتصوفة ، وشيوخ المتصوفة ؟ أتكون الأمة الإسلامية حينئذ على غير دين ؟ وما حكم المسلمين اليوم الذين لم يدخلوا في عالم المتصوفة ، ولم يجلسوا إلى شيوخهم مجلس السكاب من صاحبه ، يلقي إليه بما شاء من عظام ونفايات الطعام ؟ أ يكونون على دين ، أم يكونون من الكفرة والملحدن ؟

وندع الجواب على هذا الأمة الإسلامية ، التي يخرجها المتصوفة من دينها ، لأنها لم تأخذ دينها من شيوخ التصوف ؟

فهنا دينان : دين الإسلام ، المتلقى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، ودين التصوف المتلقى من شيوخ المتصوفة !! والسكل أحكامه ، وحدوده ، وشرعته ومنهاجه . ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً وصوفياً ، كما لا يمكن أن يكون الصوفي صوفياً ومسلماً ، والله تعالى يقول : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ( الأحزاب : ٤ ) . فكيف - مع هذا - يسمح المسلمون المتصوفة أن ينشروا هذا الضلال فيهم ، وأن يفتنوه في دينهم ؟ وإذا حارب المسلمون المبشرين الذين ينتشرون في ربوعهم ، وينشرون أباطيلهم بينهم ، فإن حارب التصوف والمتصوفة أولى وأوجب ، لئلا كان المتصوفة يلبسون زى الإسلام خداعاً وتمويهاً ، على حين أن المبشرين يلبسون زى الرهبان والتسيدين ، حيث يحذرهم المسلم ، ويتوقى الشر المساق إليه منهم ، على حين يلتقي مع المتصوفة في بيوت الله ، وفي محارب الصلاة ، وذلك هو السكيد أعظم السكيد والبلاء أشد البلاء .

## الفصل الثاني

### طبقات المتصوفة . . وتصريف كل طبقة

في مؤلفات المتصوفة رسم دقيق لطبقاتهم ، وما لكل طبقة من نصريف في هذا الوجود ، بحيث تتدرج هذه الطبقات — تدريجاً هرمياً من القاعدة إلى القمة ، وبحيث يكون الرأس هو الإله القائم على مملكة أتباع طريقته . . ثم يكون الذين هم دونه إلى القمة ، جنوداً ، يتلقون الوحي من شيخ الطريقة أو رأسها ، بما يأمرهم به ، ويدعوهم إليه ، فيسمعون ويطيعون ، بلا مراجعة أو تردد ، كما يدير المرء آلة من الآلات ، فنتحرك حركتها التي صنعت من أجلها .

وفي كتاب : « قوانين حكم إشرافية » ، لجمال الدين محمد أبي المواهب الشاذلي ، بيان واف لطبقات المتصوفة ، ووظائف كل طبقة ، وهي :

أولاً : صاحب الوقت :

« وهو رحمة لكل العباد <sup>(١)</sup> ، وسحابة ما طرة في سائر البلاد ، وجوده في الوجود ، حياة لروح الوجود الكلية ، وبنفس نفسه يمد الله العوالم العلوية والسفلية . . ذاته مرآة مجردة ، يشهد كل ناظر فيها مقصده ، حضرته صباغة

(١) هكذا على الإطلاق ، فقد وضعت رحمته العباد جميعاً : مؤمنهم وكافرهم .

تصيح كل من أمه فيما توجه إليه وأمه ، ما شهدته فيه ، خلعه عليك . .  
إياك أن تحرم احترام أصحاب الوقت ، فتستوجب الطرد والمقت !! » .

ونقول : وماذا بقي لله تعالى من تصريح ، مع صاحب الوقت هذا ؟  
ولكن ليس بعد الكفر ذنب !!

إن رمة صاحب الوقت ، هذا - ولا ندري من هو ، وإن كان باطل  
الأباطيل - إن رحمته وسعت كل شيء ، كما يقول الله تعالى عن ذاته  
الكريمة : « ورحمتي وسعت كل شيء » ( الأعراف : ١٥٥ ) . . وهو يمد  
بأنفاسه العوالم العلوية ، والسفلية . . أى أنه يمسك الوجود كله ، ولو زال  
لزال الوجود . . فهل بعد هذا الضلال ضلال ؟

ثم يقول هذا الشيطان عن صاحب الزمان :

ثاني : صاحب الزمان :

« موجود بالعين في العيان . . وأصحاب دائرته من الرجال ، متفوقون  
في المدن والأودية والجبال . وهذا الرجل يسمى القرد ، والقطب ، والغوث . .  
وفوقه القطبية الكبرى ، وهي مرتبة قطب الأقطاب !! والإمامان هما اللذان  
عن يمينه وعن شماله !! »

ونقول : إن قطب الأقطاب ، هو في مقابل رب الأرباب عند الصوفية . .  
فصاحب الزمان قطب ، أي رب ، وفوقه قطب الأقطاب ، وهو رب الأرباب  
فهو الله ، والملائكة حافون به حول عرشه . !!

وهكذا يذهب الصوفية بوحدة الوجود، وبالحلول، إلى هذا الضلال البعيد  
في جرأتهم على الله تعالى، وحلولهم فيه، وقيامهم بسلطانه !  
ثم يكشف أبو المواهب الشيطانية، عن درك ثالث من دركات  
الصوفية، فيقول .

ثالثاً : الأوتاد :

« وهم أربعة ، واحد في الشرق ، وآخر في الغرب ، وثالث في الشمال ،  
ورابع في الجنوب » أي أنهم مسمكون بالوجود من جهاته الأربع ،  
ولو زالوا لزال الوجود !! ثم يأتي هذا الخبول ببقية الأعوان الذين  
يتحكمون في الوجود . فيقول :

رابعاً : البدلاء : وهم سبعة !

خامساً : النجباء : وهم أربعون !

سادساً : النقباء : وهم ثلاثمائة !

سابعاً : الأفراد : وهم الخارجون عن قطر القطب !!

ثامناً : الأعراف : وهم أهل الاطلاع على المقامات !!

تاسعاً : خاتم الأولياء : (١)

وهو الذي يحتم الله به دائرة الولاية ، كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم  
دائرة الرسالة ، وقد قرب له ظهور الحركة ، فعليه منا السلام ، والرحمة والبركة !  
ونقول الاسلام منا على مجهول ، قد يكون وهماً ، وقد يكون شيطاناً مريداً .

(١) جاء ذكر خاتم الأولياء آخر هذا الترتيب ، لانه لم يظهر بعد ،  
بل منتظر ظهوره - كما يدعى زور را بهتانا - ولعل هذه دعوة الى ثورة لاقامة  
دولة ، يقوم عليها دعى من أدياء النصوف .

ثم يرد صاحب الكتاب على من يعترض على هذه المدعيات فيقول :  
 « فإن قيل هذا لم يرد به حديث ولا أثر - كما زعم بعض المتفقهة !! -  
 قلنا : كذب فيما جاء به من الإنكار .. بل أتت بذلك أحاديث وآثار ..  
 فمن ذلك ، ما أخرجه السمرقندى ' في كتاب « الأبدال » أن عليا كرم  
 الله وجهه ، سأل رسول الله ص الله عليه وسلم ، عن الأبدال ؛ فقال : هم  
 ستون رجلا !! فقال : يا رسول الله صفهم لى ، فقال : ليسوا بالمتنطهين ،  
 ولا بالمبتدعين ولا بالمتهمين .. لم يغالوا مانالوا بسكرة صلاة ولا صيام  
 ولا صدقة ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة القلب ، والنصيحة لأئمتهم ..  
 لهم ياعلى في أمتي أعز من السكبريت الأحمر !! »

وفي هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم -  
 متناقضات لا يقبلها عقل .. إذ كيف يحدد الرسول عدد الأبدال بستين  
 رجلا ، هكذا على الإطلاق ، دون أن يحدد لهم زمانا أو مكانا ، ودون  
 أن يسكون لهم أثر محدد في حياة المسلمين ؟ إن ذلك يفتح الباب على مصراعيه  
 لمن يدعى أنه من الأبدال ، استهواء للناس ، وإشباعا للأطماع !! وهذا  
 ما فاضت به رسائل إخوان العهد ، وما قامت عليه الدعوة الفاطمية ، وداعيتها  
 ابن القداح اليهودى . ثم كيف يكونون في الأمة الإسلامية أعز من السكبريت  
 الأحمر ، الذى يضرب به المثل في التعبير عن الاستحالة ؟ وإذن فهؤلاء  
 الأبدال في أمة غير الأمة الإسلامية !! وإذن فلتذهب هذه الأمة ، ولتقوم

---

(١) ومن هذا السمرقندى ؟ انه لم يعرف فى رواية الحديث ، ولا فى  
 أهل العلم والفقه ، بل هو دعى من أولئك الأدعياء الذين جاءوا الى المسلمين  
 بالزور والبهتان . لازالة الأمة الإسلامية التى مكن الله لها فى الأرض ،  
 وأزلت دولة الأكاسرة والقيصرة .. وهيهات للباطل أن ينال من بنيسان  
 إقامة الله .

مكاتبها أمة أخرى !! إنها دعوة شيعية، أو شعوبية قارسية، حيث لا ينصح هؤلاء الأبدال إلا لأئمتهم — كما يقول هذا الشيعي أو الشعوبى.. أما النصيح لله ورسوله، وللهؤمنين، فلا يكون منهم، واذن فهم على غير دين الله.. ورسوله صلى الله عليه وسلم يقول: «الدين النصيحة.. الدين النصيحة.. الدين النصيحة.. قيل لمن يارسول الله؟ قال: «لله ورسوله، ولكتابه، ولأئمة المسلمين وعامتهم».. وكفى بهذا لإبطالاً لهذا الافتراء العظيم.

ثم يقول صاحب السكتاب، مستشهداً لما يدعيه من أبدال، ونقباء - يقول:

«وروى عن أبي ذر أنه قال: لما ذهبت النبوة، وكان الأنبياء هم أوتاد الأرض، أخلف الله مكانهم أربعين رجلاً، من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم. لا يموت الرجل منهم، حتى ينشئ الله مكانه آخر يخلفه.. وهم أوتاد الأرض، ثلاثون منهم على قلب إبراهيم، ولم ينضوا إلا ، بكثرة صيام، ولا صدقة ولا صلاة، لكن بحسن الورع، وصدق النية، وسلامة القلوب، والنصيحة للمسلمين ابتغاء مرضاة الله، بصبر وخير، ولب، وحلم، وتواضع في غير مذلة!!»

ثم يجي بادعاء آخر، فيقول:

«وعن الحسن (البصري): «لولا البدلاء لحسف الله بالأرض». والله تعالى يقول: «إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا» (فاطر: ٤١) (١).

(١) من كتاب: قوانين حكم الاشراف - لجمال الدين ابى المواهب الشاذلى - ص ١١٧ - ١١٨.

ونقول : إن هذا إلفك مبين ، وإفراء منضوح ! فوق أنه هبث بكتابات الله ، وتلاعب بآياته .

فكيف يصح الاشتهاد بقوله تعالى : « إن الله يمسك السموات الأرض أن تزولا » على أن الله تعالى يمسك الأرض هؤلاء الأبدال ؟ ومن كان يمسك الأرض قبل خلق آدم ، وظهور هؤلاء الأبدال من ذريته ؟ أم أن هؤلاء الأبدال كانوا قبل أن يخلق الناس ؟ كلام لا يصدر إلا من مخابيل أو محانين ، أو من أولياء شياطين !

ثم كيف يفهم قوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » على أن الأبدال هم الذين يمسكونها ، والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ثم يؤكده ذلك بقوله بعد هذا :

« ولئن زالتا إن أمسكها أحد من بعده » ؟ . أفبعد هذا تبلغ المرأة بضال مخبول أن تقول إن الأبدال هم الذين يمسكون السموات والأرض أن تزولا ، ثم ينسب هذا إلى الحسن البصري ؟ ولكن قيل : « إذا لم تستحي فاصنع ما شئت » .

ويكفي أن نثبت هذا كلمة قاطعة للإمام ابن تيمية — رضى الله عنه — يضرب بها في وجه هذا الباطل ، فيفر من الميدان ، كما يفر الخناش من ضوء النهار ..

يقول رضى الله عنه :

« كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة الأولياء ،



والأبدال والنفباء والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، مثل أربعة ، وسبعة ،  
واثنى عشر ، وأربعين ، أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والقطب  
الواحد — فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم ينطق  
السلف بشيء من هذه الألفاظ <sup>(١)</sup> .

وإذا قال هذا ابن تيمية - رضى الله عنه - فإنما يقول عن علم محقق ، ليقم  
به شهادة بين يدي الله تعالى ، يؤدي بها أمانة النصيح لله ولدين الله ورسول  
الله ، وللمؤمنين بالله .

ونسأل المتصوفة بعد هذا : ما قولهم في هذه المعتقدات التي يعتقدونها  
في صاحب الوقت ، وصاحب الزمان ، والأوتاد ، والهدلاء والعجباء ، والنفباء  
إلى آخر هذه السلسلة الممتدة الحلقات - أهى مما كان على عهد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، وكان من محامل رسالته ؟ ثم هل عرف أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا - وتعاملوا به ؟

والجواب على هذا ، بأن شيئا من ذلك لم يكن على عهد رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ، ولا في زمن صحابته ، وصوان الله عليهم من بعده ،  
ولا التابعين من بعد الصحابة .. وهذه كتب السيرة لهؤلاء الصنفوة الكرام  
ليس فيها مجرد إشارة إلى هذا الضلال !!

وتأسيسا على هذا ، فإن تلك المقولات التي يؤمن بها الصوفية وبقيهم  
وجودهم عليها ، هى بدع حادثة في الإسلام ، دخيلة على دين الله ، يدخل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية - ص : ٨

أتباعها في مضمون الحديث الشريف : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » .

إنه ليس في الإسلام ، ولا من الإسلام ، طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولا لأحد أن يخرج إنساناً من دينه ، ويسلبه إياه ، إذا هو عصاه وخرج عن طاعته ولا أن يغفر له خطايه ، أو ياقبى به في النار ، كما فعل الكنيسة بأتباعها بما بين يدي رؤسائها من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان . . . فليس على المسلم في دينه من سلطان إلا كتاب الله ، وسنة رسوله ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » ( الحشر : ٧ ) .

وقد ورد في الصحيحين ، عن علي رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث سرية ، واستعمل عليها رجلاً من الأنصار . . . فلما خرجوا وجد عليهم في شيء — أي وجد في نفسه ما لا يرضاه منهم — فقال لهم : أليس قد أسركم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن تطيعوني ؟ قالوا : بلى : قال : فاجمعوا حطباً . . . فجمعوا ، ثم دعا بنار فأضرمها ، ثم قال : عذمت عليكم لتدخلنها . . . قال : فهم القوم أن يدخلوها ، فقال لهم شاب : إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فلا تعجلوا ، حتى تلقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فإن أسركم أن تدخلوها فادخلوها ، فرجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة في المعروف .

إن هؤلاء الجماعة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو استجابوا لدعوة من دعاهم إلى أن يلقوا بأنفسهم في النار ، بما له من رئاسة عليهم بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم — لأنهم لو استجابوا له ، وألقوا بأنفسهم

في النار، لا تفتلوا منها إلى نار الآخرة، لا يخرجون منها أبداً، لأنه لا عطا إلا في المعروف، كما قال الرسول الكريم، أما الطاعة في المنكر فهي عصيان لله، ومحادة له، يستوجب فاعلها النار.

فهل المتصوفة الذين يتلقون من شيوخهم تلك الأوامر البدعية الخارجة على الدين — هل هم أحسن حالا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو استجابوا لرئيسهم هذا، وفعلوا ما أمرهم به من هذا المنكر لكان مصيرهم النار؟.

ولا جواب عندنا، وإنما الجواب عند شيوخ المتصوفة وأتباعهم. ! !  
إن هذه المناصب التي رتب بها الصوفية درجتهم، فجعلوا «القطب» هو مركز هذه الدولة، وهو المتصرف في السكون، ثم من ورائه الأمراء والوزراء، والجنود — إن هذه المناصب، قد اتخذ منها المتصوفة مدخلا يدخلون منه إلى عقول العامة وأشباه العامة، وإلى أهواء ذوى المطامع الذين يحترفون النصب والاحتيال، ليأكلوا أموال الناس بالباطل، وليسكون للشيوخ النصيب الأوفر من هذا السحت.

ومن هنا كثرت مدعيات المتصوفة لكرامات أهل الطريق جميعاً، كل حسب وظيفته التي وصل إليها على يد شيوخه . . .  
يقول أحد شيوخ المتصوفة، المسمى «الدباغ» :  
« إن الولي، صاحب التصرف، يمد يده إلى جيب من شاء، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم، وذو الجيب لا يشعر »<sup>(١)</sup>.

---

(١) من كتاب (الابريز) للدباغ — جزء ٢ ص : ١٤

هكذا يحترف المتصوفة السرقة والنشل ، ولا حرج في هذا عندهم ،  
فالذى أخذ المال من الجيوب هو ولى ، ولا حرج عليه في هذا ، لأنه يعطى  
الكثير ، ويأخذ القليل !

ومن هو الولى عند المتصوفة ؟ إنه صاحب العمامة الكبيرة ، والذقن  
الطويلة ، والملابس المرقعة الفضفاضة ، والمسابع المدلاة من الأعناق ، حتى  
تجاوز الركب !! ثم لا بأس مع هذا من لعب سائل ، وشدق مائل ، وألفاظ  
تحمل الفحش ، والخنا . . . فذلك مما يركى ولا يته ، فهو في غيبة عن الخلق !!  
ويقول هذا « الدباغ » أيضا ، فيما للأولياء من تصريف في السكون ،  
وهو لاشك عند نفسه - أنه واحد من هؤلاء الأولياء - يقول :

« كل ما أعطيه سليمان في ملكه ، وما سخر داود ، وما أكرم به  
عيسى - أعطاه الله وزيادة ، لأهل التصرف من أمة محمد ، وممكنهم من  
القدرة على إبراء الأكمه والأرصر وإحياء الموتى »<sup>(١)</sup> .

فيا أيها المسلمون ، ويا أيها العقلاء من أبناء آدم - أهذا مما يحتمله  
عقل ؟ أهذا مما يشهد به واقع ؟ ثم أيترك مثل هذا الكفر الصراح محمولا  
على الإسلام ، ثم يسكون للإسلام وجه في هذه الحياة ؟ .

إن الجهاد مافرض على المسلمين إلا لحماية هذا الدين من كيد أعداء  
الله وأعداء دينه ، من الكفار والمشركين ، والملحدين . . . وهل جهاد أبر

(١) من كتاب ( الابريز ) للدباغ - جزء ٢ ص : ١٢

وأوجب من محاربة هذه الجرائم الحملة بالأوبئة ، تساق إلى دين الله ، وإلى المدينين بهذا الدين ، ونفقتهم فيه ؟ والله تعالى يقول : « والفتنة أشد من القتل » ( البقرة : ١٩١ ) .. ويقول سبحانه : « إن الذين فتنوا المؤمنين - المؤمنات ثم لم يقربوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » ( البرج : ١٠ ) ..

إن مثل هذه المقولات ، التي تخرج من تلك الأفواه الشيطانية ، يجب أن يلقاها المسلم منكرها ، بكل وجوه الإنكار : باليد ، واللسان ، والقلب جميعا : ولا يجوز لمسلم أن يكتفى بواحدة منها .. فإنه في وجه خطر داهم . وبلاء عظيم . ووباء لا يبقى على شيء من الناس ، أو دين !!

إن الشعوذة ما انتشرت بين عوام المسلمين ، إلا من هذه المذعنات الباطلة . التي فتحت أبواب النصب والاحتيال باسم الدين ، لأولئك الأفاقين الذين يدعون باسم الدين شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات . وفتح أبواب الرزق . وذلك بإطلاق البخور . وقراءة التعاويذ الشيطانية من مشعوذ أرخى شعره ، وأطال ذقنه ، ولبس المرقعات التي تشبه قوس قزح . فتداعى إليه العامة ، يلتمسون بركاته ، ويطلبون منه ما يطلب المؤمنون بالله من الله تعالى - نقول : إن الشعوذة ما انتشرت في آفاق المسلمين إلا من المتصوف ، ومذعنات المتصوفة ، حيث وقع كثير من المسلمين فريسة لهذه الفتن ، فعبدوا الأحياء من المشعوذين ، كما عبدوا أصحاب الأضرحة والقباب من الأموات !! .

— ١٧٢ —

فهل من مجاهدين في سبيل الله ، لإزاحة هذه الغواشي التي غشيت  
وجه الإسلام ، وألبست كثيراً من المسلمين لباس الشرك . فكانوا حرباً  
على الإسلام . وهم محتمون بالإسلام ، ويستظلون بظله ؟ .

ألا إن الأمر جد ليس بالهزل : « ولينصرن الله إيمان ينصره ،  
إن الله أقوى عزيز » .

\* \* \*

## الفصل الثالث

### خرافة القطب وأعوانه

القطب عند المتصوفة ، هو إلههم المعبود ، وهو الذى يستمدون منه ما يوجد به عليهم من أفضال جوده وكرمه ، فيسبحون بحمده ، ويلوذون بحماه ، كما يسبح المؤمنون إلههم ربهم ، ويلوذون بحماه !

يقول : المرحوم عبد الرحمن الوكيل — فاضحا هذه الخرافة التى يستمد منها المتصوفة وجودهم ، ويتخذون منها زادهم ، وسراهم — يقول :

« أسطورة خرافية تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية ، وخلقهما على وهم باطل ، سبى في الفلسفة « العقل الأول » وفي المسيحية « الكلمة » وفي الصوفية « القطب » . !

« والقطب — عند الصوفية — هو أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله في الأرض ، في كل زمان . عليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى في السكون ، وفي أعيانه الباطنة والظاهرة ، سريان الروح في الجسد ، وينفيس روح الحياة على السكون الأعلى والأسفل ، وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف إليه » .

ثم يقول :

« والقطب عند الصوفية نوعان : أحدهما حادث ، وأوحيى ، وهو

ماسبق الحديث عنه<sup>(١)</sup> ، والآخر قديم ، أو معنوى ، وهو « الحقيقة الحمدية » .

« يقول الفاشى : »

« وهو — أ ، القطب — ، إما بالنسبة إلى ما فى عالم الغيب والشهادة ، من المخلوقات ، يستخلف بدلا منه عند موته أقرب الأبدال منه . أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة ، ولا يستخلف عنه بدل من الأبدال ، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق ، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة ، لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، وهو الروح المصطفوى المخاطب من الله : لولاك لما خلقت الكون » .

أى أن هذا القطب الذى لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، هو الله تعالى الذى وصف ذاته السكريمة بقوله تعالى : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن » ، وهو بكل شىء عليم » ( الحديد ٣٠ ) - فإذا كان هذا القطب هو الله ، فأين الله ؟ وإذا كان هذا القطب إلها مع الله ، فهل يجمع آلهم ؟ والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا » ( الأنبياء : ٢٢ ) ؟ فإذا يقول المتصوفة فى هذا ولا تنتظر منهم جـ ابا ١١

ويقول أحمد التيجانى ، شيخ الطريقة التيجانية ، فى كتابه ، جواهر المعانى : ص ٨١ .

« إن حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى من الحق ، مطلقا فى جميع

(١) أى ما اشار إليه فى الاسطر السابقة .



الوجود، جملة وتفصيلا، حيثما كان الرب إلها، كان القطب خليفة في تصريف الحكم وتنفيذه، في كل من له عليه ألوهية الله تعالى، فلا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان من الحق؛ إلا بحكم القطب، ثم بقيامه في الوجود بروحانيته، في كل ذرة من ذرات الوجود.. فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها، وإنما هو الروح القائم فيها، جملة وتفصيلا.. به يرحم الوجود، وبه يبقى الوجود، وفي بقاء الوجود رحمة بكل المبادي.. وجوده في الوجود، حياة الروح الوجود السكينة، وبنفس نفسه يمد الله به الموجودات العلوية والسفلية، ذاته سرآة محلوة يشهد فيها كل قاصد مقصده !!

ثم يقول القبيجاني :

« وما أكرم الله به قطب الأقطاب أن يعلمه علم ما قبل وجود الكون، وما وراءه وما لانهية له . وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وأن يخصه بأسرار دائرة الإحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليه !! »

ونسأل : ماذا بقي لله تعالى من تصريف ؟ أليس القطب هو المتصرف في جميع الوجود خلقا وأمرأ ؟ أليس القطب هو الروح القائم في الوجود جملة وتفصيلا ؟ أليس القطب هو الذي لا يصل إلى الخلق شيء كائنا ما كان إلا بحكم القطب هذا

وقد كان يمكن أن يكون لهذا الإفك أن يقبل عند بعض الناس لو أن هذا القطب لا ت، ولكن الصوفية يقولون إنه يموت ؛ وإذا

مات قام بالقطعية أقرب البدلاء إليه . . فكيف يموت من تعتمد منه  
الموجودات وجودها ؟ أليس هو الروح السارى فى كل الموجودات عليها  
وسفليها ؟

— هذا كلام له خبىء

معناه ليس لنا عقول

ولا يفيد فى هذا المقام ما يدعيه الصوفية ، من أن المراد بالقطب ؛ هو  
قطب الأقطاب ؛ الذى هو عندهم رب الأرباب . فإنه لارب إلا الله تعالى ؛  
رب العالمين ،

### الأولياء وخاتم الأولياء :

ولا يسكتفى الصوفية بأن يستولوا من عقولهم الريضة ؛ وأهوائهم  
الفاسدة ، هذا المولود الشيطانى الذى أطلقوا عليه اسم « القطب » والذى  
أقاموه إلها مع الله ، يمسك الوجود ويبعث الحياة فى كل إلهى - لم يسكتف  
المتصوفة بهذا ؛ بل استخرجوا من أوهامهم إلهام أسموه « خاتم الأولياء » أى  
أنه يسكون مقابل خاتم الأنبياء بالإضافة إلى النبيين . . وأنه مادام للأنبياء  
خاتم ؛ فلم لا يكون للأولياء خاتم ؟ وهل الأنبياء أفضل من الأولياء ؟ كلا  
فإن الولي هند الصوفية أفضل من النبي

يقول ابن عربى — الشيخ الأكبر عند الصوفية — فى الولي ؛ وماله  
من منزلة لا يبلغها النبي :

« ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن<sup>(١)</sup> ؛ وقد كمل غير موضع لبنة ، فكان صلى الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> تلك اللبنة ، غير أن صلى الله عليه وسلم لا يراها — كما قال — إلا لبنة واحدة . وأما خاتم الأولياء ، فلا بد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثله به رسول الله ، ويرى في الحائط موضع لبنتين ، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في تلك اللبنتين ، فيكمل الحائط !! فإنه يرى الأمر على ما هو عليه ، فإنه آخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول ، ٤١ »

أى أن الولي ؛ لا يأخذ دينه عن النبي متابعة له ، ولكنه يأخذ دينه من الله تعالى مباشرة دون وساطة جبريل ، إنه « يأخذ من المعدن الذي أخذ الملك » كما يقول ابن عربي ، متخرسا أفاكا .

ثم يقول ابن عربي في فصوصه : وفيها — أى في الأولياء ، ومنهم بالطبع ابن عربي — من يأخذ — أى العلم — عن الله ، فيكون خليفة من الله بعين ذلك الحكم .

والولاية التي يدعيها ابن عربي لنفسه ولغيره من شيوخ المتصوفة دعوى باطلة لا تقوم على أساس من دين أو عقل . .

---

(١) يشير بهذا إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى دارا ، فأكملها وأحسنها ، إلا موضع لبنة ، فنجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، جئت ، فختمت الأنبياء » (رواه البخاري) .

(٢) ذكر النبي مقرونا بالصلاة عليه في كتابات ابن عربي ، هو زيادة في المكر والخداع والتضليل .

فأولياء الله هم المتقون من عباده المؤمنين، فكل مؤمن يتقى الله، باجتناب محارمه، وامتنال أوامره، هو من أولياء الله، كما يقول الحق سبحانه : « والله ولي المؤمنين » ( آل عمران : ٦٨ ) . . ويقول تعالى : « وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض ، والله ولي المتقين » ( الجاثية : ١٦ ) . . ويقول جل شأنه : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » ( يونس : ٦٢ ) . . فالإيمان بالله ، ثم القيام بما يدعو إليه الإيمان ، من امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، هما المرقى الذى يرقى به المؤمن إلى منزلة الولاية لله ، وهى منزلة الرضا ، والقرب من الله ، دون أن يكون لهذا الولى دعوى يدعيها بأنه يملك من الله شيئا ، بل إنه يكون أعبد العبيد لله . ولمسلام وجهه لله رب العالمين . .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« وليس لأولياء الله شيء يميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحة . فلا يميزون بلباس دون لباس . إذا كان كلاهما مباحا . ولا يخلق شعره أو تصديره أو ضفره إذا كان مباحا . كما قيل : « كم من صديق فى قباء ، وكم من زنديق فى عباء »<sup>(١)</sup> . . بل الأولياء يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم . إذا لم يسكنوا من أهل البدع الظاهرة والفجور . . فيوجدون فى أهل القرآن . وأهل العلم . ويوجدون فى أهل الجهاد والسيوف . ويوجدون فى التجار والزراع والصناع ، وقد ذكر الله تعالى أصناف أمة

---

(١) القباء : الثوب المرقع ، والعباء : ما يلبس فوق الثوب .

محمد صلى الله عليه وسلم . فى قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيسكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه ( المزمل : ٢٠ ) وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنسك » (١) .

ثم يكشف ابن تيمية -- رضى الله عنه -- عن تلبس إبليس على هؤلاء الذين يتزبون بزى التصوف ، وهم يحسبون أنهم بهذا قد أصبحوا من أولياء الله ، وقد كشف عنهم الحجاب فاطلعوا على الغيب ، وسخر لهم السكون !! يقول رضى الله عنه :

« ومن هؤلاء - أى المتصوفة - من إذا حضر سماع المسكاه والتصدية (٢) ينزل عليه شيطانه ، حتى يحمله فى الهواء ، ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى ذلك لغير واحد .

« ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق ، إما حى أو ميت ، سواء كان ذلك الحى مسلما ، أو نصرانيا أو مشركا ، فيتمصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ، ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث ، فيظن أنه هو ذلك

---

(١) الفرقان ، بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، لابن تيمية -

ض : ٢٣

(٢) المكاة الصغير ، والتصدية : التصفيق .

الشخص ، أو هو ملك على صورته ، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله .  
كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتسكلم المشركين .

« ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الخضر ، وربما أخبر ببعض الأمور ، وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى . . ومنهم من يرى عرشاً في الهواء ، فوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ، ويقول : أنا ربك . . ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق ، أو شيخ من الصالحين . »

ثم يقول ابن تيمية — رضى الله عنه — بعد أن فصح كثيراً من هذه الأحوال الشيطانية :

« وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ، وهم : أى الخارجون على الكتاب — درجات . . والجن الذين يقترون بهم من جنسهم ، وهم على مذاهبهم . . والجن فيهم الكافر والفاسق والخطيء . . فان كان الإنسان كافراً ، أو فاسقاً ، أو جاهلاً ؛ دخلوا معه في الكفر ، والفسوق والضلال ؛ وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يحتارونه من الكفر . مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونهم من الجن وغيرهم ؛ ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلام الله بالنجاسة ؛ أو يقلب قاتمة الكتاب أو الإخلاص ؛ أو آية الكرسي أو غيرهن ؛ ويكتبهن بالنجاسة . (١) »

ونسأل المقصوفة ؛ ماذا يقولون في قول الرسول الكريم : وخير الناس

(١) الفرقان ، بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية — ص : ٧٣ .

تقرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يحيى أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته<sup>(١)</sup>، أصدق المتصوفة أن خير القرون هو القرن الذى بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن مسامى هذا القرن - وهم صحابة الرسول الكريم - هم خير الناس، وأن من يحيى بعدهم أنزل درجة منهم - وإذن فكيف مع هذا يحيى فى زمن المتصوفة، القطب، والأقطاب، والغوث، والأبدال، والنقباء، وغيرهم ممن يشاركون الله تعالى فى الخلق والأمر؟ إن أحداً من الصحابة لم يطر فى الهواء؛ وإن أحداً من الصحابة ما كان يرى فى أكثر من مكان... وإن أحداً من الصحابة لم يقل لشيء كن فيكون.. وهذا كله مما يذيعه الصوفية عن أنفسهم وعن شيوخهم الأحياء والأموات، فإن كان الصوفية يصدقون قول رسول الله هذا، فلماذا كانت منهم هذه المفتريات التى يفترونها عن الأقطاب والأبدال؟ إنه لا موضع لهذه المفتريات إلا التكذيب لرسول الله، والافتراء على الله.

بقول ابن تيمية - رضى الله عنه - :

« وأفضل أولياء الله تعالى، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول، واتباعاً له - كالصحابه الذين هم أكمل الأمة فى معرفة دين الله.. وأبو بكر الصديق، أكمل معرفة بما جاء به الرسول، وعملاً به، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد خير الأمم، وأفضلها أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - وأفضلهم أبو بكر، رضى الله عنه »<sup>(٢)</sup>

(١) رواه البخارى ومسلم، عن ابن مسعود .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن، وأولياء الشيطان، لابن تيمية

﴿فما يدعوه الصوفية من الأقطاب ، والأبدال ، والأولياء ، وما ينسبون  
إليهم من خوارق العادات﴾ ، هو تمويه على العامة ، وشراك ينصبونها  
لإيقاع الناس تحت سلطانهم ، وليستبيحوا حرمانهم من أموال وأعراض .  
فن كانت له أذنان فليسمع !! « وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها  
إلا ذو الحظ العظيم » صدق الله العظيم .

\* \* \*



## الفصل الرابع

### من إلحاد الصوفية وكفرهم

لصوفية جرأة عجيبة في إلباس الحق بالباطل ، وفي القول عن الليل إنه نهار ، والكفر بأنه إيمان .. وما ذلك إلا لأن المتكلم بهذا صوفي ، وللصوفي أن يقول ، وعلى الناس أن يأخذوا بما يقول ، لأنه يتحدث من عالم الغيب ، الذى لا سبيل لعلماء الرسوم

وهذا هو التلبس الخبيث ، والكيد العظيم ، الذى تقدس به الصوفية إلى قلوب العامة والدهماء ، الذين يندعون بتلك الحيل الشيطانية ، كما يندفع الصغار بأعمال الحواة .

إن اللغة ضوابط تحددها ، وإن أى خروج عن هذه الضوابط هو ، مما يفسد اللغة ، ويفسد على الناس التعامل بها .

ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن أرسل رسله ، يبلغون رسالته إلى أقوامهم بلسان كل قوم .. وفي هذا يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ، المبين لهم » ( إبراهيم : ٤ ) .

وقد جاءت الرسالة الإسلامية الخاتمة العامة للناس جميعاً ، باللسان العربى المبين ، فكان خطاب الله تعالى لقوم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بلسانهم ، حتى يتم إبلاغهم ، وتقوم الحجبة عليهم .

وكان رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يتحدث إلى قومه

يلسانهم العربى ، فلم يكن فى كلامه صلى الله عليه وسلم ما يخرج عن مفهوم اللسان العربى ، فى مفرداته ، وعباراته .

فالقرآن والسنة يخاطبان الناس بلغة متعارف عليها بينهم ، ليس فيها كلمة خارجة على قانون اللسان العربى ، لسان الرسول ، وقوم الرسول . . يقول الله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتسكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » ( الشعراء : ١٩٥ ) . . ويقول سبحانه : « إنا أنزلناه قرآنًا عربياً لعلكم تعقلون » . . ( يوسف : ٢ ) .

وبهذا اللسان ، وبذلك اللغة تحدى القرآن العرب ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، كما يقول تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » ( البقرة : ٢٣ ٢٤ ) .

ولو كان فى القرآن الكريم كلمات أو تراكيب ، خارجة عن مفهوم العرب ، دخيلة على لسانهم ، لما كان للقرآن حجة عليهم إذا هم عجزوا عن تحديه ، قائلين : إن هذا القرآن يتحدث إلينا بلغة غير لغتنا ، فليتوجه القرآن بهذا التحدى إلى غيرنا ، ممن يتكلمون بهذه اللغة . إنه يخاطبنا بما لا نفهم ، ويتحدث إلينا بلسان غير لساننا !!

وإذن فهذه اللغة التى تجرى على ألسنة المتصوفة ، فى صبحهم أو سكرهم ، وفى خطراتهم أو وساوسهم ، مما هو مريح فى السكبر — لا يمكن أن

يحمل على غير محامله ، ولا أن يقبل له تأويل يخرج به عن محتوى منطوقه وما يحمل هذا المنطوق من صريح المعنى الذى تواضع عليه أهل اللسان العربى .

فالذى يقول : «أنا الله» أو «ما فى الجنة إلا الله» هو كافر ملحد بالله ، فإن كان مسلماً عد مرتدّاً عن الإسلام ، وأخذ بما يؤخذ به المرتدون ، كما فعل بالحلاج . الذى كان يصرح بمثل هذه العبارات التى يفيض بها قاموس أهل الوحدة ، والحلول . . لأن التصريح بمثل هذه الكلمات الإلحادية ، يشيع الفتنة فى الناس ، ويثير البلبلة فى عقيدتهم . . ومن كلمات المسيح عليه السلام : « من فك أدينك » أى أوأخذك بما يفتق به لسانك ، بما يفهمه عامة الناس من هذا الذى تنطق به .

وهذا التلمسالى ، المعداد من أعلام الصوفية ، وقطب من أقطابها ، يقول فى صراحة صريحة :

« القرآن كله شرك ، والتوحيد فى كلامنا »<sup>(١)</sup> .

فهل لهذا الكلام الآثم ، من محمل يحمل عليه ، غير ما تنطق به ألفاظه ؟ ثم هل يسكون لقائله مكان فى المسلمين ، المؤمنين بالله ، وبكتاب الله ؟ والله تعالى يقول : « ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير » أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ( الحج : ٣٩ ) . . وهل كان القرآن إلا حرباً على الشرك والمشركين ؟ ألم يقل الله تعالى فى هذا القرآن : « فإذا

(١) من كتاب مجموعة الرسائل والمسائل ، لابن تيمية - جزء ١ - ص

انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم  
واقعدوا لهم كل مرصد » ( التوبة : ٦ ) ؟ .

فكيف يكون القرآن كله شرك ؟ وعلى أى محمل يمكن أن يحمل  
هذا الكفر الصراح ؟ إن من يقول هذا ، هو مكذب لله ، ورسوله ، كافر  
بالله ورسوله ..

وأكبر من هذا كفراً ، وأعظم ضلالاً ما يقوله التلمساني ، وقد مر على  
كلب أجرب ، فقال له رايته ، وهو يناقشه في قوله بوحدة الوجود : أهذا  
- مشيراً إلى ذلك الكلب - هو ذات الله أيضاً ؟ فقال هذا الملعون : نعم .  
الجميع ذاته ، فما من شيء خارج عنها <sup>(١)</sup> !! !

أما ابن عربي ، وأما تلميذه ابن الفارض ، وغيره ممن كان غذاؤه من  
« فصوص الحکم » لابن عربي ، فإن القول بالحلول ووحدة الوجود ، يجرى  
في صراحة ، بل ووقاحة ، مجردة من كل حياء .. حيث يكون كل شيء  
في هذا الوجود إلهاً قائماً بنفسه لا فرق بين إله وإله ، من تلك الآلهة التي تتعطل  
في الحجر ، وفي الشجر ، وفي الحيوان !! !

وهذا من شأنه ألا يقوم معه دين ، ولا تصح معه عبادة ، لأن العابد  
هو المعبود !! !

يقول المستشرق « نيسكلون » فاضحاً ما يترتب على القول بوحدة  
الوجود ، من طمس معالم الأشياء ، وذوبها في بحر لاحدوده - يقول هذا  
المستشرق :

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية في ص : ١٤٥ .

« إن الإسلام يفقد معناه ، ويصبح اسماً على غير مسمى ، لو أن عقيدة التوحيد المعبر عنها بـ « لا إله إلا الله » أصبح المراد بها : لا موجود على الحقيقة إلا الله . . وواضح أن الاعتراف بوحدة الوجود في صورتها المجردة ، هي قضاء تام على معالم الدين المنزل ، ومحو لهذه المعالم محواً كاملاً »<sup>(١)</sup> .

ونقول : إن القول بوحدة الوجود ، في مفهوم الصوفية هذا ، فضلاء عن إفسادها لأي معتقد ديني صحيح ، هي في الوقت نفسه ، إفساد لسكل نظام إنساني ، حيث لا يفرق الإنسان حينئذ بين الأشياء ، إذ كلها شيء واحد ، فإذا جاع من يقول بوحدة الوجود مد يده إلى حجر ، أو رمل ، أو تراب !! وإذا عطش ، فتح فمه للهواء ، أو وضع فمه على حائط ، أو غمسه في مجرى من مجارى البول أو الغائط .. فالسكل طعام ، والسكل شراب !!

وندع هذا ، لنقف وقفة مع مؤلفات بعض المتصوفة ، وما تنضح به من كفر وإلحاد ، وزندقة ، وفجور

[ فصوص الحكم : لابن عربي ]

ولنبداً بكتاب « فصوص الحكم » لابن عربي ، إذ هو دين الصوفية وقرآنها الذي تقميد به !! فإذا في فصوص الحكم هذا ؟ .

ولا يتسع المقام لنقل ما في هذا الكتاب من كفر وإلحاد ، إذ الكتاب كله كفر وإلحاد ، وزندقة ، وإن كانت تندس فيه بعض العبارات ، هنا وهناك ، مما يمكن حماها على محمل حسن ، وهذا من الكيد العظيم لابن عربي ، حيث يخاطب الحق بالباطل ، ليخدع بذلك الأغرار والبهلاء !

(١) في التصوف الاسلامي ، إنكسبون ترجمة الدكتور : أبو العلا

ويسكنى أن نشير إلى ما جاء في مقدمة هذا الكتاب.. وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، فإن هذه المقدمة تنبئ في صراحة عما يمكن أن يحمل هذا الكتاب ، من فسوق وفجور ، ومن بهتان وزور .

أقول ابن عربى ، في مقدمة كتابه : « فصوص الحكيم » :

« أما بعد ، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة - أى بشرى - أريتها في العشر الآخر من محرم ، سنة سبع وعشرين وثمانية ، بمحروسة دمشق ، ويده كتاب فقال لى : هذا كتاب فصوص الحكيم : خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون فقلت : السمع والطاعة لله وارسوله ، ولأولى الأمر معا ، كما أمرنا ، فحقت الأمنية ، وأخلصت النية ، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب . كما حده - أى بينه - لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غير زيادة ولا نقصان : فمن الله فاسمعوا ، وإلى الله فارجعوا (١) » ١١

فهذا القول المفترى من ابن عربى على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هو فضيحة كبرى لشيخ الصوفية ، وخزى دامغ له ، عند الله ، وعند كل ذمه عقل .

فالرسول - عليه الصلاة والسلام - قد بلغ ما أنزل إليه من ربه . كما يقول الله تعالى : « يأيتها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » ( المائدة : ٧٠ ) . وقد أكل الله دينه بنزول آخر آية من كتاب الله . إذ يقول الحق سبحانه : « اليوم أكملت

(١) فصوص الحكيم ، لابن عربى ، ص : ٤

لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ( المائدة : ٣ ) ويقول - صلوات الله وسلامه عليه : « تركتكم على المنجى البيضاء ، ليها كنارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك » (١) ويقول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي » (٢) .

فكيف يصبح مع هذا أن يحيى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في القرن السابع الهجري إلى ابن عربي ، ويملي عليه في المنام « فصوص الحكم » ويدعوه إلى تبليغه للناس ليعملوا به ؟ .

إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أمرين : من أشنع الأمور ، إن كان لهما مدخل إلى الصدق ، فقد بطل ما يدعي به المسلمون من دين الله :

أولها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخل مكانه من هذه الدنيا لم يكن قد بلغ كل ما أمره الله تعالى به ، ثم بدا له بعد ذلك أن يستأنف رسالته ، ليبلغ ما لم يكن قد بلغه . . وهذا طعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ينسحب على رسالته كلها ، وينقضها من أساسها .

وثانيهما : أن الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم إلى أن ظهر ابن عربي ، لم يكتفوا على الدين الكامل ، وإن ما كانوا يعرفونه من دين الله ، ليس هو كل دين الله . . وهذا طعن في دين الله أولاً ، وطعن في رسوله ثانياً ، وطعن في دين الأمة الإسلامية كلها ثالثاً .

(١) أورده النووي ، في الأربعين \*

(٢) رواه أصحاب السنن \*

فماذا يقول المسلمون في فصوص ابن عربي هذه التي تخرجهم من دين الله، إلا إذا تركوا القرآن، وأقاموا « فصوص الحكم » مقامه، وعددها ناسخاً لكتاب الله؟ وماذا يقولون فيمن يصدق بشيء منها؟ بل ماذا يقولون فيمن يتعبدون بها، ويقيمون دينهم عليها؟ أليكون هؤلاء المتدينون بدين ابن عربي مسلمين، داخلين في الأمة الإسلامية؟

والجواب على هذا هو ما يجب أن يجيب به المسلمون: « ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة » ( الأنفال : ٤٣ ) ، وهو جواب واحد، هو أن يحرقوا كتب ابن عربي كلها، وأولها كتابه « فصوص الحكم » وأن ينظفوا المكاتب العربية من هذا الرجس، الذي دونه فسقاً وفجوراً كتاب « رجوع الشيخ » الذي لفظ من المكتبات العربية لأول يوم ظهر فيه .

### الافتراء على الله في تأويل القرآن :

ولسكى يقيم الصوفية لدينهم صلة بالإسلام، عمدوا إلى كتاب الله، يستشهدون بآياته، على مقولاتهم الفاسدة<sup>١</sup>، ومدعياتهم الباطلة... ثم يعمدون إلى تلك الآيات فيقالونها على معتقداتهم الضالة، حسب ما توحى لهم أهواؤهم، وما تمليه عليهم شياطينهم!!

والقرآن عند الصوفية، هو شرك كله، كما يقول أحد شيوخهم، وهو القلمساني : « — القرآن كله شرك، وإنما التوحيد في كلامنا »<sup>(١)</sup>.

ومعنى هذا، أن ظاهر القرآن كله شرك، ولا يرفع عن القرآن صفة

---

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية .



الشرك ، إلا إذا أول تأويلاً باطنياً ، بعيداً عن هذا الظاهر ، وذلك هو الذى عمل من أجله المتصوفة !

وما فصوص الحكم : التى ابتدعها ابن عربى ، ونسبها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، كذباً وافتراء على رسول الله - إلا من واردات هذا القول الإلحادى الذى يقول به المتصوفة من أن القرآن كله شرك !!

فها هو ذا ابن عربى ، يتلقى - كما زعم زوراً وبهتاناً - من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذه الفصوص ، التى هى عنده تأويل لكتاب الله ، واستخراج الحق من باطنه ، الذى كسى ظاهره بالشرك !!

وها هو ذا ابن عربى ، حين يريد أن يقيم لوحدة الوجود سنداً من القرآن الكريم ، يأتى بقوله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » (سورة فاطر : ١٥) .

والآية صريحة المعنى ، ناطقة بالدلالة ، بأن الناس جميعاً مفتقرون إلى الله تعالى افتقاراً مطلقاً ، فى خلقهم وفى رزقهم ، وفى كل نفس يتنفسونه فى هذه الحياة ، وأن الله تعالى غنى غنى مطلقاً عن الناس ، وعن العالمين ، لأنه تعالى هو خالق الخلق وموجده . ومنعم عليهم بهذا الوجود ، فكيف يصح أن يعود محتاجاً إلى ما صدر عنه ؟؟

ولكن ابن عربى ، يستملى الكفر والإلحاد من شيطانه ، الذى أُملى عليه « فصوص الحكم » فيقول فى تأويل الآية الكريمة : « فوجودنا وجوده ، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا ، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره

لنفسه .. فأنت غذاؤه بالأحكام ، وهو غذاؤك بالوجود ، فتعبد عليه ماتعبد  
عليك ، والأمر منه إليك ، ومنك إليه ، غير أنك تسمى مكلفاً ، وما كافك  
إلا بما نظرت له : كافني بحالك ، وبما أنت عليه ، ولا يسمى مكلفاً .

فيحمدني وأحمده ويعبدني وأعبده<sup>(١)</sup>

فالكل عند ابن عربي معبود ، والكل عابد ، والكل عبد ، والكل  
رب .. «فوجودنا وجوده» ومعنى هذا أنه لولا وجودنا ما كان لله وجود  
فهل بعد هذا كفر ؟ ومن أين يستمد ابن عربي هذا الضلال ؟ إنه يجعله  
على كتاب الله ، بتأويله هذا التأويل الإبليسى لآية من آيات الله ، ناطقة  
بالتوحيد ، منزلة للخلق من الخلق من الخلق سبحانه ، منزلة للملك  
المطلق ، الذي يفعل ما يشاء فيما ملك : « والله يحكم لا معقب لحكمه » .  
(الرعد : ٤١) .

ويزيد ابن عربي ، هذا الضلال ضلالاً ، فيقول في فصوصه :

« فما يحد شيء — أى يعرف — إلا وهو وحد الحق ، فهو — أى الله —  
السارى فى معنى الخلوقات ، والمبدعات ، فهو الشاهد من الشاهد ،  
والمشهود من المشهود .. فالعالم ضرورته ، وهو روح العالم ، المدبر له ، وهو  
الإنسان الكبير »<sup>(٢)</sup> .

هذا بعض ما يقوله ابن عربي ، فى معنى الآية السكرية : « يأيها الناس  
أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » .

(١) فصوص الحكم ، لابن عربي ( جزء : ١ ص : ٨٣ ) طبعة الحلبي

فانظر كيف يتمجج على كتف الله هذا التهمجج العريبيد؟ والله تعالى يقول :  
« أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقة ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق  
كل شيء ، وهو الواحد القهار » ( الرعد : ١٦ ) .

وانظر في هذا الكتاب : « هذه هي الصوفية » للروحوم الأسعاذ  
عبد الرحمن الوكيل ، الذي فصح فيه الصوفية ، وكشف عن وجوه ضلالها  
من أقوالهم ، كما يقول المسيح عليه السلام : « من فك أدينك » فغفر الله  
له . وأجزل له المثوبة والرضوان .



## الفصل الخامس

### الكفر هو الإيمان عند الصوفية

وقد كان لوحدة الوجود التي يدين بها المتصوفة مدخلا يدخلون به من سراديبها إلى عقول كثير من الناس ، حيث يصورون لهم الكفر إيماناً ، والضلال هدى ، والنار جنة !!

وابن عربي - من غير شك - هو زعيم هذه العصابة الضالة ، وكاشف الغطاء عن هذا الضلال المبين ، الذي كانت الصوفية تتمتع به ، ولا تبهر ، وتورى به ولا تصرح ، حتى إذا جاء شيوخهم الأكبر هذا فلم يمججهم بما في قلبه من كفر ، بل صرح به ، وأخرج كتباً فيه !! يقول ابن عربي :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه<sup>(١)</sup> فهو مؤمن ، وكافر ، وملاحد ، ومشرک ، وعابد الإله ، وعابد الوثن ، وعابد الكلب والخنزير !!

وفي فصوص الحکم يقول ابن عربي .

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الرب إلا راهب في كنيسة ويقول ، متألياً على الله تعالى أنه ينجز وعده ، ولا ينجز وعيده . . فهناك الجنة ولا نار ، وهناك النعيم ، ولا عذاب !! يقول ابن عربي في فصوصه :

---

(١) فصوص الحکم ، لابن عربي ص ١١١

فلم يبق إلا صادق الوعد وعده وما لوعيد الحق عين تعين  
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم على لذة فيها نعيم مبين  
نعيم جنات الخلد، فالأمر واحد وبينهما عند التجلي تباين  
يسمى عذاباً من هذوبة طعمه وذلك له كالتشر والتشر صائناً<sup>(١)</sup>

وهكذا يسوى ابن عربى بين المتناقضين : الجنة والنار ، النعيم والعذاب ،  
فالعذاب من العذوبة عند ابن عربى ، وأهل النار فى نعيم كنعم أهل الجنة  
فلم العمل إذن ؟ ولم العبادات والطاعات ؟ ولم كانت رسالة الرسل ، وإنزال  
الكتب ؟ ولكن ابن عربى إذ كان مبعوثاً من الشيطان لإضلال ابن آدم  
فقد دعا الناس إلى عصيان الله تعالى جهاراً ، ووعدهم بجنة فى نار جهنم !!  
فإذا كان ذلك الموضع هو واقع يوم القيامة ، وما ينزل أهل الإيمان  
فيها من منازل النعيم والرضوان ، وما ينزل أهل الكفر والإلحاد من منازل  
النعيم والرضوان - فلم كانت بعثة الرسل ؟ ولم اختلقت الأسماء : إيمان ،  
وكفر ، وحنه وفار ، وأشقياء وسعداء ؟ .

إن هذا الخلط بين الإيمان والكفر ، والتسوية بين النعيم والجحيم ،  
ينزل صفة الحكمة عن الله تعالى ، ولا يقول بهذا إلا كافر ملحد ، لأجنة له  
إلا هذه النار التى يستعذب عذابها ! .

ثم نسأل ابن عربى : ماذا يقول فى قوله تعالى فى كتابه الكريم ، عن  
أحوال أهل النار ، وما يساق إليهم فيها من ألوان العذاب الذى يود  
المعذب به لو يفتدى منه نفسه وبنيته ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته  
التي تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ؟ يقول الله تعالى : « يود المجرم لو يفتدى

(١) شرح فصوص الحكم ، لابن عربى ( الغصن اليهودى ) .

من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبه وأخيه وفصياقه التي تؤويه ، ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه » (المعارج : ١١ - ١٤) . .

ويقول سبحانه عن المجرم ، وهو يساق إلى النار : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاساكنوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولا طعام إلا من غسيل ، لا يأكله إلا الخاطئون » (الحاقة : ١٩-٢٧) فهل يجد ابن عربى عذوبة لهذا العذاب ، وهو يغل بسلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً ، ثم يلقى به في الجحيم ، ثم يسقى من هذا الغسيل ؟ .

وهل يلذ لابن عربى أن يتعاطى كؤوس هذا الشراب الذي يسقى به الظالمون الذين يقول الله تعالى فيهم : « إنا اعتمادنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتققا » (سورة الكهف : ٢٩) ؟ .

وهل يشاقق ابن عربى إلى أن يكون من أهل جهنم التي يقول الله تعالى فيها : « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآباً ، لا يثنى فيها أحقاباً ، لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً إلا حميماً وغساقاً ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حساباً ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شيء أحصيناه كتاباً ، فذوقوا فإن يزيدكم إلا عذاباً » (سورة النجم : ٢١ - ٣٠) .

إن هذه النار التي يعذب بها الجن ، وهم مخلوقون من النار ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود : ١١٩) . . وقوله سبحانه لإبليس لعنه الله : « قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (سورة ص :

نقول : إن هذه النار التي تأكل الجن المخلوقين من النار ، والتي أهداها الله تعالى لإبليس وذريته جزاء لعصيانهم أمر ربه - هذه النار ، ربما كان لابن عربي وشيعة ، وتلاميذه وحواريه أن يروها جنة ، من جنات النعيم إذ ليس هناك عندهم فرق بين شيء وشيء . . . فالكل واحد في محتوى وحدة الوجود . . . لقد أباح القائلون بوحدة الوجود كل شيء ، حتى نكاح البنات ، والأمهات . . . إذ لا أمهات ، ولا بنات في هذه الوحدة الجامعة لكل شيء في كيان واحد ، التي سولها الشيطان للقائلين بها . . .

وإذن فلا عجب أن يؤكد ابن عربي لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليهم - وأن يبطل الحكمة من إرسالهم بما أرسلهم الله تعالى به من هدى ، ووحمة للناس . . . ثم يمين ابن عربي في هذا التأكيد لرسول الله ، فيجعل لأعدائهم المكذبين بهم والكافرين بالله ، وباليوم الآخر - مقام الفوز والرضوان . أما إن كان هناك حرمان من هذا الفوز وذلك النعيم ، فهو لهؤلاء الرسل ، لأنهم أضلوا أقوامهم ، حين صرفوهم عن إيمانهم بوحدة الوجود ، وحاولوا إخراجهم من تلك الوحدة !

فهذا ابن عربي في فصوصه ، يقتصر لقرم نوح ، ويرى أنهم كانوا على الحق : على حين أن نوحاً أراد بدعوته لهم أن يفسد عليهم إيمانهم هذا ، وأن يسكر بهم مسكراً يخرجهم به من النور إلى الظلام ، ومن الهدى إلى الضلال .

يقول ابن عربي في الفص الفوحى من فصوصه :

« لو أن نوحاً دعا قومه بين الدعوتين لأجابوه ، فدعاهم جهاراً ؛ ثم دعاهم

إسراءاً<sup>(١)</sup>، ثم قال لهم ، استغفروا ليكم إنه كان غفاراً » (نوح : ١٠) .  
وقال : إني دعوت قومي ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائى إلا فراراً » (نوح :  
٥ - ٦) . . . وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ، لعلمهم بما يجب  
عليهم من إجابة دعوته ، فعلم العلماء بالله - يقصد ابن عربى نفسه - ما أشار  
إليه نوح فى حق قومه من الثناء عليهم (!!) بلسان الذم ، « علم أنهم لما لم  
يجيبوا دعوته ، لما فيها من الفرقان والأمر قرآن لا فرقان !! ومن أقيم فى  
القرآن ، لا يصعب على الفرقان ، وإن كان فيه ، فإن القرآن يتضمن الفرقان ،  
والفرقان لا يتضمن القرآن ، ولهذا ما اختص بالقرآن إلا محمد - صلى الله عليه  
وسلم - وهذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس « ليس كمثله شئ ؟ » .  
يجمع الأمرين فى أمر واحد<sup>(٢)</sup> !

ثم يمضى ابن عربى ، فى هذا العبث بكلام الله والتناول على  
رسله فيقول :

« فلو أن نوحاً أتى بمثل هذه الآية لفظاً لأجابه<sup>(٣)</sup> ، فإنه - أى الله  
تعالى - شبه ونزه فى آية واحدة ، بل فى نصف آية .

---

(١) يخطئ ابن عربى نوحاً - عليه السلام - فى أسلوب دعوته التى  
دعابها قومه ، وهو قوله تعالى على لسان نوح : « قال رب انى دعوت قومي  
ليلاً ونهاراً ، فلم يزدكم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا  
اصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، واصبروا واستكبروا استكباراً ، ثم  
انى دعوتهم جهاراً ، ثم انى اعلنت لهم وأسررت لهم اسراراً » (سورة نوح :  
٥ - ٩) .



« ونوح دعا قومه (ليلاً) من حيث عقولهم ، وروحانياتهم ، فإنها غيب و « نهاراً » دعاهم أبضاً ، من حيث ظاهر صورهم وحسهم ، وما جمع في الدعوة مثل : « ليس كمثله شيء » فنفرت بواطنهم لهذا الفرقان ، فزادهم<sup>١</sup> فراراً ، ثم قال - أي نوح - عن نفسه : لأنه دعاهم ليففر لهم<sup>(١)</sup> ، لا ليكشف لهم ، وفهموا ذلك منه ، عليه السلام ، لذلك « جعلوا أصابعهم في آذانهم واستمشوا نياهم » وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها !! فأجابوا دعوته بالفعل ، لا بلبيك ... ففي « ليس كمثله شيء » إجابات المثل ونفيه ، وبهذا قال عن نفسه - أي محمد - صلى الله عليه وسلم : لأنه أوتى جوامع السلام « قما دعا محمد قومه ليلاً ونهاراً ، بل دعاهم ليلاً في نهار ، ونهاراً في ليل !! فقال نوح في حكمته لقومه : « يرسل السماء عليكم مدراراً » (نوح : ١١) وهي المعارف العقلية في المعاني ، والنظر الاعتباري « ويمدكم بأموال » أي بما يعيل بكم إليه - أي إلى الله - فاذا مال بكم إليه ، رأيتم صور تسكم فيه ، ومن عرف منكم أنه رأى نفسه ، فهو العارف ، ولهذا انقسم الناس إلى غير عالم ، وعالم .

« ومكروا مكراً كباراً » لأن الدعوة إلى الله تعالى مكر بالمدعو ، لأنه - أي الله - ما عدم من البداية ، فيدعى إلى الغاية !!

« ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ، ولا يغوث ويعوق وفسراً » (نوح : ٢٢ - ٢٣) . . فقالوا في مكرهم

(١) تأول ابن عربى الغفر ، بمعنى الستر ، والمراد فى الآية غفران الذنوب واستترها ، اذا هم آمنوا بالله .

لأنهم إذا تركوهم - أى تركوا عبادة هذه الأوثان - جهلوا من الحق ، على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله .

ثم يقول ابن عربى :

« وفى الحمدبين - أى فى أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ( الإسراء : ٢٣ ) - أى حكم ، فالعالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وإن التفريق والسكرنة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية .. فما عبد غير الله فى كل معبود !!

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح :

« وقد أضلوا كثيراً » ( نوح : ٢٣ ) .. أى حيروهم فى تعداد الواحد بالوجود والنسب : « ولا تزد الظالمين » لأنفسهم المصطفين الذين أورثوا الكتاب فهم أول الثلاثة<sup>(١)</sup> .. فقدمه على المقصود ، والسابق .

---

(١) يشير ابن عربى الى هذه الاصناف الثلاثة الذين أورثهم الله تعالى الكتاب ، وذلك فى قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظاع لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » ( فاطر : ٢٢ )

فانظر الى ابن عربى كيف تأول هذه الآية الكريمة بما أملاه شيطانه .

أى أن الله تعالى قدم الظالم الذى قصر فى حق نفسه ، على المقصد  
والسابق ، والله تعالى يقول : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ،  
فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » .  
( الواقعة : ١٠ — ١٣ ) ..

فبأى ميزان شيطانى يزن ابن عربى أقدار الناس ، قية قدم المتأخر ،  
ويؤخر المتقدم ؟

ثم يقول ابن عربى ، فى حديثه عن قوم نوح :

« ولا تزد الظالمين إلا صلالا » ( نوح : ٢٤ ) .. أى إلا حيرة الحمى  
« زدنى تحيراً فيك » ، « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا »  
( البقرة : ٢٠ ) .. فالحائر له الدور ، والحركة الدورية ، حول القطب ، فلا  
يبرح منه .. وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المنصود ، طالب ماهو  
فيه ، صاحب خيال إلى غايته ، فله : « من ، وإلى » وما بينهما .. وصاحب  
الحركة الدورية لا بدء له ، فيلزمه « من » ولا غاية له ، فتحكم علامه « إلى » ،  
الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلام والحكم ١١

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح أيضاً :

« مما خطيئاتهم أغرقوا » فهى — أى الخطيئتان — هى التى خطت بهم  
فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وهو الحيرة « فأدخلوا ناراً » أى فى عين الماء  
وفى الحمدين : « وإذا البحار سجرت » ( التكوير : ٦ ) .. سجرت  
التنور إذا أوقدته « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » ( نوح : ٢٥ )

فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه - أى فى الله - إلى الأبد ، فلو أخرجهم إلى السيف ، سيف الطبيعة - لنزل بهم عن هذه الدرجة الرفوعة ، وإن كان الشكل لله ، وبالله ، بل هو الله ١ .

« قال نوح رب » ما قال : إلهى ، فإن الرب له الثبوت ، والإله يتنوع بالأسماء ، فهو كل يوم هو فى شأن ، فأراد بالرب ثبوت التكوين ، إذ لا يصح إلا هو . .

« لا تذرع على الأرض » يدعو عليهم - نوح - أن يصيروا فى بطنها الحملى « ولو دليتم بحبل لهُبط على الله » ( ١١ ) له ما فى السموات وما فى الأرض ، وإذا دفنت فيها ، فأنت فيها ، وهى ظرفك ، « وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » ( طه : ٥٥ ) لاختلاف الوجوه . .

« لا تذرع على الأرض من الكافرين » أى الذين استغفشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم طلباً للاستتر ، لأنه - أى نوح دعاهم ليغفر لهم ، والغفر الستر « دياراً » أى أحداً ، حتى تعم المنفعة ، كما عمت الدعوة ١١ .

« إنك إن تذرهم » أى تدعهم وتتركهم « يضلوا عبادك » فيخرجوهم من العبودية ، إلى ما فيهم من أسرار الربوبية ، فيرون أنفسهم أرباباً ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً ، فهم العبيد الأرباب ١١ .

« ولا يلدوا » أى ما ينتجون ، ولا يظهرون « إلا فاجراً » أى مظهرأ ما ستر « كفاراً » أى ستاراً ما ظهر بعد ظهوره ، فيظهرون ماستر ، ثم يسترونه بعد ظهوره ، فيحار الناظر ، ولا يعرف قصد الفاجر فى فجوره ، ولا الكافر فى كسفه ، والشخص واحد ١١ ، ( ١ ) .

( ١ ) فصوص الحكم ، لابن عربى ( الفص النوحى ) .

هذا ما قاله ابن عربى فى فصوص حكمه ، وذلك فى تفسير سورة نوح ، وما كان بين نوح وقومه ، حيث جعل من لإرسال الله تعالى نوحا إلى قومه فتنة لهم ، وإضللا .

فإلى الذين يتمسجون بأذيال ابن عربى ، ويتسمون أنسام نفحاته وبركاته ويرجون شفاعته لهم يوم القيامة . . وإلى الذين يتعبدون بفصوص حكمه ، وبالفنوحات المسكية ، وبدبوان شعره ، وغير ذلك من مخلفاته - إلى هؤلاء وأولئك - من الأحياء - نقول لهم : انظروا فيما أنتم فيه ، مما امتلأت به رؤوسكم من مخلفات ابن عربى ، ثم ردوا هذا إلى كتاب الله ، وإلى سنة رسول الله ، وما كان عليه الصحابة والتابعون من أخذهم بالكتاب والسنة ، فى عباداتهم ومعاملاتهم - فإن وجدتم شيئا مما يقوله ابن عربى يستند إلى صريح كتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة صحابته ، فاقبلوه وإلا فردوه . واطلبوا السلامة لأنفسكم مما أنتم فيه ، إلا فاقطعوا صلته بكم بالإسلام ، ولا تقولوا إنكم مسامون ، بل قولوا إنكم صوفيون على دين ابن عربى ، ومن كان على شاكلته !!

ومع هذا ، فإننا نتف معكم وقفة فيما تلقناه من فصوص الحكم لابن عربى ، وما جاء منها فى الفص النوحى ، ونسألكم : ما قولكم فى تأويل شيخكم لآيات القرآن الكريم ، على هذا النحو الذى سقناه من قوله فى قوم نوح ، وقول الله تعالى فيهم : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » إن شيخكم يقول فى هذه الآية : إن خطيئاتهم هى التى خطت بهم ، فغرقوا فى بحار العلم بالله فأدخلوا نارا فى عين الماء « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » فكان الله عين أنصارهم ، فهلكوا فى الله إلى الأبد ؟ وماذا

يقولون يا شيعة ابن عربى فى هذا الذى يقوله شيخكم فى تأويل هذه الآية ؟  
ثم ماذا تقولون فى قول الله تعالى لنوح : « وأوحى إلى نوح أنه إن يؤمن  
من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك  
بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني فى الذين ظلموا إلههم مفرقون ، ويصنع الفلك  
وكما مر عليه ملاً من قومه سخرُوا منه ، قال إن تسخروا منا فإننا نسخر  
منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه  
هذاب متهم » ( هود : ٣٦ — ٣٩ ) . فهل هذا الغرق لقوم نوح كان  
غرقاً فى بحر حب الله ؟ وهل كان هذا العذاب الذى توعد الله تعالى به  
قوم نوح هو العذب من النعيم والرضوان كما يقول شيخكم ؟ .

ثم لماذا كان إرسال الله تعالى نوحاً إلى قومه ، إذا كانوا من  
أولياء الله ومن الغارقين فى حبه ؟ أكان ذلك لإضلال القوم ، وإخراجهم  
ما هم فيه من معرفة بالله تعالى وقرب منه ؟ أم هذا يليق بحكمة الحكيم العليم ،  
رب العالمين ؟ .

وماذا تقولون فى قول شيخكم الأكر فى قوله تعالى عن قوم نوح :  
« ومكروا مكراً كباراً ، وقالوا لا تذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا  
ولا سواها ، ولا يغوث ويعوق ونسراً » ؟ .

يقول شيخكم : فقالوا فى مكرمهم ، إلههم إذا تركوهم — أى تركوا  
عبادة هذه الأوثان — جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء —  
أى الأصنام — فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه ، ويجهله  
من جهله ، ؟ .

فهل عبادة هذه الأصنام ، هى عبادة لله ؟ ولم إذن دمع الله تعالى

بالكفر من عبدوا المسيح ، أو عبدوا الملائكة ؟ ألم يقل الله تعالى في عباد  
المسيح من النصارى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم »  
( المائدة : ٧١ ) ..

وَألم يقل سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما  
من إله إلا الله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمس الذين كفروا  
منهم عذاب أليم » . ( المائدة : ٧٣ ) ؟ وألم يقل الحق سبحانه : « ومن  
يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح  
في مكان سحيق » ، ( الحج : ٣١ ) ؟

فكيف تكون عبادة غير الله عبادة لله ؟ وكيف يكون لله تعالى في  
كل معبود وجهها يتجلى فيه ؟ .

إن هذه المنكرات من قلب الحقائق ، وجعل الظلام نوراً ، والضلال  
هدى في تأويل كلام الله ، وإبطال ما جاء به من الحق لهداية الناس ،  
وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما يقول تعالى : « كتب أنزلناه إليك  
لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ،  
الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ،  
( ابراهيم : ١ - ٢ ) - إن هذه المنكرات التى يذيعها ابن عربى فى  
الناس ، قد حملت كثيراً من أئمة المسلمين على رميه بالكفر ، على ما فى  
هذا من المجازفة والمخاطرة ، ولكن ذلك كان أمراً واجباً على هؤلاء  
الأئمة ، لتحذير الناس من الوقوع فى الكفر الذى يزينه لهم .. وإنه لإهدار  
دم واحد من الناس ، لصيانة دم مئات ألوف الألوف منهم ، ممن يتهددهم

هذا الخطر الزاحف عليهم من ابن عربي — هو شريعة من شريعة الإسلام .  
بلى دعوة من دعوات أولى العقلى والرشاد، لصيانة الجماعة من دهوات المفسدين  
وضلالات الضالين !!

وليس يقبل فى مثل هذا المقام ، الذى يتصل بالدين ، بل وبالأصل الأول  
منه وهو التوحيد ، أن يكون للكلام فيه ، ظاهر وباطن ، وأن يقام للمتكلم  
عذر بأن لكلامه مفهوماً باطنياً ، غير ما تدل عليه اللغة فى مفاهيم ظاهرها ،  
ففى هذا تلبس على الناس ، وإهدار للغة الخطاب بينهم ، وإبطال لكاتب  
الله المنزل بلسان عربى مبين . .

قال الإمام زين الدين العراقى عن أن معميات ابن عربى وألغازه :  
« وأما قوله — أى ابن عربى — فهو — أى الله — عين ما ظهر ، وعين  
ما بطن » فهو كلام مسموم ظاهره ، كالقول بالوحدة المطلقة ، وأن جميع  
الخلوقات هى عين الله . . . ويدل على إرادته ذلك صريحاً قوله — أى ابن  
عربى — قبل ذلك ، « وهو — أى الله — هو السمى أباً سعيد الخراز ،  
وغير ذلك من أسماء المحدثات » وكذا قوله بعد ذلك : « والمتكلم واحد ،  
وهو عين السامع » . . . ثم يعلق العراقى على ذلك بقوله : « والقائل ذلك  
والمعتقد به كافر بإجماع العلماء ، ولا يقبل من اجترأ على هذه المقالات القبيحة ،  
أن يقول : أردت بكلامى هذا خلاف ظاهره ، ولا تؤول له كلامه ،  
ولا كرامة » (١) .

ويقول العلامة علاء الدين على بن إسماعيل القنوى ، حين سئل عن شىء  
من هذا الكلام المعيب ، وما يتأوله عليه المتأولون يقولون :

(١) من كتاب مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعى ، تحقيق عبد الرحمن  
الوكيل — ص : ٦٦ .



« إنما تؤول - كلام من ثبتت عصمته - وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى نجتمع بين كلاميه : لعدم جواز الخطأ عليه ، وأما من لم تثبت عصمته ، فبأنز عليه الخطأ ، والمعصية والكفر ، فنؤاخذ به بظاهر كلامه ، ولا يقبل منه ما أول عليه كلامه ، مما لا يحتمله ، أو ما يخالف الظاهر ، وهذا هو الحق »<sup>(١)</sup>.

ويقول الغزالي ، في أول كتابه « إحياء علوم الدين » رهو من المتعاطفين مع الصوفية ، الرافعين لأقدارهم بين الناس : « إن الكلام إن كان ظاهراً في الكفر بالاتحاد ، قتل واحد ممن يقول به أفضل من إحياء عشرة أنفس... وإن كان فهم كلامه مشكلاً ، فلا يحل ذكره... إن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام بنقل عن صاحب الشرع ، وبغير ضرورة تدعو إلى ذلك ، من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ... والباطن لا ضبط له ، بل تعارض فيه الخواطر... وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة ، بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم »<sup>(٢)</sup>.

وهذا شأن ابن عربي ، وشأن كثير من شيوخ الصوفية ، الذين تنطق عباراتهم بالكفر الصراح ، ومن ثم فانه يحكم بكفر من كان على هذا الطريق في ظاهر كلامه .

ويقول الغزالي :

« وأما الشطح ، فنعني به صنفين من الكلام ، أحدهما بعض الصوفية :

(١) المصدر السابق - ص : ٦٦ - ٦٧

(٢) إحياء علوم الدين ، للغزالي - جزء اول - ص ٣٦ - ٣٧ طبعة

الخطبي .

أحدهما الدعوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى  
عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب  
والمشاهدة بالرؤية المشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا  
ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الخلاج ، الذى صال - لأجل إطلاقه كلمات  
من هذا الجنس ، يستشهدون بقوله « أنا الحق » ، وبما حكى عن أبى يزيد  
البسطامى أنه قال : سبحانى ، سبحانى . . وهذا فن من الكلام عظيم ضرره  
في العوام و حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه  
الدعوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع  
تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى  
ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات محبطة مزخرفة . . . ومهما أنكر عليهم  
ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدوه العلم والجدل ، والعلم  
حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث - أى الذى يتحدث  
به المتصوفة لا يلوح إلا من الباطن ، بمكائفة نور الحق كما يزعمون<sup>(١)</sup> .

« فهذا ومثله ، قد استطار في البلاد شره ، وعظم في العوام ضرره  
حتى إن من نطق بشيء منه ، فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة ! !

ثم يقول الغزالي :

والصنف الثانى من الشطح ، كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ،  
وفيه عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وذلك لأنها إما أن تسكون غير

(١) فماذا يقول المتصوفة عن شطحاتهم ، وما حكم به الغزالي عليهم ،

وصو من أهل التصوف ؟

مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط في عقله ، وتشويش في خياله ، لقلة إحاطته بمعنى الكلام ، وهذا هو الأكثر ، وإنما أن تكون هذه الشطحات مفهومة لقائلها ، ولأنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ما في ضميره . . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام ، إلا أنه يشوش القلوب ، ويدهش المتول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منه معان ما أريدت منه . . وقد قال — صلى الله عليه وسلم : « كالموا الناس بما يفهمون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله <sup>(١)</sup> » (رواه البخاري) .

فإذا تقولون يا أهل التصوف في هذا القول الذي يقوله شيخ كبير من شيوخ التصوف ، لم يقبل عقله الذكي ، وعلمه النزي أن يكون الشطح الذي هو مورد المتصوفة : على نسب قريب أو بعيد من دين الله ؟

ويقول برهان الدين البقاعي في خطبة كتابه : « مصرع التصوف » :  
« وبعد ، فاني لما رأيت الناس مضطربين في ابن عربي ، المنسوب إلى التصوف ، الموسوم عند أهل الحق : بالوحدة — أي القول بوحدة الوجود — ولم أر من شفى القلب في ترجمته ، وكان كفره في النصوص ، أظهر منه في غيره — أحببت أن أذكر منه ما كان ظاهراً ، حتى يعلم حاله ، ويهجر مقالته ويعتقد انحلاله وكفره وضلاله ، وأنه إلى الهاوية مآبه ومآله ، امقثالا لما رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقائه ، وذلك أضعف الإيمان <sup>(٢)</sup> » .

(١) من صحيح البخاري .

(٢) صحيح مسلم .

وما طال وقوفنا مع ابن عربى ، والكشف عن كيدهِ العظيم للاسلام ،  
إلا لأنه عند الصوفية الباب الواسع الذى يدخلون منه إلى التصوف ، ليستظلوا  
بظل قطبيته ، فما هو إلا فرعونهم الذى يقودهم إلى ما هو مساق إليه « يقدم  
قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورد » ( هود : ٩٩ ) .

وإن ابن عربى لأشد ختلاً ، وخداًعاً من إبليس ، فهو إذ يورد الناس  
على موارد ضلاله وكفره وإلحاده ، بما يصرح به من كفر وإلحاد —  
إنه إذ يورد الناس هذا الورد الوبيل المهلك ، يذكر الصلاة على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم — ويذكر الصلاة على رسل الله عليهم السلام ، كلما  
أجرى لهم ذكرأً فى حديثه ، وذلك ليظن به أنه مؤمن بالله ، وبرسل الله ،  
وما هو إلا كافر بالله ، وبرسل الله الذين يرى أنهم مضللون لأقوامهم ،  
حائدون بهم عن التوحيد الخالص الذى يمثله فى وحدة الوجود ، حيث  
لا رب ولا مربوب ، ولا إله ولا مألوه ، ولا عبد ولا معبود ، إذ السكل  
كيان واحد ، والوجود إنسان كبير !

وهل يقبل قول من ابن عربى ، وإن طلاه بدهان الخلل والخداع ، وهو  
يصرخ بالكفر والزندقه فى غير حياء ؟ فما هو ذا يقول فى فصوص حكمه :  
« فإياك أن تتقيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ،  
بل يفوتك الأمر على ما هو عليه ، فكن فى نفسك هيولى — أى قابلاً كل  
معتقد — لصور المعتقدات كلها ، فان الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره  
عقد دون عقد ، فانه يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » ( البقرة : ١١٥ )  
« فالسكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد

مرضى عنه » (فصوص ابن عربى ص ١١٣) وصریح معنى هذا الكلام أن يدين الإنسان بكل دين ، فيعبد الشيطان ، أو السكب ، أو الخنزير ، لأن الله فى زعم هذا الملحد ، هو فى كل كائن من هذه الكائنات !!

ولم أنه ندر أن يخلو كتياب من كتب المتصوفة من تأويل آيات من كتاب الله ، تأويلاً باطنياً ، يخرج بها عن مفاهيم اللغة التى نزل القرآن بها ، إلى معميات ، وألغاز ، وإلى كفر وإلحاد ، وإلحاد ، وحلول . . وهذا باب واسع من أبواب الفتنة ، والغرير ، والقلبى على المسلمين ، حيث يقع فى ضلالها وبطلانها من يطلع عليها ، من غير أهل العلم فيغرقون فى بحور الضلال ، وإن الذى تولى كبر هذا الجرم الغليظ هو ابن عربى ، الذى جزم كثير من علماء المسلمين الأعلام بكفيرة متحملين تبعه هذا الحكم فى موقف الحساب بين يدى الله تعالى ، تبرئة لذمتهم ، فيما يجب عليهم من الفصح لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ومن هؤلاء الأعلام الذين صرحوا بكفر ابن عربى . العلامة جمال الدين ابن هشام ، صاحب المغنى . . فقد كتب ابن هشام على نسخة من فصوص ابن عربى :

هذا الذى بضلاله ضل أوائل مع أواخر

من قال فيه غير ذا فليأعنى ، فهو كافر

« هذا ككتاب فصوص الظلم ، ونقيض الحكم ، وضلال الأمم . . كتاب يبعثر الذم عن وصفه ، قد اكتنفه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، لقد ضل

مؤلفه ضاللاً بعيداً ، وخسر خسراناً مبيهاً ، لأنه مخالف لما أنزل الله به رسله ، وأنزل كعبه ، وفطر عليه خليفته »<sup>(١)</sup>.

ومن كفر ابن عربي ، العلامة ابن خلدون .. يقول ابن خلدون :

« إن طريق التصوف منحصر في طريقتين :

« الأولى طريقة السنة ، طريقة السلف الجارية على الكتاب والسنة ، والافتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين .

والطريقة الثانية ، وهي مشوبة بالبدع ، وهي طريقة قوم من المتأخرين يعملون الطريقة الأولى ، وسيلة إلى كشف حجاب الحس ، لأنها من نتائجها ، ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربي ، وابن سبعين ، وابن بركان وأتباعهم ، ممن سلك سبيلهم ، ودان بنحلتهم ، ولهم تواليف كثيرة بقداولونها ، مشحونة بالكفر ، ومستهجن البدع ، وتأويل الظاهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها مما يسعغرب الناظر فيها نسبتها إلى الله ، أو عدها في الشريعة .

ثم يقول ابن خلدون مبيناً ما يجب أن يكون من المؤمنين إزاء هذه الكتب : « وأما حكم تلك الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها بأيدي الناس ، مثل الفصوص ، والفتوحات المكية لابن عربي واليد لابن سبعين ، وخلع النعمان لابن قسي — فالحكم في هذه الكتب وأمثالها ، إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار ، والغسل بالماء ، حق ينمحي أثر الكتاب ، لما في ذلك من المصلحة العامة في الدين ..

---

(١) من كتاب مصرع التصوف ، لكبرهان الدين البقاعي ص : ١٦٥

فيعتبر على ولى الأمر ، إحراق هذه الكتب ، دفعا للمفسدة العامة ، ويعتبر على من كانت عنده التمسكين من إحراقها « (مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعي ص ١٦٧ - ١٦٨) .

فهذه آراء علماء أجلاء من علماء السنة في شيوخ التصوفة ، وفي مؤلفاتهم .. ومع هذا فإن التصوف يتمشى في محيط المسلمين كما يتمشى السرطان في الجسد ، ولا شعور من علماء الإسلام بهذا الخطر الداهم .. فلا حول ولا قوة إلا بالله .

### الصوفية والكذب على رسول الله :

لم يكتف التصوفة أن يتأولوا القرآن الكريم هذا التأويل الفاسد الذى يفتنون به أهواءهم ، ويتابعون فيه دعوة شياطينهم - لم يكتف التصوفة بهذا بل حاولوا جاهدين أن يشوهوا صورة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأن يخرحوا رسول الله من عالم البشر ، ويرتفعوا به إلى مقام الذات الإلهية ليسكون فى وحدة مع ذات الله !

وهذا الكيد العظيم من الصوفية لدين الله ، ولرسول الله - إنما يريدون به أن يحققوا أمرين :

أولهما : القول بوحدة الوجود ، وإقامة الحججة على من ينكروها من المسلمين ، وذلك حين يشرفون عليهم برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وهو بشر فى مرأى العين ، ثم هو بمزاج لله ، مشارك له فى سلطانه جل وعلا .

ولمذن ، فإنه إذا صح هذا في رسول الله — صلى الله عليه وسلم —  
أمكن أن يصح في أولياء المتصوفة — ثم صح بعد هذا في كل مخلوق ،  
حيث يتحد الجميع مع الله ، وإذا الجميع آلهة .. لافرق بين إنسان ، وحيوان  
ونبات ، وجاد !!

وثانيهما : القول بتصور الوحدة ، بأنها أشبه بالجسد الواحد في النظرة  
المجمله ، فإذا نظر إليها من باب التفصيل ، كان منها ما يشبه الرأس ، ومنها  
ما يشبه الميمين ، ومنها ما يشبه اليدين ، ومنها ما يشبه الرجلين .. وهكذا .

ومن هذا صح — عند المتصوفة — القول بالقطب الأكبر : والأوتاد ،  
والأبدال وغير ذلك من طبقات الصوفية المتحكمين في هذا الوجود !!

يقول شيخ الصوفية الأكبر ابن عربي ، في وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم :  
« إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما أبدعه الله سبحانه وتعالى  
حقيقة مثلية ، وجعله نشأة كلية ، حيث لا أين ولا بين ، قال له : أنا الملك  
وأنت الملك ، وأنا المدبر وأنت الفلك ، وسأقيمك فيما يتكون عنك ،  
سائساً ومدبراً ، وناهياً وأمرأ ، تعطيها مما قد أعطيتك ، وتكون فيها كما  
أنا فيك<sup>(١)</sup> . فلست سواك ، كما لست سواي ، فأنت صفاتي فيهم وأسمائي .  
فتفصده .. أي محمد — عرقاً ، حياء ، فكان ذلك العرق الطاهر ماء ، وهو  
الماء الذي نبأ به الحق تعالى في صحيح الأنباء ، فقال سبحانه « وكان عرشه  
على الماء » !!

(١) هذه ضلالة من ضلالات القول بالحلول ، وهي من ضلالات النصرانية  
في المسيح بن مريم ، عليه السلام .



ثم يمضى ابن عربى فى هذا السكفر ، فيقول :

« ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح ، فظهر الملائ الأعلى وهو بالنظر الأجل ، فكان صلى الله عليه وسلم الجنيس العالى لجميع المخلوقات والأب الأكبر لجميع الموجودات ، والناس !! »

« فخلق الله من ذلك النور المنبعث منه صلى الله عليه وسلم ، العرش ، وجعله مستواه ، وجعل الملائ الأعلى وغيره محتواه » (١) .

وهكذا يمضى ابن عربى فى هذا السكيد العظيم لنبي الإسلام ، وشريعة الإسلام ، حتى يخرج الرسول الكريم من عالمنا البشرى الذى عاش فيه معنا ، وعشنا فيه معه بشراً سوياً ، تتمثل فيه الصورة الإنسانية السكرية التى يسمى أهل الفضل والعقل منا إلى أن يتعلقوا بها ، ويتبعوا آثارها ، كما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً » ( الأحزاب : ٢١ ) وكما يقول سبحانه : « يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » ( الأحزاب : ٤٥ — ٤٦ ) .

فالرسول عليه الصلاة والسلام ، واحد من رسل الله السكرام ، وإن كان أفضلهم ، وهو رجل من رجال قومه ، ولد لأبوين معروفين فى قومه ونشأ بينهم كإنسان من الناس ، لم ينسكروا شيئاً منه ، وإن كان أصدقهم قولاً ، وأكرمهم نفساً ، وأعظمهم خلقاً . والله تعالى يقول مخاطباً رسوله

(١) من كتاب « عنقاء مغرب » لابن عربى . ص : ٤٠

الكريم : « قل ما كنت بدءاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم  
إن أتبع إلا ما يوحى إلي ، وما أنا إلا نذير مبين » ( الأحقاف : ٢٩ ) .

ويقول له سبحانه : « قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً  
رسولاً » ( الإسراء : ٩٣ ) .

ويقول تعالى مخاطباً له : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت  
فهم الخالدون » ( الأنبياء : ٣٤ ) .. بل إن الله تعالى نعى الرسول  
الكريم ، وهو حى بين صحابته ، حتى لا يروه خارجاً عن سنن الله تعالى  
فى خلقه ، فقال تعالى : « إنك ميت ، وإنهم ميتون » ( الزمر : ٣٠ ) ..  
فإذا يقال عن محمد صلى الله عليه وسلم غير هذا الذى نطق به القرآن  
الكريم من أنه صلى الله عليه وسلم بشر من البشر ؟ بل ماذا يقال عن  
محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول عن نفسه : « أنا ابن امرأة من قريش  
كانت تأكل القديد » ويقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد » .  
ويقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا  
عبد الله ، ورسول الله » ؟ ولكن هكذا يدعو الشيطان أوليائه إليه ، ويرسلهم  
شياطين فتنة وإضلال للناس ، فى صورة العباد الزهادين ، وفى عبادات  
وعنائم المتصوفين .

١ ن رسول الله ، كما يتحدث عنه القرآن الكريم : هو بشر يأكل الطعام  
ويعشى فى الأسواق .. ولو شاء الله ل جعل الملائكة رسلاً ، ولكن الله تعالى  
يقول : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، وللبسنا عليه ما يلبسون »  
( الأنعام : ٩ ) .. ولقد خيل الشيطان لابن عربى هذا الضلال ، فضل وأضل :  
« وإن كثيراً يضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين »

( الأنعام : ١١٩ ) ، فخرج هذا الشيطان على المسامين بتلك الدعاوى الكاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا مستند لها من كتاب أو سنة ، ولكنها من مغويات شيطان ، فقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول الآثم الذى يرفعه إلى مقام الألوهية مع الله ، وهو يعلم أن العامة تصفى إلى مثل هذا القول الذى يمجّد رسول الله ، دون أن تميز بين حق وباطل ، بل إن العامة لقبولون كل ما يقال عن رسول الله ، فى مقام المدح والتجديد ، ولو بلغ ذلك إلى مقام الألوهية . . وذلك هو السكيد العظيم الذى كان من مكاييد ابن عربى عن « الحقيقة الحمديّة » وما يجعل هذا السكيد من كفر وشرك ، وإلحاد .

ويقول أحد شيوخ الصوفية ، وهو « الدباغ » فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله براء من إفك الآفكين ، وانتراء المفتين يقول :

« لعلم أن أنوار المسكنونات كلها عرش وفرش !! وسماوات وأرضين ، وجنات وحجب<sup>(١)</sup> وما فوقها وما تحتها ، إذا جمعت كلها ، وجدت بعضاً من نور النبى ، وأن مجموع نوره صلى الله عليه وسلم - لو وضع على العرش لذاب ! ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش ، لتهاقت !! ولو جمعت المخلوقات كلها ، ووضع ذلك النور العظيم ، لتهاقت ، وتساقطت<sup>(٢)</sup> .  
فماذا بقى لله تعالى ، ونور محمد لو سلط على عرشه لذاب ؟ وهل يبقى الله إذا ذهب العرش ؟ وهل يكون ملك بغير ملك . أو سلطان يغير عرش ؟

(١) لم يذكر هذا الصوفى النار ، فيما يذكر من عوالم المخلوقات ، لأن الصلابة لا يؤمنون بنار الآخرة ، لأنها عندهم جنة من جنات النعيم .  
(٢) كتاب الابريز للدباغ ، جزء ٢ ص : ٨٤ .

ثم استمع إلى أحد شيوخهم ، وهو أحمد عبد المنعم الحلواني ، يقول :

أنشاك بوراً ساطعاً بين الورى فرداً لفرد والبرية فى العدم  
ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامى ، فيا عظيم الكرم  
جدلى ، فإن خزائن الرحمن فى يدك اليمين ، وأنت أكرم من قسم<sup>(١)</sup>

فانظر كيف يحتاج الله تعالى ، إلى أحد من خلقه - وإن كان أكرم  
خلقه - فيستعد منه جميع ما خلق ، فلا يخلق شيئاً إلا إذا طلب المدد من  
رسول الله !! وأين سلطان الله ، وقد وضع خزان ماسكه فى يد بشر ،  
مخلوق له ؟

وهذا مدخل إلى ما تدعو إليه الصوفية من طلب المدد من شيوخها ،  
وأوتادها وأبدالها ، والراقيدين تحت أضرحتها !!

لقد أضرب القوم صفحاً عن كل ما جاء به القرآن الكريم عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم - وأنه بشر من البشر ، وخلق من خلق الله ، ورسول  
من رسله المصطفين لهداية الناس . . والله تعالى يقول لرسوله الكريم : « قل  
ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم » (الأحقاف : ٩)  
ويقول سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم : « قل إنما أنا بشر مثلكم ،  
يوحى لى » (الكهف : ١١١) . . ويقول على لسانه أيضاً فى « قل سبحانه  
ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (الإسراء : ٩٣) . . ويقول جل شأنه :

---

(١) هذا الحلوانى من متصوفة هذا الزمان فى القاهرة ، وكل اشعاره  
ومقالاته من هذا الخلط العجيب بين الكفر والاحقاد .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » ( آل عمران : ١٤٤ ) . . بل إن الله تعالى نعى محمداً إلى الناس . وهو حى بين أظهرهم ، فقال تعالى . « إنك ميت وإنهم ميتون » ( الزمر : ٣٠ ) ، ويقول عنه تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » ( الحاقة : ٤٧ ) .

فهذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما تحدث عنه القرآن . ليس له مع الله أمر ، ولا حكم ، فهو واقع تحت مشيئة الله ، وحكمه : « قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ( الأعراف : ١٨٧ ) .

ولكن هكذا يزين الشيطان لأبليائه ، فيسلمون قيادهم له : « يعدمهم ويمنيهم وما يعدم الشيطان إلا غروراً » ( النساء : ١١٩ ) .

ومن قبل ، لقد عهد النصارى المسيح ابن مريم ، وجعلوه إلهاً ، يتجلى في صورة الأب مرة ، وفي صورة الابن مرة . . والله تعالى يقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » ( المائدة : ٧٢ ) . . فهذا قول طائفة منهم .

ويقول سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » ( المائدة : ٧٣ ) . . وهذا قول طائفة منهم ، حيث يجعلون الآلهة ثلاثة : « الأب ، والابن ، وروح القدس » .

وهل قال النصارى - على مختلف طوائفهم الضالة - هل قالوا في المسيح  
أكثر مما قال الصوفية في « محمد » ؟ وفيما تحدثوا به عن « الحقيقة  
المحمدية » ؟

يقول شيخ من شيوخهم ، وهو المسمى « البيطار » :

« شأن محمد في جميع تصرفاته ، هو شأن الله !! فما في الوجود إلا  
محمد !! »<sup>(١)</sup> فهل هناك كفر مثل هذا الكفر ، وهل هناك ضلال بعد  
هذا الضلال ؟ وبمن هذا الكفر وذاك ؟ إنه من قوم ينتسبون إلى الإسلام  
ويضعون أنفسهم في الصف الأول من المسامين ، وهم المصتوفة !!

إن بعض فرق النصارى ، تعترف بمشاركة المسيح لله في ألوهيته ، ولكن  
هذا الصوفي ، لم يرض أن يكون شأن محمد في جميع تصرفاته ، هو شأن الله  
بل ذهب به الكفر والضلال إلى أبعد غاية ، فقال : ما في الوجود إلا محمد !  
فهل بعد هذا الإلحاد ، إلحاد ؟ وهل ذهب إبليس في عصيانه لله إلى هذا المدى  
من الضلال ؟ إن إبليس بعد أن عصى أمر ربه بالسجود لآدم ، ظل يقول :  
« رب انظرني إلى يوم يبعثون » ( الأعراف : ١٣ ) « رب بما أغويتني  
للأزبين لهم في الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين »  
( الحجر ٣٩ - ٤٠ ) .

فهل وقف هؤلاء المصتوفة من الكفر والضلال عند الحد الذي وقف

---

(١) من كتاب « عنقاء مغرب » لابن عربي . ص ٤٠

عنده إبليس فلم ينكروا وجود الله ، ولم يقيموا خلقاً من خلقه في مقام الألوهية؟ ولكنه الضلال المبين : « ومن يرد الله فتنة فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم » ( المائدة : ٤١ ) .

ويكفي لبطلان هذه المقتريات ، أن كثيراً من المستشرقين ، الذين لا يعنيه أمر الإسلام ، أنهم - وهم ينظرون في صحف التاريخ ، نظرة العلماء المحققين - لم يقبلوا هذا الزيف الذي أدخله المتصوفة على الإسلام ، حيث ينطق الإسلام بحقائقه الدامغة بتجريم الصوفية فيما يقولونه على الله ، وعلى رسوله الكريم ، وينادى عليهم بأنهم كذبة مفترون .

يقول المستشرق جولد تسيهر :

« إن صورة النبي ، كما صورتها السنة ، قد أصابها التعديل والتجوير ، لكي تتلاءم مع تقديس الأولياء ، حتى نجم من ذلك أن العقائد الشعبية ، وضعت صورة للنبي تتعارض تماماً مع البيانات البشرية ، التي صور بها القرآن والسنة ، مؤسس الإسلام الأول »<sup>(١)</sup> أي محمد صلى الله عليه وسلم .

وماذا يقول هذا المستشرق غير هذا ، وهو يؤرخ للإسلام ، ويرجع في هذا التاريخ إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ إنه لو قال غير هذا لسطط من ديوان العلماء ؟

---

(١) القصيدة والشرعية لجولد تسيهر ص : ٢٣٤ - ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ، وزميله .

ويقول المستشرق هفيوش بيكر :

« من الثابت أن الفصوص — أى الغباء والجهل — قد أثرت في إيجاد هذه الصورة التي صورتها العصور الوسطى الإسلامية للتأخرة ، لحمد ، وكان ذلك سبباً في إيجاد ما يشبه عبادة محمد . . وهذه العبادة ، وتلك الصورة ، مخالفة لأن لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة .

و أما الأولياء في الإسلام - عند الصوفية - فهم في مقابل الأرواح القدسية في الهليمنة<sup>(١)</sup> حتى إن محمداً - وهو نموذجهم الأعلى - ينتهي بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل ، وأن يكون هو الرحيم الخالص القدير . . . . .  
طريق هذا المذهب ، انقلبت فكرة الوحي التي كانت موجودة في الإسلام الأول ، إلى ضدها<sup>(٢)</sup> .

وَمَاذَا يَقُولُ مُسْلِمٌ يَدِينُ بِدِينِ الْحَقِّ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الَّذِي يَقُولُهُ مُسْتَشْرِقٌ لَا يَدِينُ بِالْإِسْلَامِ ، فِي دَفْعِ هَذَا الزَيْفِ الَّذِي دَخَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، مِمَّنْ يَمْتَسِبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ ؟

ويقول المستشرق « فيليب حقي » :

• والعقيدة الثابتة في باب الإيمان ، عند المسلمين ، هي أن محمداً رسول الله ، وخاتم النبيين ، وفي علم الإلهيات القرآن ، ليس محمداً إلا بشراً ، لم يسم الله على يده من العجائب غير أعضاز القرآن .

(١) الهيلينية ، معتقدات فى الكائنات الروحية التى يدعون انها تتوسط بين الذات الالهية والذوات الأخرى .

(٢) التراث اليوناني - ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ص : ١٢



« إلا أن التعاليد والأساطير التي اصطنعها العامة من بعد - بدسائس الصوفية - نسجت حول هامة الرسول ، هالة من النور الإلهي ،<sup>(١)</sup> .

فسبحانك ربى ، إى ، هذا الدين لا يخلو أبداً من كلمة الحق يقولها فيه أولياؤه وأعداؤه ، فإن للحق سلطاناً تعنوله الجباه !

وبعد ، فإن هذه المقولات المنسوجة من خيوط الزور والبهتان ، والمصبوغة بصبغ القديس للتعمية على الناس ، من مقولات الصوفية عن الحقيقة الحميدة إنما أريد بها ، تقديس شيوخ المتصوفة ، وما يقول فيهم من أقطاب وأولياء ، حتى لقد أقاموا بذلك دولة لأصحاب القبور ، الذين رفعوا فوقهم القباب ، إعلناً على أنهم من أولياء الله ، يذيعون عنهم الكرامات أحياء وأمواتاً ، وينشرون فى الناس أن أصحاب هذه القبور يقصرون فى الكون ، حيث يشفون المرضى ، ويقضون حاجات المحتاجين ، فى كل ما يطلبونه منهم ، إذا هم زاروا أضرحتهم ، وتمسحوا بها ، وقدموا القرابين لسدنتها . . وهذا ما نكشف عن بعضه فى الفصل العالى ، إن شاء الله .



(١) تاريخ العرب ، لفيليب منى - جزء ١ ص : ١٧٧

## الفصل السادس

### هؤلاء الجاثمون تحت الأرض

— ١ —

الموتى ، حين تنتهى آجالهم فى هذه الدنيا ، وينقلون إلى الدار الآخرة لا يجوز لأحد من الأحياء ، أن يحكم على أحد منهم بأنه من السعداء أو الأشقياء ، إلا إذا كان ذلك حكماً من الله تعالى ، كما حكم سبحانه على الأنعام الذين عصوا رسله فأهلكهم الله تعالى فى الدنيا ، وأعد لهم عذاب السعير فى الآخرة ، مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وملائته . . فهذا هو حكم الله تعالى فيهم . كما جاء ذلك فى القرآن الكريم .

أما أن يقال عن فرد من الناس بأنه من أهل الجنة أو أهل النار ، فهذا يعد تألياً على الله ، وتدخل وقاحاً فى حكمه على عباده ، لأننا لا ندرى من ظاهر الناس ما اشتملت عليه بواطنهم ، ولا ما ختم الله به على أعمالهم . . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخل الجنة » .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن أهل الجنة وأهل النار ، إنما يذكر كلامن الفريقين بالصفات التي تؤهلهم لهذه أو تلك ، دون أن يذكر أحداً من الفريقين باسمه إلا أبا الهب .. فيقول تعالى عن أهل الجنة : « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدون فيها لا يفتنون عنها حولاً » ( الكهف : ١٠٧ — ١٠٨ ) .. ويقول سبحانه عن أهل الجنة أيضاً : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » ( البقرة : ٢٤ ) . ويقول تبارك اسمه : « فأما من ثقلت موازينه ، فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأما هاهنا ، وما أدراك ما هاهنا ، نار حامية » . ( القارعة : ٦ — ١١ ) .

فالإيمان بالله ، والأعمال الصالحة في ظل هذا الإيمان ، هما الطريق إلى الجنة التي أعدها الله لعباده المؤمنين المتقين .. ولم يذكر القرآن الكريم إنساناً بعينه بأنه من أهل الجنة ، وحسب المؤمن أن يكون في جماعة المؤمنين لينال هذا الفضل العظيم الذي يناله المؤمنون من رب العالمين .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يبشر إلا عشرة من أصحابه بأنهم من أهل الجنة ، وذلك بأمر من ربه ، وهذا تكريم خاص من الله لهؤلاء العشرة الكرام ، يملأ قلوبهم سعادة ورضى في هذه الحياة الدنيا ، قبل لقاء ربهم ، ودخول جناته .. ولا شك أن الذين يدخلون الجنة من الصحابة — رضى الله عنهم — أعداد كثيرة تعد بالآلاف ، واسكن الحجاب ( ١٥١ — الصوف )

لا يكشف عنهم واحداً واحداً ، حتى يظل المؤمن دائماً في حال من الرجاء والخوف من ربه ، في كل حال من أحواله .

والشأن هكذا في أهل النار ، يذكرهم القرآن الكريم بأوصافهم التي تسوقهم إلى جهنم . . . وهي الكفر بالله أو الشرك به ، والسكفر بالبعث ، والحساب ، والجزاء كما يقول تعالى : « إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » ( النساء : ١٤٠ ) ويقول سبحانه : « والذين كفروا ببرهم لهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور . . تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم بأنكم نذير ، قالوا بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير » ( الملك : ٦ — ٩ ) . . والحكمة — والله أعلم — في عدم ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار بأسمائهم ، تتجلى في أمرين :

أولهما : أن يظل المؤمن على طريق العمل للجنة ، وهو بين خوف ورجاء ، ولأنه علم أنه من أهل الجنة لما أتت في نفسه تلك المشاعر من الخوف والرجاء ، ولا حياة لإنسان بغير تلك المشاعر .

أما في جانب أهل النار ، فإن عدم الكشف لأي منهم عن مصيره هذا يجعل باب الإيمان مفتوحاً له ، لا يسده في وجهه ، ولا يملأ قلبه بأساً . . وبهذا تظل الحجة قائمة عليه ، على خلاف ما لو حكم عليه في هذه الدنيا بالمصير الذي هو صائر إليه ، حيث تنتفي الحكمة من إرسال الرسل ، ولا يبقى عند هؤلاء الجهنميين داع يدعوهم إلى التحول عما هم فيه ، من كفر وضلال ، وقد علموا مقدماً ما هم صائرون إليه !!

وثانيهما : أن ذكر أهل الجنة ، وأهل النار بأسمائهم فرداً فرداً ، لا يمكن أن يتجاوز الذين كانوا في عصر النبي من بعثته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى وفي محيط المسكن الذي هو فيه ، من أولئك الذين كان يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وإنه لمن غير المسكن ، بل وغير المستساغ كذلك أن يكشف عن مصير كل إنسان قبل مبعث الرسول ، وبعد مبعثه إلى اليوم ، وإلى أن ينتهي دور الناس على هذه الأرض .

فكان من الحكمة العالية أن يظل الستر مسدداً على كل إنسان ، وأن يظل مصيره معلقاً إلى آخر يوم من عمره ، وأمامه طريقان : أحدهما إلى الجنة والآخر إلى النار ، وله أن يسلك ما شاء منهما ، وبهذا تقوم الحجة عليه : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرائقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشرئ الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفعاً . إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار ، يحولون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب ، وحسنت مرتفعاً » ( السكهف : ٣٠ — ٣١ ) .

فذلك من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، كما يقول تعالى : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله » ( البزل : ٦٥ ) وكما يقول سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول » ( الجن : ٢٦ ) وكما يقول جل شأنه لرسوله الكريم : « قل لا أقول لكم

عندي خزائن، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، إن أتبع إلا ما يوحى  
إليّ» (الأنعام : ٥٠) .

هذا ، ولم يذكر القرآن الكريم أحداً من أهل النار باسمه ، ولم يسقه  
إلى جهنم سوقاً وهو يمشى على هذه الأرض إلا أبا لهب ، وامرأته ، وذلك  
في قوله تعالى : « تبث يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ،  
سيمضى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، في جيدها حبل من مسد »<sup>(١)</sup>  
ولا شك أن هذا بلاء مضاعف لذين الشقيين : إذ كانا من أشد أهل مكة  
أذى للنبي صلى الله عليه وسلم ، وسفاهة عليه ، فجعلهما الله تعالى مثلاً لما  
يأخذ به الطغاة من نكال الدنيا والآخرة جميعاً ، مثل ما أخذ الله تعالى به  
فرعون ، إذ يقول سبحانه ، في هذا الطاغية الجبار : « فكذب وعصى ،  
ثم أدبر يسهى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى ، فأخذ الله نكال الآخرة  
والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » (النازعات : ٢١ - ٢٦) .

هذا هو شأن الأموات ، لا يدري أحد المصير الذي صار إليه الميت :  
إلا على سبيل الإجمال . . فإن كان من أهل الإيمان ظن به خيراً ، وعُد في  
زمرة المؤمنين وما هم صائرون إليه من نعيم الله ورضوانه ، وإن كان من  
أهل الكفر والشرك ، ظن به سوءاً ، وعُد في هذه الزمرة الضالة ، وما هم  
صائرون إليه من عذاب ونكال . . أما أن يحكم على هذا الميت أو ذاك  
على سبيل اليقين والقطع أنه من أهل اليمن أو أهل الشمال ، فهذا من التألي

---

(١) سورة المسد .

على الله ، الذى إليه وحده سبحانه علم ما تسكن الضمائر وما تغفى الصدور  
فتقد يكون هذا المؤمن فى باطنه مشركاً أو كافراً ، وقد يكون هذا الكافر  
فى الظاهر مؤمناً فى الباطن ، والله تعالى وحده هو علام الغيوب .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أمره به ربه أن يؤذن به  
فى الناس . « قل لا أملك لنفسى ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، ولو كنت  
أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير  
وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٨) .

وهذه أم العلاء الأنصارية ، تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
فتقول :

« لما قدم المهاجرون المدينة ، اقترعت الأنصار على سكنناهم ، فصار لنا  
عثمان بن مظعون فى السكنى معنا ، فرض ، ثم توفى ، فجاء رسول الله صلى الله  
عليه وسلم ، فدخل عليه ، فقلت — ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع :  
رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى أن قد أكرمك الله !! فقال النبى  
صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله قد أكرمك ؟ قالت : لا ، والله  
لا أدرى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من  
ربه <sup>(١)</sup> ، وإني لأرجو له الخير .. والله ، وأنا رسول الله ، ما أدرى ما يفعل  
بى ولا بكم » !!

فهذا صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين

---

(١) اليقين ، هو الموت ، حيث انه امر مستيقن عند الناس جميعاً ، لا شك  
فيه من مؤمن أو كافر .

- ٢٣٠ -

الأولين إلى الإسلام ، ومن المهاجرين الذين هاجروا بدينهم إلى الله ، تاركين ما بين أيديهم من أهل ، وولد ، ومال .. هذا الصحابي ، يموت ، وهو على تلك الحال الظاهرة من الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، ثم يرد الرسول الكريم قوله من تقول فيه : « فشهادتي أن قد أكرمك الله » وينكر أن يقول أحداً أباً كان ، أن هذا الإنسان من أهل الجنة ، أو أهل النار ، فذلك إلى الله تعالى وحده ، الذي يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور !!

ومع تلك الحال الظاهرة من إيمان عثمان بن مظعون ، وهجرته ، وجهاده فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يزد على أن يقول فيه : « أما هو فقد أتاه اليقين من ربه » ثم دعا له بقوله : « وإني لأرجو له الخير » . . وهذا أدب نبوي كريم يجب أن يأخذ به المؤمن نفسه ، فلا يحكم على حي أو ميت أنه من أهل الجنة أو أهل النار - غير ما حكم الله تعالى به على رسله وأنبيائه أنهم من أهل الجنة ، وما أخبر به الرسول الكريم - وحيّاً من ربه - عن العشرة من الصحابة المبشرين بالجنة . . كما لا يحكم على أحد أنه من أهل النار إلا من جاء ذكره في القرآن وكذلك على أقوام الرسل الذين كذبوا وفسدوا ، فأهلكهم الله في الدنيا وأعد لهم عذاب السعير في الآخرة !

- ٣ -

المتصوفة وما يدعون على الأموات :

ولكن الذي يطل على عالم المتصوفة ، يجد شيوخهم ومريديهم ، أمواتاً وأحياءاً ، قائمين على هذا الوجود ، متحركين فيه ، بيدهم الحياة



والموت ، والنفع والضرر ، يفتحون أبواب الجنان لمن يشاءون ، لا يرد الله تعالى لهم أمراً ، ولا ينقض لهم حكماً !!

وإذا كان الأحياء موضع تجربة واختبار بالمشاهدة ، أو موضع حسد وتحد من الناس — فإن حديث المتصوفة عن الأحياء منهم يكون تخافاً وهمساً في إذاعة كراماتهم في الناس — أما حين يكون الحديث عن الأموات الذين يجهل الناس أمرهم ، فهو حديث ذو شجون ، ينشد إنشاداً على نفحات المزمار ، في حلقات الذكر ، عن كرامات أصحاب الأضرحة ، التي يساق إليها الناس سوق الأنعام ، للطواف بها ، والمسح بجدرائها ، ورفع المطالب إليها ، في ضراعة وبكاء !!

وفي كتاب الشعرائي المعروف « بالطبقات الكبرى » حكايات خيالية ، شاطحة في الخيال ، دونها حكايات « ألف ليلة وليلة » فيما يحكيه الشعرائي عن هؤلاء الموتى الذين يخلع عليهم المتصوفة ألقاب الولاية والقطبية ، فهو مثلاً ينقل عن إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ والمدفون بمدينة دسوق بمصر قوله عن نفسه :

« أنا موسى عليه السلام في مناجاته !! أنا على رضى الله عنه في حملاته ، أنا كل ولى في الأرض خلعت عليه بيدي ، ألبس منهم من شئت !! أنا في السماء شاهدت ربى ، وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدى أبواب النار أغلقته وبيدي جنان الفردوس فتحتها .. من زارنى أسكنته جنة الفردوس » (٢) !!

(١) النبوات ، لابن تيمية ص ٩٠ .

(٢) الطبقات ٠٠ للشعرائي ص ١٥٧ .

وماذا بقى لله تعالى من تصريف وتدير في شئون خلقه ، وقد ملك الدسوقي أمر العباد ، يهب لمن يشاء ما يهب من فضل وإحسان ، ويحرم من يشاء من رحمة الله ؟

ثم لماذا العبادات والطاعات لله تعالى ، وزيارة واحدة لقبر الدسوقي ضمان بدخول الجنة ؟ فلا عجب إذن أن تهرع الألوف إلى زيارة الدسوقي في قبره ، حتى إذا كان يوم مولده زحفت الألوف من كل مكان في مصر إلى زيارة ضريحه حتى تجاوز المليون عدداً ؟

ثم لا عجب أن يشيع الفسق والفجور في الساحات المحيطة بهذا الضريح وقد أخذ الناس هناك عهداً موثقاً بدخول الجنة ، وغفران الذنوب ، وقد زاروا ضريح الدسوقي !!

أفهذا كلام ينشر على المساميين في كتب تحمل اسم الإسلام ، وتحدث عن أولياء الله بهذا الكفر الصراح ثم يكون مع هذا إسلام ومسلمون ؟

ثم يقول الشعرائى . على لسان الدسوقي :

« وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخاً في الأزل ، بين يدي قديم الأزل ، وبين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي وخلفت عليهم بيدي وقال لي رسول الله « يا إبراهيم أنت نقيب عليهم فكنتم أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخى عبد القادر الجيلاني ، خلفي وابن الرفاعى — أحمد الرفاعى — خلف عبد القادر ، ثم التفت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « يا إبراهيم : سر إلى « مالك » ، وقل له يخلق النيران ، وسر إلى « رضوان » وقل له يفتح الجنان ، ففعل « مالك » ما أمر به ، وفعل رضوان ما أمر به !! » (١) .

(١) الطبقات للشعرانى ص ١٥٨ . الجزء الأول .

وهكذا يعلق الدسوقي أبواب النيران ، ناسخاً قوله تعالى : « وعت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود : ١١٩) .. وناسخاً ما توعد الله تعالى به أهل الكفر والنفاق والشرك من عذاب الجحيم ، في قوله تعالى : « إن الله جامع الكافرين والمفارقة في جهنم جميعاً » (النساء : ١٤٠) وفي قوله سبحانه : « هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون فيها وبين حميم آن » (الرحمن : ٤٣ - ٤٤) .. إلى غير ذلك من مئات الآيات التي تحدث عن أحوال جهنم وأهوالها ، وعما يلقي أهلها من عذاب ونكال لقد نسخ الدسوقي هذا كله .. بل لقد نسخ شرع الله ، ورسل الله ، فلا وعد ولا وعيد ، فهذه جهنم قد أغلقت أبوابها ، وهذه الجنة قد فتحت أبوابها . إنه باب واحد ، هو باب الجنة يدخل منه جميع الناس من مؤمنين ، وكافرين وملحدين ومشركين ، ومناققين ، ومتصوفين !!

ولإذن ، فلا حرج أن يقول المتصوفة ما يقولون ، على الله ، ومنازعهم له في سلطانه ، إذ ليس هناك حساب ، ولا عقاب !!  
ويحكى عبد الوهاب الشعراني عن نفسه « في طبقاته الكبرى » ، ما وجدته من كرامات أحمد البدوي<sup>(١)</sup> .

« وسبب حضوري مولده - أي البدوي - كل سنة ، أن شيخني العارف بالله تعالى « محمد الشناوي » قد كان أخذ على العهد في القبة تجاه وجه سيدي أحمد البدوي ، وسأمني إليه بيده ، فخرجت اليد الشريفة من الضريح ،

---

(١) هو أحمد البدوي ، صاحب الضريح المعروف في مدينة طنطا بمصر .  
توفي سنة ٦٥٧ هـ .

وقبضت على يدي<sup>(١)</sup>!! وقال سيدى محمد الشناوى مخاطباً السيد البدوى :  
« يكون خاطرك عليه ، واجعله تحت نظرك » فسمعت سيدى أحمد البدوى  
من القبر يقول : نعم « !!

ثم يقول عبد الوهاب الشعرانى ، متحدثاً عن نفسه ، وعما كان  
لأحمد البدوى معه من كرامات :

« ولما دخلت بزوجتي ، فاطمة ، أم عبد الرحمن ، وهى بكر ، مكثت  
خمس أشهر لم أقرب منها ، فجاءنى — أى المبدوى — وأخذنى ، وهى  
معى ، وفرش لى فرشاً فوق ركن القبة التى على يسار الداخل ، وطبخ لى  
حلوى ، ودعا الأحياء والأموات<sup>(٢)</sup> إليه ، وقال لى أزل بكارتها هنا ،  
فسكان الأمر تلك الليلة «<sup>(٣)</sup>.

فإن يكن ذلك الخبر الذى يرويهِ الشعوانى عن نفسه صحيحاً : فإن  
المنقطع به هو أن الشيطان قد استجره إلى هذه الهوة ، ثم تولى عنه  
إزالة بكاره زوجه ثم أحبلها الشيطان !!

ويقول الشعرانى أيضاً ، محدثاً عن نفسه مع أحمد البدوى :

« وتخلقت عن ميعاد حضورى للمولد — أى مولد البدوى — سنة

---

(١) لاشك ان هذه اليد هى يد شيطان تمثل له انه احمد البدوى ، بعث  
من مرقده !!

(٢) ان احمد البدوى يبعث من فى القبور ، قبل ان يبعثهم الله تعالى يوم  
النشور للحساب والجزاء .. نعوذ بالله من هذا الكفر الذى فاق كفر إبليس .

(٣) انطبقات الكبرى للشعرانى — جزء اول ص ١٦١ .

ثمان وأربعين وتسعمائة ، وكان هناك بعض الأولياء ، فأخبرني أن سيدي أحمد رضى الله عنه كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول :  
أبطأ عبد الوهاب- أى الشعرانى - ما جاء !! » .

ثم يقول الشعرانى :

« وأردت التخلّف سنة من السفين ، فرأيت سيدي أحمد رضى الله عنه ومعه جريدة خضراء ، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار ، والناس خلفه ، ويمينه وشماله ، أمم وخلائق لا يحصون ، فر على وأنا بمصر<sup>(١)</sup> ، فقال : أما تذهب ؟ قلت : بى وجع فقال : الوجع لا يمنع الحب !! ثم أراى خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم ، الأحياء والأموات<sup>(٢)</sup> ، والزمنى ، بأكفانهم يمشون ويزحفون معه ، يحضرون المولد . . ثم أراى جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الفرنج ، مقيدى مغلولين ، ويزحفون على متاعدهم ، وقال : انظر إلى هؤلاء فى هذا الحال ولا يتخلّفون ، فتوى عزمى على الحضور ، فقلت إن شاء الله تعالى نحضر !! فقال : لا بد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين عظيمين ، أسودين كالأفيال ، وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به . . فأخبرت بذلك سيدي محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، فقال : « سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم<sup>(٣)</sup> ، وسيدي أحمد رضى الله عنه يدعو الناس بنفسه إلى الحضور ، ثم قال : إن سيدي الشيخ محمد السروى رضى الله عنه ، تخلّف سنة عن الحضور ، فعاتبه سيدي أحمد البدوى ، رضى الله عنه ، وقال له : موضع

(١) أى بالقاهرة .

(٢) أى ليس هذا شأن البدوى وتخذه ، بل هو شأن كل صاحب ضريح .

يقام له مولد كل عام .

يحضر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، معه وأصحابهم ، والأولياء ، رضى الله عنهم ، وما تحضره أنت ؟؟ فخرج السروى إلى المولد ، فوجد الناس راجعين ، وفاته الاجتماع ، فكان يلبس ثيابهم ، ويمر بها على وجهه !! » .

ونقول : إن هذا الكلام الذى صدر من الشعرانى ، فى طبقاته ، إن كان فى حال سكر من شراب ، أو غيبة وعى من حشيشة ، فعليه إثم ما شرب من خمر ، أو دخن من حشيشة ، ولا يؤاخذ بما قال . . أما إن كان قد كتب ذلك وهو فى وعيه ، فهو بلسان الشيطان نطق ، ومن فيه استعمل ما كتب ، وبذلك يدخل فى زمرة شياطين الإنس الذين أمرنا الله تعالى أن نستعين بالله منهم ، كما نستعين من شياطين الجن ! « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

ثم استمع ، وألق ما تسمع فى أدراج الرياح ، لما يحدث به الشعرانى ، عن أحمد البدوى ، يقول الشعرانى :

« وقد اجتمعت مرة أنا وأخى أبو المباس الحريثى ، رحمه الله ، بولى من أولياء الهند<sup>(٢)</sup> ، بمصر المحروسة ، فقال رضى الله عنه : ضيفونى ، فإنى

(٢) الطبقات الكبرى للشعرانى - جزء اول ص ١٦٢ . مطبعة صبيح بالأزهر .

(١) لاشك ان هذا شيطان جاء الى لشعرانى وصاحبه فى صورة ولى لميوسوس له بهذا المضلل ، والله تعالى يقول : « وان الشياطين ليرحون الى أولئائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون » ( الأنعام : ١٢١ )

غريب ، وكان معه عشرة أنفس ، فصنعت له فطيراً وعسلاً ، فأكل . . فقلت له : من أى البلاد ؟ فقال : من الهند . . فقلت : ما حاجتك فى مصر ؟ فقال : حضرنا مولد سيدى أحمد البدوى — رضى الله عنه .. فقلت له : متى خرجت من الهند ؟ فقال : خرجنا يوم الثلاثاء ، فقمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر — الجيلانى — رضى الله عنه ، ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدى أحمد البدوى — رضى الله عنه — بطنطا ؟ ثم بعقب الشعرانى على هذا بقوله :

« فتمجبنا من ذلك ، فقال — أى الولى الهندى : — الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل . . ثم قلنا لهم — أى لهذا الولى ورقائه : من عرفكم بسيدى أحمد رضى الله عنه فى بلاد الهند ؟ فقال : يا للعجب ، أطفالنا الصغار لا يلحفون إلا ببركة سيدى أحمد ، وهو من أعظم أيمانهم <sup>(١)</sup> » ١١

ونقول للشعرانى ، مدعى الولاية ، والتغطية : إذا كان هذا الهندى قد جهل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » وأن الحلف بغير الله باب من أبواب الشرك — أما كان عليه أن يبين له ذلك ويقول له إن الحلف بالبدوى ، وغيره من نبي أوولى ، هو وجه غليظ منكر من وجوه الشرك ؟

ولسكن الشعرانى ، يزكى هذا الشرك ، ويقيم منه دليلاً للعامة وأشباه العامة على أن أصدق الأيمان وآكدها ما كان حلفاً ببركة البدوى وغيره من الجائمين تحت القباب ، التى لعن رسول الله من يقيمونها ، ومن يدعون إلى إقامتها عليهم .

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى — جزء أول ص ١٦٣ .

وينقل الشعرانى عن شيخه محمد الشناوى ، فيقول :

« وأخبرنى شيخى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، أن شخصاً أنكر حضور مولد سيدى أحمد البدوى ، فسلب منه الإيمان ، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه ، فقال - أى البدوى - بشرط ألا تعود ، فقال : نعم ، فرد عليه ثوب إيمانه ، ثم قال له : وماذا تفكر هليفاً ؟ قال اختلاط الرجال بالنساء !! »

« فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه : ذلك واقع فى الطواف<sup>(١)</sup> ، ولم يمنع أحد منه . . ثم قال - البدوى : وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته . . وإذا كنت أوعى الوحوش فى البرارى والسماك فى البحار ، وأحبيهم من بعضهم بعضاً ، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى<sup>(٢)</sup> . »

إن الشعرانى - فيما نقله عن البدوى وهو فى عالم الأموات - يجعل الطواف بضريح البدوى شعيرة من شعائر الدين مثل الطواف ببית الله الحرام ، ويجعل الحج إلى ضريحه فريضة كفر بضة الحج . . وعذا كفر بالله . وتبديل لشرع الله .

كل هذا الهراء يضعه الشعرانى على لسان أحمد البدوى ، نقلاً عن شيخه محمد الشناوى . . وأحمد البدوى ثاو تحت التراب ، وفى دار غير

(١) يعنى الطواف بالببيت الحرام ، فى الحج العمرة .

(٢) التطبيقات الكبرى ، للشعرانى ص ١٦٣ .



تلك الدار التي يخاطب فيها حياً من الأحياء ، حيث يسلب منه الإيمان لأنه أنكر حضور مولده ، ثم يرد إليه إيمانه ، بعد أن جاءه مستغفراً تائباً !!

ثم أى استرخاص للعقل ، وامتحان له من أن يتحدث إنسان بأن أحداً من الناس يرمى الوحوش في البراري ، والأسماك في البحار ويحميها من أن يعقدي بعضها على بعض ؟ فهل اختفى هذا الصراع الدموي بين الوحوش ، وعدوان القوي منها على الضعيف ؟ وهل قطعت الأسماك عاداتها من أكل كبارها لصغارها ؟ فهل يوجد إنسان فيه قطرة من ماء الحياء ، أو إثارة من وعي ، يقول مثل هذا الكلام المفصوح الذي يقوم الواقع للشهود للناس جميعاً على تكذيبه ، والسخرية من قائله أو ناقله !!

ثم إذا كان البدوي يحمي الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، أما كان الأولى به أن يحمي الناس من عدوان بعضهم على بعض ؟ أفليس البر بالأقربين أولى من البر بغيرهم ؟ ولكن المثل يقول : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! ولكن لحياء عند المجانين والأطفال ، والمتصوفة !

ثم إذا كان البدوي يحمي الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، فلماذا لم يحم ديار الإسلام من هدوان الصليبيين ، وغيرهم من احتلال ديارهم ، وامتحان كرامتهم ، وانتهاك أموالهم وأعراضهم ؟ ثم لماذا لم يحم القدس من انتهاك اليهود لحرمته ، والتسلط على المسلمين في الأراضي المقدسة ؟

ولولا أن ناقل الكفر لا يأثم بنقله ، بل يؤثر على ذلك ، إذا كان مقصوده بنقله أن يكشف عن وجوهه المنكورة ، وأن يحذر الناس منه ، كما

يفعل الطبيب بالكشف عن أعراض وباء من الأوبئة ، ويحذر الناس منه<sup>(١)</sup> لولا ذلك ما تقلنا هذا الكفر والإلحاد ، الذى تفيض به كتب الصوفية ، من نحو بعث الموتى من قبورهم وسوقهم إلى حضور موالد أصحاب الأضرحة منهم ، سواء أكان هؤلاء الأموات مسلمين أو كفاراً ، ومثل خروج أصحاب هذه الأضرحة إلى الحياة ومخالطة الناس والتحدث إليهم بما يشاءون . فهذا الدجل الذى تستهوى به العامة ، ذائع منشور فى كتب يتعافت عليها السذج والأغفال من المسلمين ، وليس فيها إلا ما يؤكد هذا الدجل . . فالرد على ما تحوى هذه الكتب ، ودحضه ، لا يكون إلا بنقل هذه الأكاذيب ، ثم الكشف عن محاملها الزائفة الزائغة ، التى لا يقبلها ذو ذرة من عقل . . وهذا ما يوجبه الدين من النصيح لله ولرسوله وللمؤمنين !

ولمأذن ، فلنمض فى نقل بعض هذه الكفريات التى ينشرها المتصوفة بين جمهور المسلمين ، لنكشف زيفها ونحذر المسلمين من الوقوع فى شباكه .

يقول الشيخ محمد أبو النواهب الشاذلى ، مبرراً ما يقع من بعض المتصوفة من إتيان المفكرات جهراً على أعين الناس — يقول :

---

(١) لقد حقق علماء السلف — رضوان الله عليهم — هذه المسألة « فانه حين اخرج المحاسبى كتابه فى الرد على المعنزة ، أنكر عليه الامام احمد نقل اقوالهم ، فقال له المحاسبى : الرد على هل البدعة فرض فقال الامام احمد نعم ولكنك حكيت شبهتهم اولا ، ثم اجبت عنها ، فكيف تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، او ينظر الى الجواب ، ولا يفهم كنهه ؟ » ( من كتاب المنفذ من الضلال للغزالى ص : ٣٤ - ٣٥ ) . ونقول : ان القرآن الكريم ، قد ذكر مقولات لصالين والملحدين والمشركين وتولى دحضها وكشفها زينها ولا حجة للامام احمد فيما رد به على المحاسبى ويقول الغزالى : ما ذكره احمد بن حنبل حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ، ولم تنتشر ، فأما اذا انتشرت ، الجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها الا بعد الحكاية لها « ( المنفذ من الضلال ) للغزالى ص ٣٥ .

« وقوع بعضهم في بعض الحرمات ، ليستربها على أهل الزمان ، إنما يقاس على من لم يجد ما يسبغ به اللقمة إلا الحمر ، قال ذلك الغزالي . . وإذا ساغ ذلك لأجل حياة دنيوية ، فأولى ما يفوت به حياة أخروية ، فلا يقال ارتكابهم لهذا ، فيه ما يوقع الناس في سوء الظن بهم ، وهو حرام ، لأننا نقول إن من أخلاقهم العفو والصفح ، وعدم المؤاخضة ، بل هم رحمة بين أظهر العباد » ( الطبقات الكبرى ، للشعراني ، جزء ٢ ص ٦٤ ) .

وبعاق الشعراني على هذا بقوله : ولو سامح العبد ، فحق الله باق ، من حيث أنه تعدي حدود الله تعالى ، فالإشكال باق ، والله أعلم !! » .

ونقول : إن الجهر بالمنكر ، فوق ما فيه من جرم غليظ بالتمعدي لحدود الله ، هو جرم فوق جرم ، لإغراء الناس به ، وإشاعة المنكرات فيهم والله تعالى يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » (سورة النور : ١٩) . . فإذا استباح الإنسان لنفسه أن يرتكب المنكرات ، فإن مجاهرته بذلك ، هو دعوة شيطانية إلى مقارفة المنكرات ، وبخاصة إذا كان ذلك ممن يظن الناس بهم أنهم من أولياء الله . . وإنه لمكر عظيم بالله ، وكيد شديد لدين الله أن يتعري المسلم فيكشف سوائه للناس ، وفي الأثر : « إذا بليتتم فاستقروا » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ، ثم يصبح قد ستره ربه ، فيقول : يا فلان قد عاتى البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ، وصبح يكشف ستر الله عنه »<sup>(١)</sup> . . فهذا شأن من يذكر فعله الفاحشة حكاية بلسانه ،

(١) رواه البخاري ومسلم ، عن أبي هريرة .

فكيف بمن يأتيها جهرة على أعين الناس ، ثم كيف به إذا كان ممن يلبس ثوب الصلاح والولاية ؟

أفليس ذلك فتنة للناس باستباحة حرمة الله ، وإتيان المنكرات جهاراً على أعين الناس ؟ إن الجريمة هنا جريمتان . . جريمة في حق مرتكبها ثم جرائم تقع عليه من الذين تأسوا به فيما فعل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سن سنة سيئة في الإسلام ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . ( رواه مسلم ، عن جرير ابن عبد الله ) .

ويقول الشعرائي في طبقاته ، عن الشيخ أبي علي (١) :

« كان هذا الشيخ — رضى الله عنه — من كل العارفين ، وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات . . . تدخل عليه بعض الأوقات فتجده جندياً ، ثم تدخل عليه فتجده فيلاً ، ثم تدخل عليه فتجده صبياً ، وهكذا . . » (٢) .

ونسأل : إذا قتل إنسان هذا الشيخ وهو في صورة أسد أو فيل ، فهل يكون عليه وزر ؟ وهل يقتص منه ؟ ويقول الشعرائي عن هذا الشيخ :

« وكان يقبض من الأرض ، ويناول الناس الذهب والفضة ، وقال

(١) الطبقات الكبرى للشعرائي ، جزء ٢ ص ٨٠ .

(٢) مات سنة نيف وخمسين وثمانئة ، ودفن بالمحلة من مدن مصر .

أعداؤه إن هذا من السكيمياء ، فدخل عليه بعضهم ، فقطعوه بالسيوف ،  
ووضعوه في تليس — أى كيس كبير — ورموه على السكوم ، فلما أصبحوا  
وجدوا الشيخ جالسا ، فقال لهم : « غرکم القهر !! » أى خدعتم !!

ونقول — إن صح هذا الخبر — فما هذا الذى ظهر فى صورة هذا الدجال  
إلا شيطان ، يقرر بالناس ، ويفسد عليهم دينهم .

ويقول الشعرانى عن أحمد الفرغل المدفون بجلدة أبى تيج بمصر :  
« دخل عليه بعض الرهبان ، فاشتبهى عليه بطيخاً ، فأتاه به ، وقال :  
وعزة ربى لم أجده إلا خاف جبل قاف !!

وهذا يمين كاذب فاجر ، إذ لا وجود لجبل اسمه جبل قاف !!

ويقول الشعرانى ، عن أحمد الفرغل هذا :

« وخطف التمساح بنت نخيمر النقيب ، فجاء وهو يبكى لى الشيخ ، فقال  
له الشيخ : اذهب إلى الموضع الذى خطفها منه ، وناد بأعلى صوتك : يا تمساح  
تعال كلم الفرغل ، فخرج التمساح من البحر ، وطلع كالمركب ، وهو ماش ،  
والخلق بين يديه جارية يميناً وشمالاً إلى أن وقف على باب الدار ، فأمر الشيخ  
رضى الله عنه الحداد بخلع جميع أسنانه ، وأمره بلفظها من بطنه ، فلفظ البنت  
حية مدهوشة ، وأخذ على التمساح عهداً ، ألا يعود يخطف أحداً من بلده  
ما دام يعيش ، ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر<sup>(١)</sup> !! » .

وهكذا يفيض كتاب الشعرانى بذكر مثل هذه الخرافات عن المهايل

(١) الطيقات الكبرى للشعرانى ٢ ص ٩٥ .

الذين يعيشون بين الناس ، فيأتون بقلك الخوارق ، التي لا تخرج إلا من  
عقول استولى عليها الشيطان وصور لها ما صور من هذه الخرافات ، التي  
يهلئ بها الأغبياء المغفلون من الناس ، والتي يعيش على ثمراتها النكدية  
المشعوذون من أهل التصوف !!

### الألغاز والمعميات في عالم التصوف :

وإذا كان المتصوفة يجاهرون بمثل هذه الحكايات التي يتناقضونها عن المهاميل  
الذين يتخذون الأضرحة سكناً لهم يمارسون فيها الشعوذة ، وعن شيوخهم  
أصحاب القباب — فإن لهم مع ذلك ألفاظاً وهبارات يلقونها إلى الناس  
لا يفهم لها أحد معنى ، يخادعون بها الناس ويقولون عنها أنها تحمل أسراراً  
لا يطاع عليها إلا من كشف الله له الحجاب من أولياء الله ، وأن من تعبد  
بها لله ، فتح الله عليه ، وخاع عليه خلعة الولاية .

وننقل هنا بعض ما نقله الشعرائي من رسائل إبراهيم الدسوقي إلى بعض  
مريديه ، فيقول :

« كتب الدسوقي رضى الله عنه إلى بعض مريديه ، بعد السلام ، وإلى  
أحب ولدى ، وباطنى خلى من الحقد والحسد ، ولا بباطنى شظا ، ولا حريق  
لظى ، ولا جرى من مضى ، ولا مضى غضا ، ولا مكص نصا ، ولا سقط  
نطا ، ولا نطب غظا - ولا عطل خطا ، ولا سلب سبا ، ولا عقب فجأ . . .  
ولا حواد كنس ، ولا عنس كنس ، ولا عسمس خندس ، ولا جيقل خندس  
ولا سطاريس ، ولا عبطافيس ، ولا هطاموش ، ولا سطارميش ، ولا مشوش

أريش ، ولا ركاش قوش ، . . ولا قداد ولا انكاد ، ولا بهداد ، ولا  
شهداد ، . . ولا يد من العيون ، وما لنا فعل إلا في الخير والنوال ؟  
انتهى (١) .

ونسأل : إذا كان لهذه المعميات معنى ، فلهذا عدل الدسوق عن التعبير  
عنها باللغة العربية لتليذه ؟ ولماذا خاطبه بهذا اللسان الأعجمي أو الشيطاني ؟  
ثم إذا كان هذا اللسان معروفاً لتليذه ، فلماذا حرص المتصوفة على تدليه  
بين الناس وهم لا يفهمون له معنى ؟ إن ذلك بلاد وفتنة للناس . . ورسول الله  
صلى الله عليه وسلم يقول : « خاطبوا الناس بما يفهمون ودعوا ما ينكرون  
أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » ولكن المتصوفة لا يفتقدون بشيء من  
كتاب الله ، وسنة رسول الله ، بل هم عالم وحده ، لهم دينهم وللمسلمين دينهم .

#### عبادة الأوثان عند المتصوفة :

ثم هذه القبور ، وتلك الأضرحة والقباب المقامة عليها التي يحج إليها  
المتصوفة ويحرضون الناس على السعي إليها ، والطواف بها ، واللجأ إليها عند  
الشدائد لكشف الكروب ، وقضاء الحاجات - أليس هذا من الشرك الذي  
كان عليه أهل الجاهلية ، والذي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لطمس  
معامله ، وتوجيه وجوه الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؟

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه :

« فإن المسلمين مغمقون على ما علموه - بالاضطرار - من دين الإسلام

(١) اللطيفات الكبرى للمتعراني جزء ١ ص ١٤٥ .

أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يتوكل إلا على الله ، وأن من عبد ملكاً مقرباً ، أو نبياً مرسلًا ، أو دعاه ، أو استغاث به ، فهو مشرك . . فلا يجوز في دين الله ، أن يقول قائل ، يا جبريل أو يا ميكائيل ، أو يا إبراهيم أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لي ، أو ارحمني ، أو ارزقني ، أو انصرني أو اكسني ، أو أجرني من عدوي ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خصائص الإلهية . وهي مسائل شريفة معروفة ، قد بينها العلماء ، وذكروا الفرق بين حدود الله التي يختص بها الرسل ، والحقوق التي له ، كما يمين ذلك سبحانه في قوله تعالى : « لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .  
ورسوله ، وتعزروه . وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً » ( الفتح : ٩ ) .  
فالتعزير والتوقير للرسول ، والتسبيح بكرة وأصيلاً لله تعالى ، وكما قال تعالى :  
« ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتهقه ، فأولئك هم الفائزون » .  
( النور : ٥١ ) . فالطاعة لله ولرسوله ، والخشية والتقوى لله وحده .

ثم يقول ابن تيمية - رضى الله عنه :

« ولأجل هذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم ، من اتخاذ المساجد على القبور وأن يجعل لله نداً في خصائص الربوبية . . ففي الصحيحين ، عنه صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .  
وفي صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك » (١) .

(١) من كتاب : محنة شيخ الإسلام ابن تيمية : ص ٢٩ - ٣٠ .



وعبادة الموتى من الديانات الوثنية القديمة ، حيث كان الناس يومئذ يعتقدون أن الموتى فيهم القدرة الخفية التي يمكنهم بها إلحاق الأذى بمن آذاهم في دنياهم ، ولهذا خافهم الأحياء ، وتقدموا إليهم بالهدايا والقرابين وسعوا إلى قبورهم لاسترضائهم ، وتوسلوا إليهم بالتعاويز والأدعية ، ثم انتهى بهم الأمر إلى عبادتهم ، فالخوف أبو الآلهة ، كما يقولون .

وهكذا انتقل هذا الميراث الوثني إلى الأجيال المتعاقبة ، وكان للمتصوفة نصيبهم الأوفى من هذا الميراث المشئوم ! !

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« وأهل الشرك والبدع ، يعظمون القبور ، ومشاهد المراتى ، فيدعون الميت ، أو يدعون به ، أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب . . وهذا من ضلالات الشياطين ، فقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وثبت في صحيح مسلم ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن من أمن الناس على ، في صحبة ، وفي ذات يد ، أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلاً من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم — يعنى نفسه — صلى الله عليه وسلم — خليل الله . . لا يبقين في المسجد خوذة — أى طاقة — إلا سدت ، إلا خوذة أبى بكر . . إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

« وفي الصحيحين : أنه صلى الله عليه وسلم ، ذكر له في مرضه ، كنيسة

بأرض الحبشة ، وذكروا من حسناتها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك ، إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصورا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وفي الصحيح ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها <sup>(١)</sup> .

وقد أملى الشيطان على المتصوفة أن ينسخوا أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير من بناء المساجد على القبور ، ومن الاتصال بالأضرحة ، وطلب العون والغوث من الراقدين تحت ترابها ، وذلك بأن افترضوا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فنسبوا إليه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إذا أعيذكُم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » وإن الرسول الكريم للمؤمن على ما أوحى إليه ربه ، لمعصوم من أن يخالف قوله تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » ( البقره : ١٨ ) وقوله سبحانه : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ » ( النمل : ٦٢ ) . . . وقوله تبارك اسمه : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » ( فصلت : ٦٠ ) . . . وقوله جل شأنه : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » ( الأحقاف : ٥ ) وقوله تبارك وتعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا » ( الاسراء : ٥٦ ) . . . وقوله جل وعلا : « والذين تدعون من دونه

---

(١) من كتاب الفرقان ، بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ج لابن تيمية : ص : ٧٤ .

ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعو دعاءكم ، ولو سمعوا استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبتلك مثل خبير » ( فاطر : ١٣ — ١٤ ) . . وقوله سبحانه : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » ( الرعد : ١٤ ) . . وهكذا إلى عشرات الآيات التي تبطل كل دعاء يدعى به إلى غير الله تعالى ، ويؤثم صاحبه ، ويدخله في زمرة المشركين . .

فكيف مع هذا تباعج الجراءة ببعض المتصوفة إلى نسبة هذا القول الشرقي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالالتجاء إلى أصحاب القبور ، إذا حزب بالئاس الأمر ، وضاعت بهم السبل ؟

إنه إذا جاز لإنسان أن يستعين بالأحياء في أمر يعجز عنه ، فإنه لا يجوز لعاقل أن يلجأ إلى الموتى يطلب العون منهم . . إن الأحياء قادرين على التصرف في كثير من الأمور التي بين أيديهم ، فيعيثون ، ويعانون ، يأخذون ويعطون ، والله تعالى يتولى : وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . ( المائدة : ٢ ) . . أما الموتى — أيّا كانوا من الصالح والتقوى — فإنهم أفضوا إلى ربهم بما عملوا في دنياهم ، وهم في حاجة إلى الأحياء بالدعاء لهم ، وليس للأحياء شيء يصل إليهم من الأموات ، وقد علمنا الله تعالى أن ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان « فقال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » ( الحشر : ١٠ ) . .

فهل بعد هذا يكون لمسلم حريص على دينه ، حفيظ على سلامته ، أن يسعى إلى عالم الأموات طالباً الغوث والنجدة منهم ، مقدماً لهم النذور والقرايين كأنما هي ثمن نرضاهم عنه؟

إن ذلك لا يكون إلا بمن أضلهم الشيطان فأراهم الباطل حقاً، والضلال هدى ، والله تعالى يقول : « أفئن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون » ( فاطر ٨٠ ) . . ويقول سبحانه : « كذلك زين للمفسرين ما كانوا يعملون » ( يونس : ١٢ ) .

إن حديث الصوفية عن الموتى ، أكثر من حديثهم عن الأحياء ، وتعاملهم مع أصحاب القبور أكثر من تعاملهم في ميادين الحياة ، ووجوه العمل . . إنهم يتخذون الأضرحة والقباب مأوى لهم يحركون شفاهم ، وبرقصون مسابجهم ، ويمدون أيديهم لا لله ، وللسكن للذين أغروهم بالتبرك بأصحاب الأضرحة . . ولو كانوا صادقين في هذا الذي يدعون الناس إليه ، لذاتهم بركة من تحت الضريح ، ولما مدوا أيديهم إلى الناس سائلين !!

يقول المرحوم الأستاذ « أبو الوفا محمد درويش » وكان من المجاهدين في سبيل الله ، قد نصب نفسه لمحاربة البدع التي تفتت في مصر ، كما تفتت في كثير غيرها من مواطن الإسلام .

يقول : رحمه الله تعالى ، كاشفاً عما يفعله مشايخ الطرق ، عن وسائل الخداع والتوبيه على العامة ، حتى يسلبوهم أقواتهم ، بما يلوحون لهم به من بركات ، ونفحات !! يقول :

« أعرف قرية في إقليم من أقاليم الصعيد بمصر - لا يربو عدد سكانها على ألفي نسمة . . أحد ساداتها وكبرائها ، مريد لشيخ من هؤلاء الشيوخ - شيوخ الصوفية - الذين يعتبرون في قرى الصعيد ملوكاً تنقصهم الصوالة والغيجان . . فرض ذلك الكبير على أهل قريته المساكين سقة أرادب من القمح ، تجمع كل عام ، ويسهم فيها كل زارع بنصيبه المفروض !!

« ولست أحدثك عن القرى الكبيرة الواسعة الثراء ، الكثيرة الغلات ، فإن المبع فيها أثقل ، والضرائب أفدح . .

« ويجمع السادة الضرائب ، ثم يقدمونها إلى الشيخ ، كلها هبة خالصة منهم !!

« وهناك ضرائب أخرى ، تدفع على شكل ولائم تقام للشيخ وشيوخه المقربين ، ولمن يسير في ركبهم من التابعين . . تلك الولائم التي تراق فيها دماء الكباش والديوك الرومية والمصرية ، والأوز والدجاج والحمام ، بغير تقدير ولا حساب !

« ومن هؤلاء الشيوخ من إذا انقضت أيام غزوتهم للقرية ، يمرون بيوتها بيتاً بيتاً ، فإذا دخلوا في بيت طافوا بحجراته . حجرة حجرة . حتى لما هم ليدخلون في حظائر الغنم ومخادع النساء ، ليباركوا عليها ، ثم لا يخرجون إلا وهم محملون بهدايا النساء ، من البيض ، والدجاج ، والسمن ، والجبن . وما إلى ذلك . مما تطوله أيدي النساء . ولو كان من حليهن !

ثم يقول المرحوم أبو الوفاء درويش :

« وللشيخ أبواق ، يذيعون في أهل القرى ، فضل الشيخ ، وكرامات الشيخ ، وتضحية الشيخ ، وتقوى الشيخ ، وصلاح الشيخ ، ويقول لهم : بينما عالية القوم يذهبون في هذه الأيام إلى أقصى الشمال ، حيث الهواء الطلق الرقيق والنسيم البليل ، والجو الرطب المنعش ، وشاطئ البحر الزاخر بألوان المتع والفتون - إذا الشيخ تزهد نفسه في كل هذا ، ويأتى إليكم ، في هذا الجو الخلاق ، والحر اللافح ، حباً فيكم ، وتضحية بالراحة في سبيلكم ، فهو جدير بكل إكرام ، خليك بكل تقدير !!

« والله يعلم في أى سبيل ضحى ، وإلى أى هدف صوب ريش السهام !! »<sup>(١)</sup>.

وأشهد لقد كان يزور قريتنا - - وهى قرية من أعمال محافظة سوهاج بمصر ، يزورها كل عام شيخ من مشايخ الطرق الصوفية المعروفة في القاهرة فكانت تقام له ليلة يشهدها ألوف من أهل القرية ، ومن القرى المجاورة التى زارها أو سيزورها الشيخ ، فتعمد الموائد لهذه الألوف ، والتى يتسكف لها أصحاب الدعوة ما لا طاقة لهم به ، مما يثقل كاهلهم بالديون ، التى تتراكم عاماً بعد عام ، حتى تخرب البيوت العامة ، ويتشرد أهلها الذين كانوا من وجوه القوم في قريتهم .

وكان الشيخ يقطع رحلته كل بضعة أيام ، وهو يحبب القرى ، فيسافر

(١) صيحة الحق للشيخ ابو الوفاء درويش : ص ٥٢ - ٥٤ .

إلى القاهرة في ديوان خاص ، مكيف الهواء ، وهو يحمل معه ما جمع من مال ، ومتاع . !

وأشهد ، لقد تسلط شيخ من هؤلاء الشيوخ . على عمدة قريننا ، فأفسد عليه دينه وعقله ، حتى لقد ظن بهذا الشيطان أنه ولي من أولياء الله ، وأنه هو الذى يحميه من كيد أعدائه ، ويحفظ له منصب العمدة !!

وأشهد ، لقد كان هذا الشيطان — وقد تمكن من التساط على العمدة — يأمر بإحضار زجاجات الويسكى من الخمر . فى صندوق يحمل إليه من البندر فيسارع العمدة باستدعاء من يذهب فوراً إلى البندر ، لاستحضار ما طلب الشيخ ، ولو كان بمئات الجنيهات ، والعمدة يدفع المطلوب راضياً سعيداً بما حقق للشيخ من أمغيات !!

والشيخ أو الشيطان ، لا يشرب الخمر سراً فإنه يعلم أن ذلك فضيحة له ولكنه يشربها جهراً على أعين الناس ، ويعبها عباً : كأنها الماء ، وذلك لكثرة معاقرة لها ، وإدما نه عليها !!

كل ذلك والقوم شهود ، فإذا همس أحدهم بكلمة إنكار ، قام فى وجهه من يرد عليه قائلاً : لا تعترض ، إن هذا الخمر يتحول فى يد الشيخ إلى ماء !! فانظر أيها المسلم ، إلى أى حد يبالغ السفه بالناس ، وما يدخل عليهم من دجل المدجلين وشعوذة المشعوذين !!

ولا تسأل بعد ذلك عما أصاب العمدة من بركات هذا الشيخ المدجل ، الذى يتزيا بزى القصوف ! لقد تدهورت صحة هذا العمدة جسداً وهدماً ،

وذهب كل ما كان قد ورث عن والده ، وما جمع هو من مال قبل أن يقتل  
بهذا الشيطان ، ففعل من منصبه ، وانزوى في بيته حطاماً بالياً . . ويبحث  
الناس عن هذا الشيخ فلا يرون له وجهاً ولا يسمعون عنه خبراً . . لقد اخفى  
كما تخفى الخفافيش حين يهجم عليها ضوء النهار !

ونذكر هنا قول أبي العلاء المعري ، الذي فصح به صورة من تلك  
الصور ، للمدحلين والمشعوذين ممن يدخلون على الناس من جهة الدين ، وما  
هم من الدين على شيء . . يقول المعري :

رويدك قد غرت وأنت حر      بصاحب حيلة يعظ النساء  
يحرم فيكم الصهباء صبيحاً      وبشرها على عمد مسباء  
يقول لكم غدوت بلا كساء      وفي لذاتها رهن الكساء

فإذا كان هذا شأن الأحياء من أدعياء الولاية ، وما يقتل به الناس منهم  
من خداع وتضليل ، فإن ما يساق إلى الناس من عالم الموتى ، أشد خطراً ،  
وأعظم بلاء ، وذلك بما ينسب إليهم من كرامات ، وما يروى عنهم من  
خوارق ، في كشف الكروب ، وشفاء المرضى ، وقضاء الحوائج ، وغير ذلك  
مما يحمل العوام وأشباه العوام على التهافت على قبورهم ، والتخاشع عندها ،  
وسفع دموع الذلة والمسكنة عندها .

واقراً أى كتاب من كتب المتصوفة ، يجد العجب مما يروى عن  
كرامات الأموات ، حتى إحياء الموتى ، كما ذكر الشعرائى فى طبقاته عن  
أحمد البدوى ، وأنه كان كل هام عند الاحتفال بمولده ، يطوف بالموتى فى



شقي أقطار الأرض، ومن جميع الملل والنحل، فيبعثهم من مرقدهم، وبسوقهم  
بأ كفانهم إلى ساحة مولده ! (١).

والدسوقي الذى أغلق أبواب النيران، وفتح أبواب الجنان، وخلع  
بيده الولاية على كل ولى (٢).

\* \* \*

ونحنم هذا الفصل بهذا النداء الحار الخالص، الذى يهتف به من أعماقه  
المرحوم أبو الوفاء محمد درويش - خالصاً لوجه الله، وأداء لما افترض الله على  
المسلم من النصيح للمسلمين . . لعل كلمة حق تدخل إلى قلوب هؤلاء الشاردين  
عن دين الله، الواقعين فى المآثم، فتززع من عقولهم وقلوبهم ما اميلات  
به من هلوسات ووسوسات، ألقى بها إليهم الشيطان وأولياء الشيطان  
فأفسدت عقيدتهم، وذهبت بمعالم إنسانيتهم، وإذا هم كالأنعام . أو هم  
أضل سبيلاً .

يقول المرجوم الأسفاذ « أبو الوفاء درويش » :

« ما أشبه الليلة بالبارحة ؟

« أراد رب العزة جل ثناؤه، أن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره  
الكافرون، فأتاح له فى كل جيل، وفى كل قبيل، من يقوم بدعوة الحق  
صريحة لا غموض فيها. ولا التواء، ومن يرسل صيحة الحق مدوية، تنبه  
الغافلين، وتوقظ النائمين، ومن يبعث ضياء الحق وهاجاً، يذهب بظلمات

(١) انظر طبقات الشعرا فى جزء اول ص ١٦٣ .

(٢) انظر طبقات الشعرا فى جزء اول ص ١٦٥ .

الأباطيل المتراكمة ، ومن يرسل رياح الحق فيه ، تبدد رماد الخرافات  
من جوهر الحقائق .

« ولكن الحق يؤذى المبطلين ، الذين لا يأكلون خبزهم بعمق جبينهم ،  
بل بفساد دينهم ! !

« فالمدجال الذي يحترف التسكّن بالغيب ، ويضع التأمّ والتولات  
والتناجيس<sup>(١)</sup> ويزعم مشاركة الله في الحيلولة بين المرء وقلبه ، فيبدل  
البغض حباً ، والحب بغضاً ، يأخذ الرجال من نسائهم ، ويسخر الجن  
والمردة والشياطين لهم .

« وشيخ الطريق الذي يزعم أن بيده مفاتيح الفردوس » يفتحها لمن  
يشاء ويغلقها دون من يشاء ، وأن النار في قبضته ، يحمدها دون مريديه  
وإن كان أفسق الفاسقين ، ويسعرها لغيرهم ، وإن كانوا أصلح الصالحين !

« كل أولئك تؤذيهم دعوة الحق ، لأنها تنضب خزائنها ، وتقف  
دون السهل الجراف من العطايا والمن والهبات ، المقدف إلى ديارهم ،  
وتحول دون القبلات التي تنصب على راحتهم ، ودون القامات التي  
تغصب لمروهم ، وتنعني لتحياتهم .

---

(١) التماثيم : جمع تميمة ، وهي ما يعلقها العوام من خرز في رقاب  
صغارهم ، منعاً للحسد في زعمهم ، كما أوحى إليهم بذلك المشعوذون الدجالون  
•• والتولات جمع تولة ، وهي ضروب من الاحجية والبخور ، وغير ذلك مما  
يزعمه محترفو النصب من أنه ترياق الحب للمحبين والعاشقين ••  
والتناجيس ، جمع تنجيس وهو ما يتخذ من النجاسات ، لقضاء الحاجات ،  
وذلك من العبث بعقول العوام بهذه الغرائب •• كل هذا من الشرك ••

« وإنك لترى بعض المحافظين - أى حكام الأقاليم - الذين لا يسمحون لأحد أياً ما يكن، أن تقع عينه على نسائهم ، إلا الشيخ ، فإنه يراهن ، ويصافحهن ، ويمسح بيده ( المباركة ) على صدورهن ، ورءوسهن ، وبطونهن وظهرهن ثم يستبيح لنفسه أن يأخذ ما جعلن طول العام ، بكدي البين ، وعرق الجبين . . . »

ثم يقول الشيخ أبو الوفاء ، منذراً ، ومحذراً من هذا الضلال :  
« يا قوم !

« عفا الله عنكم ، وألهمكم الرشد والسداد ، فى أقوالكم وأفعالكم . . .  
الدنيا فانية فلا تؤثروها ، والآخرة باقية ، فلا تضيعوها ، والحق أحق أن  
يتبع ، وليس بعد الحق إلا الضلال ! !

يا قوم !

« تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم . ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به،  
شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

« يا قوم !

« ألا ترضون أن يكون كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأمين ، حكماً  
بيننا وبينكم ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم دعاء غير الله ؟ والاستعانة بغير الله ،  
أو التوسل بغير طاعة الله ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم البدع ومحدثات الأمور ، وما لم يكن  
عليه أمر الرسول الكريم ، وصحابته الأطهار ؟

( ١٧ - الصوف )

« وهل تجدون فيهما ما يبيح لكم أن تضيفوا شيئاً إلى الشريعة الكاملة التي شرعها العليم الحكيم ، على لسان رسوله الأمين ؟

« هل تجدون فيهما أن الغيب يعلمه غير الله » من الدجالين والمهرجين ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم أكل أموال الناس بالباطل ، باسم العادات والبركات والعطايا والهبات . ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم وضع التماثيل على القهور ، أو كسوتها بالثياب أو رفع القباب عليها ؟

« يا قوم !

« إقرأوا تاريخ الجاهلية الأولى ، لتقفوا منه على ما كانوا يعملون ، لتظمروا أنفسكم من أدرانهم ، وتربثوا بإيمانكم عن كفرهم ، وبقوحيدهم عن شرهم ؟

« ستعلمون إذا قرأتم القرآن الكريم ، أن الجاهليين ، كانوا إذا حزبههم أمر ، أو مسهم ضر ، ينسون الأصنام ، ويدعون رب الأنعام . . فإذا تجلى لكم ذلك بكميتهم على المسلمين الذين يدعون الموتى في السراء والضراء ، والنساء والبأساء .

ثم يحتم الأستاذ درويش صيحه بقوله :

« ولكن وا أسفاه !!

« هذه صيحة في واد ، ولن تصل إلا إلى آذان الأصحاء الذين هم

— ٢٥٩ —

هذه مستغفرون . . أما المرضى الذين هم إليها مفتقرون ، فهيات أن تصل  
إلى آذانهم ، هيات !!

« فدون ذلك العناد ، والتعصب ، والجود ، والتواصي بمقاطعة كتب  
الدعاة والمصلحين !!

« ولكننا بنصر الله واثقون . .

« ولا بد من صنعا ، وإن طال السفر !! » (١) .

وصدق الله العظيم : « إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء  
منكم أن يتقدم أو يتأخر » (سورة المدثر : ٢٥ — ٢٧) .

\* \* \*

---

(١) من كتاب صيحة الحق ، للمرحوم الاستاذ ابو الوفاء محمد درويش  
ص ٤٤ — ٤٩ .

## الحساب الختامى

### التصوف - ليس من الإسلام

الكفر الصراح ، دون النفاق وزرا ، وأهون منه خطباً . . لأن الكافر لا يخفى على المؤمن أمره ، ولا يغيب عنه خطرته ، فهو على حذر دائم منه ، وعلى بصيرة مما يقول أو يفعل . .

أما المنافق : الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، فهو عدو فى ثياب صديق ، غاش فى وجه ناصح ، يقع كثير من الناس فى شباك كيده ومكره ، ويشرب كثير من الناس السم من يده ، على أنه الشهد المصفى ! !

ولهذا جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، تطأ رؤوسهم أقدام الكافرين والملحدين . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » ( النساء : ١٤٥ ) . .

ويقول سبحانه : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هم حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » ( التوبة : ٦٨ ) . .  
فقدم المنافقين والمنافقات على الكفار ، فى موقف العذاب المقيم فى نار جهنم .

وإن الإسلام ، لم ياق من السكيد له ، ولأتباعه ، مثل ما اقى من أولئك المنافقين الذين يلبسون ثوب الاسلام ظاهراً ، يقتدون به ، ليأخذوا مكانهم بين المسلمين ، ثم ينفثون سمومهم فى العوام ، وأشباه العوام ، الذين تبهرهم

الأسكيات البراقة ، والبدع المستحدثة ، والدعوى الكاذبة ، أشبه بالفراش  
الذى إذا رأى ضوء النار انجذب إليه ، فكان للنار وقوداً . .

وفي الناس هوى إلى كل جديد غريب ، وتعلق بكل بدع مستحدث ،  
فإذا جاء ذلك عن طريق الدين كانت النفوس التى لم يتمكن منها الدين  
الصحيح ، ولم تتحصن بحصنه القوى المتين ، المقام على أسس من أحكامه  
ومبادئه . . كانت تلك النفوس مهيأة لتقبل هذه البدع ، والجري وراء هذا  
السراب الذى يلوح لها من خلال تلك الضلالات التى تخرج من أفواه ذوى  
الأهواء ، وطلاب الدنيا !

ومنذ صدر الإسلام الأول ﷺ ، ابغى الاسلام والمسلمون بهذا البلاء العظيم  
من المارقين عن الدين باسم الدين ، كالخوارج ، والمعتزلة ، وانغلاة فى على  
ابن أبى طالب — رضى الله عنه الذين ألوهوه ، حتى لقد خدد لهم — رضى  
الله عنه — الأخايد وأوقد فيها النار ، ثم عرضهم على النار ، لأن لم يرجعوا  
عن هذا الضلال . فلم يزد ذلك إلا إصراراً على أنه الإله . وسوس لهم  
الشيطان ، بما يقيم لهم الحجة على ضلالهم ، فقالوا لعل : الآن تأكد لنا أنك .  
الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله . . ثم ألقتوا بأنفسهم فى الأخاديد !!

وكان على رأس هذه الفقنة ، اليهودي المفاق . عبد الله بن سبأ . الذى  
دخل الإسلام نفاقاً ليكيد له والمسلمين <sup>(١)</sup> . . ثم توالدت من هذه

---

(١) يقول المقرئى غنى خطه : « قد اظهر عبد الله بن سبأ الحميرى  
اليهودى ، الاسلام ليكيد لأهله ، فكان هو اصل اشارة الناس على عثمان — رضى  
الله عنه ، وأحرق على رضى الله عنه طوائف كثيرة اعلنوا بالوحيته » .

الفرق الضالة . فرق . توالدت منها فرق ، كلها تأكيد لدين الله . وتعمل على تشتيت وحدة الأمة الاسلامية . وإضغاف شأنها ، حتى صارت الأمة أمما ، لا تجمعها جامعة من وحدة العقيدة ، فتمزقت أشلاؤها ، وذهب كل ذى هوى بشلو من أشلائها . .

ثم لقد كان لظهور بدعة القصوف — فى القرن الثانى الهجرى — على تلك الصورة التى يقوم عليها شيوخ ، اسكل منهم طريقته ، ولسكل طريقة مراسمها وطقوسها التى تجمع مع عليها ألوف مؤلفة من المريدين ، والتلاميذ ، وكل طريقة وسريدها وتلاميذها ، ترى نفسها أمة قائمة بذاتها ، تنصب للعداوة للطرق الأخرى ، وتنازعها سلطانها ونفوذا . .

ولأنه لى تجذب الطريقة إليها أكبر عدد من الناس ، كان عليها أن تجدد فى مراسمها وطقوسها ، وأن تستكثر من صور الأوراد والأذكار ، وأن تسوق زحوا من الكذب والافتراء ، لكرامات أقطابها وشيوخها الذين قاموا على الطريق !!

وكان من هذا التنافس فى كسب الشهرة والذيع بين أصحاب الطرق ، أن أكثروا من الأحاديث الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحادوا عن الصحيح من السنة إلى الموضوع والضعيف ، ليقوا به دعاويهم ويحجبوا به لبطلاتهم . .

ثم كان من هذا التنافس أيضاً بين أصحاب الطرق ، أن تواردوا على تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً باطنياً ، إذ كان هذا التفسير الباطنى يتسع لسكل المقولات المتناقضة ، الفاسدة ، التى لا ترجع إلى مفاهيم اللغة — ولا



إلى دلالات الألفاظ ، وإنما هي أشبه بقاويل أضغاث الأحلام ، يؤولها كل  
مقاول حسب هواه .

ثم أيضاً لم يكتف أصحاب الطرق الصوفية بوضع الأحاديث المكذوبة  
على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بقاويلاتهم الباطنية لآيات القرآن  
السكريم ، بل عمدوا إلى تلك « الشطحات » من الكلام الملتغز المعنى .  
وإدخال كثير من الأصوات المحكية عن الحيوانات من البهائم والطيور .  
يصلونها بأورادهم ، ليوهوا أتباعهم أسرار الربانيّة ، ومن  
المضنون به على غير أهله .. كما أدخلوا في أورادهم كثيراً من الألفاظ  
الأعجمية ، التي يرددونها في أذكارهم ، ولا يعرفون لها معنى ، وقد يكون  
من معانيها السكفر والالحاد ! ! فما يردده بعض أصحاب الطرق في دعائهم :  
أحم ، كسق ، سقف ، حم ، ها . آمين ! ! ومن أوراد الطريقة البرهانية :  
على السبع ذوات الذبول قولهم : ده . . ده . . كه . . به . به . . إلى آخر  
هذا الهوس الصبنياني الذي يغيب به وعى المريدين ، إن كان لهم وعى أصلاً ! !



ومن عالم الصوفية . ولدت في هذا العصر . فرقان من فرق الضلال  
ها فرقتا : القاديانية والبهائية . وهما ينتسبان إلى الاسلام ، ويتسمى زعماهما  
بأسماء إسلامية ، بل بأحب الأسماء وأكرمها عند المسلمين . فؤسس المذهب  
القادياني يسمى : غلام أحمد . . وقد بلغ الفجور بهذا الغلام ، الذي ظهر في  
أواخر النصف الأول ، من القرن التاسع عشر الميلادي ، في مدينة قاديان  
« بالهند » بلغ به الفجور أن ظل يتنقل في مقامات السكذب والادعاء من

أنه رسول ، مجدد للدعوة إلى الإسلام ، ثم انتقل إلى ادعاء أنه المسيح ، وأن روح الله حلت فيه . . ثم ادعى أخيراً أنه هو الله !

وهكذا ، إذا وجد المشعوذون من جهل الناس وغباوتهم ما يفرحهم بالشعوذات ، سوات لهم أنفسهم بالتماذى في أباطيلهم ومدعياتهم ، حتى يقيموا من أنفسهم أرباباً يتخذون من هؤلاء الأغبياء السذج عبيداً أذلاء لهم . .

وعلى طريق القاديانى سار أحد تلاميذه ، الذى لقب نفسه « بهاء الله » فأعلن فى سنة ١٨٦٠ أنه للمظهر الأكمل الذى بشر به أسقاده غلام أحمد القاديانى !!

ويقول المستشرق الألمانى « جولد تسيهر » متحدثاً عن الصلة التى بين ميرزا غلام أحمد القاديانى ، وبين تلميذه الملقب « بهاء الله » مؤسس البهائية يقول :

« وعلى هذا فإن غلام أحمد القاديانى ، كان السابق المهد لبهاء الله . . فالقاديانى بالنسبة لبهاء الله كيوحنّا المعمدان بالنسبة للمسيح . وفى شخص بهاء الله عادت الروح الإلهية للظهور كى تنجز على الوجه الأكمل العمل الذى مهد له هذا الداعية الذى ظهر قبله .

« فبهاء الله أعظم من القاديانى — الذى لقب نفسه « بالباب » لأن الباب هو القائم والبهاء هو « القيوم » أى الذى يظل ويبقى أبداً » (١)

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولن تسيهر ص ٢٧٥ .

ولا شك أن الذى هياً للقاديانى والبهائى أن يدعى هذه المذيعيات الباطلة وأن يحرا وراءهما أعداداً لاحصر لها من الأغرار والدهماء ، الذين تعبدوا لهما واتخذوها إلهين من دون الله — لا شك أن الذى هياً لهذين المشعوذين هذا المجال الفسيح للتسلط على عقول الناس ، هو مافاض به عالم المتصوفة من شططحات مغرقة فى الباطنية ، التى لا تهتيد بمحدود ، ولا تلنزم بمفهوم ، وذلك مما يسمح بالتشويش على الناس والعبث بعقولهم ، حيث يخيل لهم أن وراء كل كلمة من تلك الشططحات أسراراً إلهية ، وعلوماً ربانية . . وهكذا يستطيع كل طالب سلطة أو طامع فى مال ، أن يدخل من هذا الباب الواسع لمذهيات المدعين وخداع الخادعين !

ويكشف الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الصلة بين التصوف وبين هذين المذهبين المضالين : للقاديانية والبهائية ، اللذين ظهرا فى الهند فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولا يزالان إلى اليوم يتحركان وينتشران فى محيط الأمة الاسلامية وفى العالم كله ، يقول أبو الحسن الندوى :

« أخفقت ثورة الهند الكبرى : ( ١٨٥٧ ) وأصاب المسلمين فى الهند دهشة من هذا الغرور الاستعمارى ، ونكبة الهزيمة . . وقامت الدولة المنهصرة — بريطانيا — تنشر ثقافتها وحضارتها . . وانتشر القسوس فى الهند ، يدعون إلى المسيحية ويعملون على زعزعة العقيدة الإسلامية ، وإضعاف الثقة بها ، وبمصادر الشريعة ، وكثرت المناظرات بين القسوس وعلماء الإسلام ، انتصر فيها العلماء ، وظهرت فيها قوة حجج الإسلام ، ولسكن تلا ذلك قلق فى النفوس ، وتبلبل فى الأفكار والمعتقدات » .

ثم يقول الندوى :

« وهنا نشط المحترفون بالتصوف ، وأدعياء العلم ، في نشر شطحاتهم وإلهاماتهم ؛ وقويت رغبة العامة والدهاء في العطلع إلى الأمور الغريبة ، والخوارق العجيبة والأخبار الغريبة ، وكثر المتطفلون والأدعياء ، وتهيأت النفوس والنفوس لكل أمر غريب ، وشيء جديد ، ولكل دعوة طريقة ، أو حديث خرافة !! »

ثم يمضى أبو الحسن الندوى قائلا :

« واستولى على مسلي الهند اليأس ، والتذمر والقلق ، ويأس الناس من إصلاح الأوضاع ، بالأساليب العادية الطبيعية ، وبدءوا يتطلعون إلى متفكر جديد ، وكثر الحديث عن الفتن ، والعصر الأخير<sup>(١)</sup> ، وكثرت التنبؤات والإلهامات وذاعت المفامات والتكهنات ...<sup>(٢)</sup> .

وهذا التصوير لأحوال الهند في تلك الفترة التي تهيأ فيها الجو لظهور القادياني ، هو نفس الصورة التي هيأت الفرصة المواتية لظهور التصوف في المحيط الإسلامي ، والذي ظهر في العصر العباسي ، حيث زاد اختلاط الدولة بالأُمم الأخرى من فرس وروم ، وهنود ، وغير ذلك ، وحيث كثرت المنازعات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وورد على المسلمين من ذلك ما أثار

---

(١) يشير الندوى الى ما يروى من الآثان ، عن آخر الزمان ، وما يقع بين يدي الساعة من ارهاصات بها ومن ظهور الخوارق على يد المهدي المنتظر ، والمسيح ... وهكذا الناس كلما تحيط بهم الكروب ، تلهجس في شعورهم اليواجس بالخوارق التي تغير تلك الاحوال المستلطة عليهم ، وهنا ينتهزها المشعوذون فرصة لتمثيل هذه المسرحيات الهزلية التي يتهافت الناس عليها ، فراراً من الواقع المؤلم الى هذه الاصغات من الاحلام .

(٢) من كتاب القادياني والقاديانية ، لابي الحسن الندوى .

البليلة والاضطراب في النفوس بما هجم عليهم من موروثات تلك الأمم ،  
في عقائدها ، وفي عاداتها وتقاليدها . . . فظهر في المسلمين الفلاسفة الذين  
تلقوا على فلسفة اليونان ، كما قام فيهم أصحاب الدعوات الخارجة على الملة  
مثل جماعة « إخوان الصفاء » وجماعات « الشعوبية » الذين ينتقصون من  
أقدار العرب ، الأمر الذي انسحب على الاستخفاف بالدين الذي جاء به  
النبي العربي ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . . . حتى إن شاعرا من أصل  
فارسي ، هو « مهيار الديلمي » ، يصرخ في وجه العرب بقوله :

وجدى كسرى على إيوانه أين في الناس أب مثل أبي ؟

وحى إن الشاعر « أبا نواس » الفارسي الأصل ، ليقول ساخرا من  
العرب ، وما كان لهم من عادات :

عاج الشقى على ربع يسأله وعجت أسأل عن خماره البلد

ويقول مستهزئا ساخرا من طعام العرب ، وشر بهم :

إذا راب الحليب قبل عليه ولا تأثم ، فما في ذاك حوب<sup>(١)</sup>

وهكذا كثر التهجم على العرب ، وعلى كل ما دخل به العرب على  
الأمم التي دخلت في الإسلام ، من عادات وتقاليد ، ومن دين وعقيدة ،  
فشاع الاتحاد ، وكثر الزنادقة ، وغصت بغداد بدور الخلاعة والمجون ،  
وبحانات الخمر ، والرقص والغناء ، حتى لقد دخلت بيوت الخلفاء ، فكان من  
شعرائهم المجان والخلفاء ، أمثال أبي نواس ، وغيره !

(١) الحوب : الذنب .

وحين تسكثر الاضطرابات ، وتتداعى الفتن على الناس ، تهياً النفوس  
للافتذاب نحو الغرائب والحوارق ، التي يخيل إليهم منها أنها الحبل  
الممدود لهم من عالم الغيب ، ليمسكوا به في متماوج التيارات العاصفة ،  
التي تضطرب فيها سفينة الحياة .

وتلك هى فرصة الأدعياء والمشعوذين ، الذين يخيل إليهم أنهم مبعوثوا  
العناية الربانية لإنقاذ الناس مما هم فيه !!

وإنه لولا هذه الأمواج المتزاخمة من الفتن والاضطرابات السياسية  
والاجتماعية والدينية ، لما أتاحت الفرصة لظهور التصوف في محيط الإسلام .

وإذن فيلاد التصوف في الأمة الإسلامية لم يكن ميلاداً شرعياً ، وإنما  
ولد لغير رشدة ، أشبه باللقطاء ، وأدعياء النسب !!

والليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة !!



ولقد كان ظهور التصوف في الإسلام ، فرصة انتهزها أعداء الإسلام  
فدخل كثير منهم في عالم التصوف ، ونشروا فيه مذاهبهم الفاسدة ، من الحلول  
ووحدة الوجود ، والقول بالهين : للخير والشر ، أو النور والظلام ، وبظهور  
الله في بعض الأشخاص .

وكان لليهود دور كبير في مساندة كل دعوة منحرفة عن الإسلام .

يقول المستشرق « جولد تسيهر » فيما كان لليهود من مساندة بالمال  
والأقوال للبهائية :

« وبلغ الأمر ببعض اليهود المتحمسين للبهائية ، أن استخلصوا من دفائن العهد القديم « التوراة » وتنبؤات أسفاره ، ما ينبيء بظهور « بهاء الله » عباس أفندي — وزعموا أن كل آية تشيد بمجد « يهوه » — أى الله — أنها تعنى ظهور مخلص للعالم فى شخص « بهاء الله » ، كما نسبوا جزءاً كبيراً من الإشارات والتلميحات التى فى الأسفار ، إلى جبل الكرم — بحلب — الذى تجلى على مقربة منه ، نور الله ، وأضاء على الكون كله ، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

ثم يقول جولد تسيهر :

« وهذا فضلاً عن أنهم — أى اليهود — لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحويه سفر « دانيال » من الرؤى ، ما ينبيء عن قيام الحركة التى أوجدها « الباب » ( القاديانى ) وأن يلتمسوا يتأويلها ما يدل على وقت حدوثها . . فالثلاثمائة والألفان من الأيام ( أى السفين ) التى بعد انقضائها يتبرأ القدس<sup>(١)</sup> تفتنى تبعاً لتقديرات اليهود سنة ١٨٤٤ بالنسبة للتقويم المسيحى ، وهى السنة التى ظهر فيها ( القاديانى ) وأوحى إليه فيها أنه ( الباب ) الذى حل فيه العقل السكى<sup>(٢)</sup> « أى الله !!



ولا شك أن التصوف ، قد اعتمد اعتماداً كثيراً على ما فى الديانات الهندية من روحانيات ، تسرى فى عوالم الموجودات حتى الجهاد . . فى المذاهب

---

(١) الاصحاح الثامن ، عدد : ١٤ من سفر دانيال ، الذى هو احد اسفار التوراة .  
(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ٢٨٠ - ٢٧١ .

الهندية التي لا حصر لها ، تقديس لكل شيء ، وعبادة لكل شيء ، من جماد  
ونبات وحيوان !

يقول المستشرق جولد تسيهر ، كاشفاً عما دخل في الإسلام ، عن طريق  
التصوف من معتقدات الهند ودياناتها :

« أما في الحياة الدينية في الإسلام - فإننا نصادف ظواهر فريدة لا نظير  
لها . . فالتعاليم الأساسية في الإسلام ، عدلت تعديلاً يتفق مع العقائد الهندية ،  
وهناك مثلاً يستعجب الدهش ، ولو أنه لا يمثل الروح العامة الغالبة ، وهو  
جملة تظهر أحياناً منقوشة على مسكوكات - أي نقود - الأمراء المسلمين في  
الهند ، وتكشف عن عقيدتهم الإسلامية المزدوجة ( التي تجمع بين الديانة  
الهندية والديانة الإسلامية ) وهذا النقش هو : « اللامتناهي ، هو الواحد  
الفرد ، وقد تجسد في محمد » (١) !

وهذا ما ذهب إليه المتصوفة فيما يقولونه عن « الحقيقة الحمدية » . وأن  
من محمد ، خلق الله العرش ، والكرسى واللوح والقلم ، والسموات ،  
وكل ما في هذا الوجود من مخلوقات !

ثم يقول جولد تسيهر :

« إن تقديس الأولياء في الإسلام ، قد هيأ المجال للعقائد الشعبية لكي  
تؤثر على الشعائر الإسلامية ، ففشت فيها العناصر الهندية ، وتفاقم أثرها

(١) المصدر السابق ص ٢٨٢ .



شيئاً فشيئاً حتى أفتبجت ظواهر دينية فريدة تسترعى النظر ، فتجوات الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء »<sup>(١)</sup> .

« ولم يحدث في أى قطر من الأقطار التى فتحها المسلمون ، أن زدنا الدين الإسلامى بأمثلة كثيرة كهذه ، تدل على استبقاء العناصر الوثنية والاحتفاظ بها كما حدث في بلاد الهند ، وجزر الهند الشرقية المجاورة لها ، التى تشتمل على ظواهر لا حصر لها فى الدلالة على امتزاج الديانات الوثنية بالإسلام »<sup>(٢)</sup> .



وبعد :

فما هو موقف المسلمين من التصوف اليوم ، وما يضر تحت جناحيه من جموع كثيرة من المسلمين ، تغذى من هذه الأوهام ، وتلك الخرافات التى ينشرها شيوخ التصوفة فيهم ، ويلقون إليهم أنهم هم المؤهلون لقيادة الأمة الإسلامية ، وخالصها بما هى فيه من ضعف وتخلف ؟

ولأنه لا يمكن تجديد موقف المسلمين من التصوف ، والتصوف نضع الحقائق الآتية :

### الحقيقة الأولى :

إنه ليس فى الإسلام إلا الإسلام ، فلا تصوف ، ولا غير التصوف . مما يتردد على أفواه الناس من مذاهب . . فإما إسلام ، أو لا إسلام ، وإما أن

(١) وكذلك فى كثير من بلاد المسلمين ، تحولت أضرحة الأولياء الى الهة تعبد من دون الله .

(٢) المفيدة والأشريعة فى الاسلام ، لاجولد تسيهر ص ٢٧٦ .

يكون المسلم مسلماً وحسب ، أو غير مسلم . . والتصوف وارد غريب على الإسلام ، فلا ذكر له ، في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ﷺ ، كما أنه وافد غريب على اللغة العربية ، لم يجر له ذكر على لسان صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا على لسان أحد من التابعين ! كما أنه لم تعرفه اللغة العربية في جاهليتها ، وعلى مدى قرنين من ظهور الإسلام .

### الحقيقة الثانية :

أن التصوف . أوجد فرقة في الأمة الإسلامية . ! فهناك مسلمون غير متصوفين ومسلمون متصوفون . وهذه ظاهرة من شأنها أن تفرق الجماعة الإسلامية . في وحدة مشاعرها . حيث ينظر كل فريق إلى الفريق الآخر نظرة الغريب إلى الغريب . إن لم تكن نظرة العدو إلى العدو !!

ولما كان الإسلام ، هو الأصل ، وهو دين الله الذي يقول الله تعالى فيه : « إن الدين عند الله الإسلام » ( آل عمران : ١٩ ) . . ويقول سبحانه : « ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » ( الحج : ٧٨ ) . وكان التصوف شيئاً حادثاً في الإسلام ؛ فوجب الرجوع إلى الأصل ؛ وترك هذا الحادث ؛ حتى لا تتفرق الأمة .

فإن كان التصوف عند أهله إسلاماً خالصاً ؛ فليس ثمة داع إلى إضافته إلى الإسلام ؛ فإن الإسلام بذاته في غنى عن أية إضافة تضاف إليه والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ؛ وأتممت عليكم نعمتي ؛ ورضيت لكم الإسلام ديناً » ( المائدة : ٤ ) . . وإن كان التصوف شيئاً غير الإسلام فليكن ديناً لأهله ، لا صلة للإسلام به ؛ ليدخله من يدره ؛ وليجتنبه من يجتنبه

عن بيته !!

### الحقيقة الثالثة :

أن التصوف يشيع بين أهله البطالة ومجانبة العمل في الحياة ، وهذا من شأنه أن يضعف الأمة الإسلامية . إذا شاع فيها هذا الانحطاط . وكثر فيها الآخذون به ، بدعوى الزهد في الدنيا ، والفرار منها !

والإسلام دعوة إلى العمل ، وإلى عمارة الأرض ، والتمسك منها ، والاستيلاء على كل ما فيها من خير ، وبغير هذا لا تقوم للإسلام دولة ، ولا يقام للمسلمين وزن . . فتهتفهم الأمم ، وتمسكهم في دنياهم ودينهم جميعاً . . والله تعالى يقول : « هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا في مناكبها ، وكلوا من رزقه » ( الملك : ١٥ ) ويقول سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا » ( النور : ٥٥ ) . . فهذا الاستخلاف في الأرض الذي وعد الله تعالى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا يكون إلا بالعمل والعمل الجاد المثمر الذي يجعدهم مؤهلين للعلو على الأرض ، وامتلاك زمام الأمر فيها . . فإذا كان لهم ذلك مكن الله لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وألبسهم لباس الأمن ، فاعبدوه عبادة خالصة ، لا شرك فيها لآية قوة خارجة عنهم ، قائمة عليهم . . فإنه لا دين إلا مع دنيا تحوط أهلها وتدفع وعنهم ، وتحفظ عليهم حياتهم .

يقول الرسول : - صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته ، أضر بدنياه ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى » .  
( ١٨ - التصوف )

ومعنى الحب الذى يشير إليه الرسول المكرم ، هو الحب الذى لا يبقى وراءه مكاناً لـحب شئ غيره ..

فمن أحب الدنيا كل الحب ، ضاعت منه آخرته ، ومن أحب الآخرة كل الحب ضاعت منه دنياه .. ومعنى قوله — صلى الله عليه وسلم : « فأتروا ما يبقى على ما يبقى » هو الجمع بين حب الدنيا والآخرة ، مع تفضيل حب الآخرة .. فإذا عرض أمر من أمور الدنيا فيه جور على الآخرة ، طرحه المرء من وراءه ، وأثر ما الآخرة عليه ..

وفي شريعة الاسلام ، ركن من أركانه الخمسة التى بنى عليها ، وهو الزكاة ، وهى فريضة لا تؤدى إلا من ثمرات الأعمال التى يعملها المسلم ، فيكنى بها نفسه وأهله ، ثم يبقى منها فضل يعود به على الفقراء والمساكين ، والغرمين ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ، بالسلاح والعتاد للمجاهدين ، والله تعالى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ( الأنفال : ٦٠ ) . فمن أين تسكون للمسلمين القوة التى يدفعون بها الأعداء المتربصين بهم ، إذا لم يكن عمل تملئ به أيديهم من مال ومقتاع ، يفضل عن حاجتهم ؟

ولو ترك المسلمون العمل فى هذه الحياة ، من زراعة ، وتجارة ، وصناعة وغيرها ، لما كان لهم مكان بين الناس فيها ، ولسقطت من أركان دينهم هذه الفريضة ، فريضة الزكاة ، التى قرن بها الله تعالى بالصلاة فى أكثر من سبعين موضعاً ، كما فى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون » ( المؤمنون : ١ — ٤ ) وكما يقول سبحانه : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين ، حنفاء ، و يقيموا الصلاة و يؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة »  
( سورة البينة : ٤ ) . . و قوله جل شأنه : « و أقيموا الصلاة ، و آتوا الزكاة ،  
و اركعوا مع الراكعين » ( البقرة : ٤٣ ) . . إلى غير ذلك مما جاء في الزكاة ،  
و في المؤثرين الزكاة ، و في الصدقات و المتصدقين بها ، من ثناء عليهم من ربهم ،  
و من وعد كريم منه سبحانه ، بالفوز برضوانه ، و نعيم جناته .

و المقطوع به ، أن المتصوفة يستقنون الزكاة في عالمهم الذي يعيشون فيه ،  
بل لهم ليأخذون من أيدي الناس ما يقدرّون على أخذه منهم ، احتيالا ،  
و نصبا ، أو سرقة و اختلاسا ، بأكثر من أسلوب من أساليب السرقة  
و الاختلاس . . و في الحديث الشريف « لأن يأخذ أحدكم أحبله — جمع  
حبل — ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره ، فيكف الله بها  
وجهه . — و في رواية — فيستعين بيمينها ، خير له من أن يسأل الناس  
أعطوه أو منعه » ( رواه — البخاري ، عن الزبير رضى الله عنه ) .

#### الحقيقة الرابعة :

ما يدعيه المتصوفة من التوكل على الله . و ترك الأخذ بالأسباب . التي  
يطلب الرزق من وجوها ، لسد مطالب الحياة — هو ادعاء باطل . فاسد ،  
لا يصلح عليه أمر دين أو دنيا . بل هو حجة لدى الهمم الفاترة ، و العزائم  
الخائفة ، و هو تواكل لا توكل . . لأن التوكل إنما يكون مع مباشرة  
الأسباب ، و الأخذ بكل ما هو في مقدور الإنسان ، إزاء العمل الذي يباشره  
و في الحديث الشريف : « اعقلها و توكل » ذلك ما قاله النبي الكريم ، لمن  
جاءه من الأعراب بقول له : أأدع ناقتي خارج الدار ، و أتوكل على الله ؟  
فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه . « ادقلها ، و توكل » !!

أما التوكل على الاطلاق من غير مباشرة الأسباب ؛ فهو مكر بالله .  
وإبطال لسنة الكونية !

ولو كان هؤلاء المتصوفة صادقين حقاً في دعوى التوكل ، لما مدوا أيديهم إلى تناول طعام ؛ أو لبس جلباب ؛ ولما سمعوا إلى الأضرحة يلتصقون ما يحمل إليهم فيها من أيدي المتعسجين بقلبك الأضرحة ؛ ولستكنهم لا يفعلون شيئاً من هذا ، بل يجرّون لاهئين إلى حيث تنصب لهم الموائد ؛ وتقدم لهم العطايا ؛ فيأكلون في نهم ؛ ويحملون إلى بيوتهم ما يقدرّون على حمله .

« روى أن رجلاً من هؤلاء المتوكلين ، جاء إلى أحمد بن حنبل ؛ فقال له إني أريد أن أخرج إلى مكة على الله من غير زاد ! فقال له الإمام : إذا كان هذا ؛ فأخرج وحدك في غير القافلة ! فقال الرجل : لا ؛ إلا معهم ! فقال له الإمام ؛ فعلى جرب القوم إذن تتوكل ! »

وهكذا يفضح ابن حنبل ، رضى الله عنه — هذا الدعوى الذى يلبس ثوب التوكل ، وقد كتب عليه شارة التوكل . . !

فالعمل في الحياة لكسب الرزق ، وسد حاجة الأهل والولد ، وإعانة الفقير والمسكين والإففاق في سبيل الله وتجهيز المجاهدين — هو جهاد في سبيل الله ، وعبادة من أَرْضَى العبادات لله . .

ولكن المتصوفة ، أو شيوخ المتصوفة بمعنى أصح ، يرون أن المتصوف ، يجب — لكي يحمي قانون المتصوف — أن يخلّي يده من العمل وأن يمد يده للناس لإذلالها ، وكسر مطامعها حتى إنه إذا كان عنده مال ، ودخل في عالم المتصوفة نفّض يده من هذا المال ، ورمى به بعيداً عنه !

حكى أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء ، هذه الحادثة فقال :

« كان بعض الشيوخ في بدء إرادته - أى في بدء كونه سريداً - أنه كان يكسل عن القيام - في الصلاة والذكر - فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه القيام عن طوع ، ! !

وحكى الغزالي في كتابه هذا أيضاً : أن بعضهم - أى المتصوفة - عالج حب المال ، بأن جمع جميع ماله ، ورماه في البحر ، إذ خاف من تفرقه على الناس ، وعونة الجود ، ورياء البذل<sup>(١)</sup> ! !

وحكى الغزالي عن بعضهم ، أنه كان يستأجر من يشتمه على ماله من الناس ليعود نفسه الحلم !

ويعلق ابن الجوزي في كتابه « تبايس إبليس » على هذه المرويات التي أودعها الغزالي ، كتاب ( الإحياء ) .

فيقول :

« أعجب من جميع هؤلاء عندي أبو حامد ... إذ كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها ؟ وكيف ينكرها ، وقد أتى بها في معرض التعليم ، وقال : أى الغزالي قبل أن يورد هذه الحكايات .

« ينبغي للشيخ ، أن ينظر إلى حالة المبتدئ ، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر حاجته ، أخذه وصرفه في الخير ، وفورغ قلبه منه ، حتى لا يلتفت

---

(١) أى ان هذا الأحمق الجهول دهمي بهذه النعمة التي في يده ، ولم يضعها في يد الفقراء المساكين بحجة انه يخشى ان يوصف عند نفسه بالأحمق ، أو بالرياء ... وأى حمق أعظم من هذا الحمق الذي حملته على انقاء المال في البخر وضمن به ان ينتفع به احد ؟

إليه : وإن رأى السكبر قد غلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للسكدة  
أى التسول - ويكلفه السؤال والمواظبة على ذلك ١١٠٠٠

ثم يقول ابن الجوزى :

« ولما لم أتعجب من أبي حامد - الغزالي - كيف يأمر بهذه الأشياء  
التي تخالف الشريعة ؟ وكيف يحمل القيام على الرأس طول الليل ، فينعكس  
الدم إلى وجه صاحبه ، ويورثه ذلك مرضاً شديداً ؟

« وكيف يحمل رعى المال في البحر ؟

وهل يحل سب مسلم بلا سبب ؟ ( ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
سباب المسلم فسوق !! ) وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك من يسبه ؟

« وكيف يحمل السؤال لمن يقدر على الكسب ؟ ( ورسول الله صلى الله  
عليه وسلم يقول : ( يأتى السائل يوم القيامة ، وليس في وجهه مزعة لحم ) ؟

ثم يختم ابن الجوزى اعتراضه على هذا الذى يقول به الغزالي بقوله :  
فما أُرخص ما باع أبو حامد الغزالي ، الفقه بالتصوف !! (١)

ونقول : إن دعوة المتصوفة أتباعهم إلى طرح الدنيا ، ومعاداتهم للمال  
هو ما يخالف شرع الله أشد المخالفة ، وما يخرج بهم عن سنن الحياة التى أقام  
الله الناس عليها ، والله تعالى يقول : ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا .  
( الكهف : ٤٧ ) ويقول سبحانه مضيئاً المال إلى ذاته السكرية :  
« وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » ( النور : ٣٣ ) .

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص : ٣٥٣ .



ويقول الرسول الكريم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

إن الهروب من الدنيا ، ومن ملابسة العمل فيها ، وقطف ثمرات العمل ، هو مسخ لأدمية الإنسان ، ومحو لإرادته ، وما يكون منه من ابتلاء فيما آتاه الله ، ليسكون من الشاكرين ، أو الكافرين .

#### الحقيقة الخامسة :

هذه الأضرحة والقباب التي يقيمها المتصوفة على بغض الموتى ، ويتخذونها دور عبادة لهم ، ومواسم حج في كل مولد لصاحب الضريح — هي بدعة من أخطر البدع التي ظهرت في الإسلام . والتي جعلت من الشرك ديناً ينازع التوحيد الذي عليه المسلمون .

فلقد تحول كثير من المسلمين ، تحت دعاية المتصوفة إلى الجنوم حول هذه القبور ، والهاثف بالراقدين فيها ، طالبين منهم ما يطلب المؤمنون من ربهم ، حتى إن كثيراً من المسلمين ليذهبون إلى المساجد التي تضم ضريحاً من تلك الأضرحة ، لاليؤدوا الصلاة ، وإنما همهم الأول زيارة صاحب الضريح والنيل من بر كاته . . فتغص المساجد التي فيها الأضرحة بالناس ، على حين تكاد تعطل المساجد المجاورة لها !!

فألى أى مستند من كتاب أو سنة يستند الصوفية في إقامة الأضرحة ؟

ألم يلعن الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؟

ألم يسو التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف خلق الله عند الله سبحانه ، بعد دفنه ، فلم يكن هناك معلم على الأرض ، يعرف به قبره ، بما حوله من الأرض ؟

وهل أقيم فوق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم  
قبة أو ضريح فوق قبره ؟

أفيسكون أصحاب هذه الأضرحة وتلك القباب، أعظم من صحابة رسول  
الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ؟ بل ومن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟  
فإذا تقولون أيها المسلمون ؟ بل ماذا يقول علماء المسامين ، وأصحاب  
العمائم الكبيرة فيهم ؟

إنهم لن يقولوا شيئاً ، بل إن كثيراً منهم ليحجج إلى هذه القباب مرات  
كل يوم ، وإن قال قائل من هؤلاء العلماء كلمة حق في هذه الأضرحة وتلك  
القباب ، لم يقلها إلا همساً ، بينه وبين من يأمنه على سره ، خوفاً من ثورة  
العمائم الكبيرة عليه ، ومحاربة في رزقه !!

ويكفي أن نذكر المسامين هنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما  
رواه مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه :

«لأن يجلس أحدكم على جرة ، فتحرق ثيابه ، فتخلص إلى جلد ، خير له  
من أن يجلس على قبر .»

والمراد بالجلوس على القبر ، ملازمة صاحب القبر ، للشكوى إليه ، أو  
طلب حاجة منه ، كما يفعل كثير من زوار القبور ، وخاصة إذا كان لصاحب  
القبر قبة أو ضريح ، يخيل منهما أن المقبور تحت أى منهما ، ولى من  
أولياء الله !!

#### الحقيقة السادسة :

هذا الذى تفيض به كتب المتصوفة من حديث عن كرامات أصحاب

الأضرحة من أساطير وخزعبلات ، لا يقيمها عقل ذى عقل ، ولكنها تتدسس إلى عقول العامة ، فتصادف هوى عندهم ، وتنقلهم إلى عالم يشهدون فيه ما يشهد رواد « السينا » من أساطير !!

والمعروف أن الموتى ، قد انتقلوا إلى دار غير هذه الدار ، وأنه لا صلة لهم بهذه الحياة الدنيا ، وما فيها ، وهم في دارهم تلك موقوفون ليوم الحساب ، مشغولون بما قدموا من عمل . . من عمل صالحا منهم فهو نادم على أنه لم يزد في إحسانه ، ومن كان على كفر وضلال ، فهو يقطع نفسه حسرات على أنه لم يكن من المؤمنين بالله ، العاملين بمرضاته . .

وإذن ، فكل ما ينتقل عن الأموات من مقولات ، وما ينسب إليهم من أعمال يؤدونها للأحياء ، هو من المفتريات عليهم . . فقد ختم على أعمالهم ساعة موتهم ، ولو كان لهم عمل بعد موتهم لحسب لهم ، ولآمن الكافر ، ولا اهتدى الضال ، ولأحسن للسيء ، ولا بيضت صحائف جميع الناس ، ولما كان للغار أهلها الذين يعذبون فيها . .

ولكن المتصوفة مع هذا ، كذبوا على الأموات ، وافتروا عليهم ، بما نقلوه على ألسنتهم بعد موتهم من غرائب وعجائب . .

يقول محمد عثمان ، صاحب الطريقة البرهانية في كتابه الذى سماه : تبرئة الذمة في نصيح الأمة : « قيل لسكندر من سيدى أحمد الرقاوى ، وسيدى عبد القادر الجيلانى - فى عالم الأرواح <sup>(١)</sup> - « إن الله تعالى ، شفّعك فى سبعين ألفا من الأمة الحميدة !!

(١) إذا كان هذا الذى يرويه محمد عثمان عن هؤلاء الأموات ، قد حدث فى عالم الأرواح ، فمن شهد هذا الذى جرى فى هذا العالم ؟ انه فجور فى الكذب قد تجرد صاحبه من الحياء ، ومن العقل جميعا .

« ولما قيل لسيدى أحمد البدوى مثل أخويه — الرقاعى والجيلانى — طلب أن يملأ له منه حسب طلبه، فوسع فيه أكثر من سبعين ألفاً، أضعا فإلها !!

« ولما قيل لسيدى إبراهيم الدسوقي ذلك ، طلب أن يزداد له فى جسمه فزيد ، ثم طلب أن يزداد أكثر فأكثر ، فزيد ، وهكذا ، حتى سأله الجبار جل وعلا عما يريد من كبر جسمه ، فقال : « يارب إنك قلت وقولك الحق فى كتابك العزيز : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » وأنا أريد أن أملأ جهنم وحدى ، حتى لا يصلها أحد !! فقال جل وعلا : أنتسكرم هلى كريم يا إبراهيم ؟ شفعناك فى سبعين ألفاً ، مع كل فرد سبعون ألفاً . . . وكل هذا غير من أخذ طريقك ، وغير من دخل مقامك وزارك !! »

وهكذا أغلق إبراهيم الدسوقي أبواب النار ، وفتح أبواب الجنان ، كما روى عنه « الشعرانى » فى طبقاته ، وقد أشرنا إليه فى ثنايا هذا البحث ا

ولم يسأل صاحب الطريقة البرهانية نفسه ، ولم يسأل أحداً من أتباعه المرئيين : من شهد هذه المحاوره بين الله تعالى ، وبين هؤلاء المذكورين ، وهم فى عالم الأرواح ؟ ألم يقل الله تعالى : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال رب ارجعون ، لعل أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » ( المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠ ) . .

وإذا كان الله تعالى يقول : « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » فكيف يريد الدسوقي أن يبطل قول الحق سبحانه ، ويملا هو جهنم وحده فلا يدخلها أحد غيره ؟

ونسكتفى بهذا المثال ، مما تفيض به كعب الصوفية ، مما يجعل الموتى من أصحاب الأضرحة ، يتصرفون في هذا الوجود ، فيرزقون ، ويرفعون من شاءوا ، وينفضون من أرادوا ، ويؤتون الملك من أحبوا ، وينزعون الملك ممن كرهوا ، ويعززون من رأوا ، ويدلون من شاءوا !!

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير . »  
( آل عمران : ٢٦ ) ..

#### الحقيقة السابعة :

هذه الكلمات الأعجمية ، أو الشيطانية ، التي لا مفهوم لها في اللسان العربي ، التي يتحدث بها المتصوفة ، والتي تفيض بها كتبهم ، مما يوهون به على العامة ، بدعوى أن هذه كلمات ربانية ، تحمل أسراراً علوية ، إذا ذكر المتصوف الله بها ، أحلته منازل الأولياء ، وفتحت له صحف الغيب ، يطلع منها على ما يشاء !

ونسأل المتصوفة : من أي مصدر جاءوا بهذه الكلمات التي لا تعدو أن تكون مجرد أصوات لتصف ريح ، أو خير ماء ، أو زرقعة عصافير ، أو اصطدام جسم بالأرض ، إلى غير ذلك مما لا يلتفت إليه الفاس ، ولا يمدونه لغة يتفاهمون بها ؟

فهل روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه نطق بغير اللسان العربي ؟ وهل جاء في القرآن الكريم كلمة أو كلمات لم تكن جارية على ألسنة العرب ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، علم يقيناً أن المتصوفة الذين يتكلمون العربية إذا جاءوا في كلامهم بما هو غير عربى ، سواء كان من اللغات الأعجمية أو حكايات لمنطق البهايم أو الطير أو الجن — هم مبتدعون ما جاءوا بهذه الكلمات إلا للتعمية والتوبيه على الناس ، كما كان يفعل السكمان والسحرة في الجاهلية ، الذين كانوا يرددون كلمات تلوكتها ألسنتهم في سجع منغم ، لا يفهم السامع منه شيئاً ، ولكنه يمتلئ دهشاً وعجباً ، يمكن للشيطان من أن يوسوس له ، بأن ما يسمع هو منزل من عالم الروح ، محملاً بالنفحات والبركات !!

وما نطق المشعوذون الذين يغترون بالعوام ويستهوذونهم — ما نطقوا إلا بمثل هذه الأصوات التي لا يفهم أحد لها معنى ، حتى ولا هؤلاء المشعوذون أنفسهم !!

فهل في دين الله أسرار ؟ وهل في شريعة الإسلام معميات ، حتى تعرض في هذه العبارات ، التي يقال إنها محملة بالأسرار ، التي لا يعرف لها أحد معنى ؟

أليس ذلك من التعمية على المسلمين ، والانتقال بهم من الطريق المستقيم الواضح ، إلى طرق معوجة ، ومسالك معقمة ، لا يعرف سالكها : أين هو ؟ ولا إلى أى وجهة يتجه ؟

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما يتكفرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟» (رواه البخارى) .  
ذلك أن الحديث إلى الناس بالأساليب الملقوية ، والكلام المبهم ،

الذى لا مفهوم له ؛ وبخاصة فى مجال العقيدة والشريعة — يوقع الناس فى أمر مريخ ، وقد يتأوله متأول من الناس على ما يمليه عواه ، مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، فيكذب بعد أن صدق ، وقد يكفر بعد أن آمن . .

ولقد كان من حكمة الله تعالى فى إرسال الرسل ، أن اختار كل رسول من قومه ليبينهم رسالة ربه بلسانه ، الذى هو لسان قومه ، كما يقول تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » ( إبراهيم : ٤ ) .  
ففى قوله تعالى : ( ليبين لهم ) إشارة إلى الحكمة من إرسال الرسول بلسان قومه حتى يفهموا عنه محتوى الرسالة التى أرسل بها إليهم من ربهم . .  
وإنه لو لم يكن فى التصوف إلا هذه الطلاسم والمغازات التى لا يعرف أحد لها معنى لكان ذلك كافياً لاقتلاع جذور التصوف من أرض الإسلام ، حيث يكون الإسلام . .

فكيف وطابع المتصوفة مدموغ به كل عمل فاد ، وسلوك معوج ، يظهر من المسلمين ، فى أمور دينهم ، أو دنياهم جميعاً ؟

#### الحقيقة الثامنة :

وينبنى على ما أشرنا إليه فى الحقيقة السابعة ، ما يدعيه المتصوفة على الإسلام ، من ظاهر ؛ وباطن ؛ وأن هناك ما هو ظاهر من دين الله ؛ هو خطاب للعوام ، وأن هناك باطناً ؛ اختص الله تعالى بفهمه المصطفين من عباده ، وهم المتصوفة ؛ أهل الولاية والكشف !!

وهذا التلاعب بالكلمات ؛ ولى الألسنة بالألفاظ ؛ هو من تحريف الكلم عن مواضعه ؛ الذى هو السمة الغالية على اليهود ، والتى استوجبت وقوعهم

تحت لعنة الله وغضبه ؛ وفي هذا يقول الله تعالى : « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ، من الذين هادوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وأسمع غير مسمع ؛ وراعنا ؛ لياً بالسنتهم وطعناً في الدين ، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ؛ لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً » ( النساء : ٤٥ — ٤٦ ) ويقول سبحانه في اليهود أيضاً : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » ( البقرة : ٧٥ ) . .

والمتصوفة الذين يلوكون الكلام الذي لا معنى له عندهم ، ولا مفهوم له عند غيرهم ، هم شر من هؤلاء اليهود — إذا كان اليهود على علم بما يحرفونه وإن خفيت دلالة على غيرهم . . فاليهود والحال كذلك يتفاهمون بينهم بلغة رمزية يخفون معانيها المرادة منهم ، على من يسمعه من غير اليهود . . أما المتصوفة فانهم يحركون أسنتهم بأصوات — مجرد أصوات — لا معنى لها عند من ينطق بها فضلاً عن غيره من المتصوفة أو غير المتصوفة ! !

وبهذا اللغو من الكلام ، المبهم المغلق ، استطاع المتصوفة أن يخادعوا الناس ، وأن يقولوا : إن للإسلام شريعة ، وحقيقة ، بمعنى أن للإسلام ظاهراً هو ما يفهم من صريح كلمات الله ، وسنة رسوله ، وباطناً هو ما آثر الله تعالى بفهمه أهل الكشف والولاية ، وهم أهل التصوف ! !

وهذا القول بما تحمل كلمات الله ، وكلمات رسوله من معان باطنية ، هو مدخل لكل بدعة دخلت على دين الله من ذوى الأهواء الذين يكسبون



للإسلام في كل زمان ومكان .. مثل فرق الباطنية ، وإخوان الصفا ،  
والقاديانية ، والبهائية ، والبرهانية ، وغير هؤلاء وهؤلاء ..

٥ ومن أصل بدع المتصوفة ادعائهم علم الباطن ، ووقوفهم على أسرار  
الشريعة التي حجب عنها غيرهم من المسلمين .. حتى لقد ألف « الغزالي »  
كتابه الذي أطلق عليه « المصنوع به على غير أهله » والذي تحدث فيه عن  
أن هناك أسراراً علوية في الإسلام ، لم تكشف إلا للخاصة من الناس ،  
على حين ضن بها على غيرهم من جماعة الأمة الإسلامية ، ومعنى هذا أن  
الله تعالى ، قد ضن بهذه المعارف عن أن تنالها عقول الأمة الإسلامية ، إلا  
أفراداً قليلين من هذه الأمة ، هم الذين أطلعهم الله تعالى على تلك المعارف .  
« سبحانك ، هذا بهتان عظيم » .

وهذا لا شك لا يتفق أبداً مع حكمة الله تعالى ، ومع ما أرسل به رسوله  
من رحمة عامة لكل من أرسلوا إليهم ، والله تعالى يقول لرسوله الكريم  
— صلوات الله وسلامه عليه : « وأنزلنا إليك الذكرا لعين للناس ما نزل  
إليهم ولعلمهم يتفكرون » ( النحل : ٤٤ ) فالكتاب الكريم ، منزل للناس  
جميعاً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مطلوب منه أن يبين ما في الكتاب  
للناس كلهم ، لا فرق بين إنسان وإنسان ! وما يفتره المتصوفة على عمر—  
رضي الله عنه — من أنه قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر  
وهما يتحدثان ، فكنت كالأعرجى بينهما » — هو افتراء على رسول الله أولاً ،  
ومخالف لمخافة صريحة لسنته ، ففي البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما  
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناجوا اثنين  
دون واحد » .

والتناجى بين اثنين ، هو المسارة بالكلام ، بحيث لا يسمع الثالث ، ومثله الكلام بين اثنين بلغة لا يفهمها الثالث ، لأن ذلك مما يوقع فى نفسه سوء الظن بهما ، وأنهما ربما يدبران سوءاً به . .

فكيف يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر ، رضى الله عنه ، بكلام لا يفهمه عمر ؟ فأى لسان هذا الذى كانا يتكلمان به ؟ أهو من هذا الكلام الرمزي الذى يتكلم به المتصوفة ؟ ذلك ما قصد إليه المتصوفة من افتراءهم هذا الحديث المكذوب ، ليروجوا به ما يجرى على ألسنتهم وما فى كتبهم ، من شطحات ، ومعميات لا مفهوم لها !!

ولأنه لحال على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤثر أبى بكر بحديث دون عمر ، وهما فى مجلس واحد معه .

وكيف ، والله تعالى يقول للنبي — صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ( الأنبياء : ١٠٧ ) . . فهو — صلى الله عليه وسلم : رحمة عامة للناس ، أشبه بالماء والهواء ، مما تقوم عليه حياة الأحياء .. وحياة النفوس ، بما يساق إليها من رحمة الله ، أولى مما تحيا به الأجسام .

ويقول جل شأنه للرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولـكن أكثر الناس لا يعلمون » ( سبأ : ٢٨ ) . .

وإذن ، فلا يصح أبداً أن يكون هناك فى شريعة الله ، ما ضن الله تعالى به على أحد من المدعوين إلى تلك الشريعة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولو كان ذلك واقعاً فى شريعة الله تعالى — وهو محال — لكان للناس حجة

على الله لئلا لم تبلغهم رسالة الله على تمامها وكالها ، والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً »  
( المائدة : ٣ ) .

وهل يكمل دين الله . وتتم نعمته ، وقد حجب عن السكينة الغالبة فيهم ؟  
ثم هذا ابن عربي ، وفصوص حكمه ، وما فاضت به تلك الفصوص من  
تأويلات فاسدة وما حملت من ألفاظ ومعانيات ، فلم يكف بهذا ، بل أخرج  
للناس كتاباً أشد إغفالاً في الإلفاظ والتعمية ، وسماه : « عنقاء مغرب في ختم  
الأولياء ، وشمس المغرب » وهو كتاب كل ما فيه طلاس سحرية ، وعقارب  
شيطانية تشول بأذنانها ، وتنفض السم من أنيابها ، فلا ينجو من اطاع عليه ،  
إلا إذا استعاذ بالله منه ورمى به في النار وقوداً !!

وابن عربي يشير في عنوان الكتاب إلى نفسه ، وأنه ختم الأولياء ،  
وشمس المغرب ، وأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، إذا كان شمساً  
أشرقت بنور الهداية من المشرق ، أي من بلاد العرب - فإن هذا الدعي  
ابن عربي ، قد جاء بشمس الهداية من المغرب ، أي من بلاد المغرب ، إذا  
كان أندلسياً !!

وبجاء الشمس من المغرب . إنما يقصد به ابن عربي . قلب حقائق  
الإسلام وإطفاء نور الله . بشمسه الشيطانية : « والله متم نوره . ولو كره  
الكافرون » ( الصف : ٨ ) .

ومن هذا البحر المظلم من العلم الباطن . قامت المتصوفة دعوى مقترنة  
على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أنه اختص « علياً » - رضي  
( ١٩ - التصوف ) .

الله عنه - بعلم لم يعلمه أحد من الصحابة - رضوان الله عليهم .

وهذا - كما أشرنا من قبل - كذب مفضوح ، واقتراء عظيم على رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه - إذ كيف يكتُم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من شريعة قد أمر بتجليغها والله تعالى يقول له : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته ؟ ( المائدة : ٧٠ ) . . فهل يكون الرسول الكريم مبلغاً رسالة ربه ، إذا هو حجب شيئاً منها ، واختص به علماً أو غيره ؟

روي البخاري في صحيحه ، أن أبا جحيفة قال : قلت لعلي : هل عندكم كتاب ؟ - أي شيء خبى عنكم به رسول الله - قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما في هذه الصحيفة . قلت : وما في هذه الصحيفة ؟ قال : العقل (١) ، وفكالك الأسير ، ولا يقتل مؤمن بكافر . . وهذا ما لم يختص به علي ، بل هو مما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعه غيره من الصحابة ، فقيده في كعب ، كما كان يفعل كثير من الصحابة في كتابة ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الصوفية ، تأولوا هذا ، الحديث تأويلاً فاسداً ، حيث يسندون علم الباطن لملي على رضى الله عنه ، فهو عندهم القطب ، الذى يقوارثون لبس الخرقه عنه ، ومن هذه الخرقه تقتزل عليهم الولاية ، ويفتح

---

(١) وهو اداء دية القتيل ، يقال ، عقل القليل : أدى ديته ، وعقل عن فلان : أدى عنه ما لزمه من دية ، وعقل له دم فلان ، ترك القاتل ، ورضى بالدية .

لهم باب الاطلاع على ما في « الحقة »<sup>(١)</sup> الذي نسبوه إلى على رضى الله عنه  
زوراً وبهتاناً !!

وهذا باب واسع فتحه الصوفية للمشعودين الذين يغررون بالعوام وأشباه  
العوام ، وما يدعون لهم من القدرة على شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات ،  
والتقريب بين الحبين ، إلى غير ذلك من الأباطيل !!

فهل يكون من مصلحة الإسلام والمسلمين ، أن يظل هذا الباب  
مفتوحاً ؟ نريد جواباً على هذا ممن يفارون على دين الله ، وشرعية الله .  
فهل نسمع جواباً ؟

#### الحقيقة التاسعة :

حديث المتصوفة عن الأموات ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والقباب  
من شيوخهم ، وبعث هؤلاء الموتى من قبورهم إلى الحياة الدنيا ، وتصرفهم  
في حياة الناس فيها وقيامهم على تصريف شئون العباد ، بالأقطاب والأبدال  
والأوتاد ، وغيرهم ممن تقوم منهم هذه الحكومة ذات السلطان المطلق -  
هذا الحديث من المتصوفة عن أولئك الموتى ، قد أفسح المجال لنشر تلك  
البدعة ، والتي تعرف في هذا العصر بتحضير الأرواح !

والإسلام يقرر في صراحة صريحة أن الأموات قد انتقلوا إلى دار

---

(٢) الجفر : جلد شور ، يدعى الشوفية ان عليا - رضى الله عنه - قد كتب  
فيه ما اختصه النبي صلى الله عليه وسلم من انباء الغيب الى ان تقوم الساعة  
ومنه استولد المشعوذون علم الحروف ، وحساب الجمل المعروف عند اليهود .

غير هذه الدار التي يعيش فيها الأحياء ، وأنه لا عودة لميت إلى هذه الدنيا ولا مبعث له ، إلا حين تقوم الساعة للحساب ، والجزاء . . والله تعالى يقول : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال رب أرجعون ، لعلني أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠) لأنه لا رجعة لميت إلى هذه الحياة الدنيا ، إلى يوم البعث .. وإلا لكان لكل كافر أن يؤمن ، ولكل مسيء أن يحسن ولكل محسن أن يزداد إحساناً ، بعد أن يرى العالم الآخر ، وما أعد الله لأهل البغي والضلال فيه ، من عذاب ونكال !!

وبقول الحق سبحانه ، فيما يكون عليه الميت عند النزاع ، وأهله بمشهد منه : « فلولاً إذا بلغت الخلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ، واسكن لا تبصرون ، فلولاً إن كنتم غيب مدنيين<sup>(١)</sup> ترجعونها إن كنتم صادقين » (سورة الواقعة : ٨٣ — ٨٧) .

وقد اتسع مجال تلك الحركة الشيطانية - حركة تحضير الأرواح - في أوروبا وأمريكا ، ودخلت في مجالات الدراسة العلمية في الجامعات ، وقام عليها أساتذة متخصصون في هذا المجال ، حيث تعقد الجلسات لتحضير ما يزعمون أنه أرواح ، وما هي إلا شياطين ، تحضر باسم الميت الذي يدعونه ، فيتحدث الشيطان باسمه ، وقد يتخايل في صورته ، وقد يخبر بأمور عن الميت يشهد أهله بصدقها ، وقد يدلهم هذا الروح الشيطاني على

---

(١) أي خاضعين لسلطان الله ، لا تملكون شيئاً من هذا السلطان .

أشياء للميت لا يعلمها أهله . . ومن هنا يتمكن الشيطان من أوليائه ،  
فيكثر المؤمنون بتحضير الأرواح ، ويتم السكون على حضور مجالسها .

والسكيد الذى يكيد الشيطان من هذه التمثيلية الهزلية ، هو أنه إذا سئل  
هذا الروح الشيطاني ، الذى يتحدث باسم الميت الذى يوههم أنه هو الروح  
الذى استدعوه - إذا سئل هذا الروح عن حاله فى حياته بعد موته ، أجب  
بأنه سعيد يعيش فى نعيم ورضوان فى صحبة الموتى من أهله ، وأصدقائه ،  
وقد يكون هذا الميت من الكافرين الملعدين ، وقد يكون من الحكام  
الظفاة الذين أفسدوا فى الأرض ، وهتكوا الأعراض ، وسفكوا الدماء ،  
وسلبوا الأموال .

وهذا هو الذى تبغيه الشياطين من هذه التمثيلية الهزلية ، حيث يخف  
عند الناس ميزان الخلق ، وتضيع معالم الإحسان ، ويتساوى الإيمان والكفر  
والهدى والضلال !!

وإذا كان الغرب قد تسلط عليه من سلطان المادية الغليظة ، ما ذهب  
بمعالم الروح فى أفراد وجماعاته ، وشعوبه ، فعمله ذلك على أن يستجلب  
أرواح الموتى ، ليتعويض بها عن روحه التى قارقتها ، وليجد فيها بعض  
المزاء عن روحه الغاربة - إذا كان ذلك شأن العالم المادى ، فإن من الظلم  
لأنفسنا ، والعدوان على حقائق ديننا ، أن ننساق مع الغرب المادى فى هذه  
الباطلة ، وأن نتقبل ما تلقى به الشياطين إلينا من أخبار عن هذا العالم  
الغيبى ، الذى يعيش فيه الراحلون عن هذه الدنيا ، والذى لا يعلم ما فيه  
إلا الله ، علام الغيوب .

ولقد لعبت بدعة تحضير الأرواح بكثير من العقول في أوساط المسلمين ، حتى لقد رأينا في بعض البلاد الإسلامية أساتذة مسلمين في الجامعات ، يقولون كبر هذا الضلال ، ويستهوون كثيراً من المثقفين بشهود جلساتهم التي يعتقدونها بدعوى تحضير الأرواح .

وأكثر من هذا ، فإنه قد نشرت عن ذلك كتب ، وصدرت مجلات متخصصة في تحضير الأرواح ، يتداولها الناس في المجتمع الإسلامي !

وإذا كان العلم الذي انتشر في أوساط المسلمين اليوم ، قد أدى إلى انكماش ظل هذه الخرافات التي ينكرها الدين ، ولا يصدقها العقل السليم — فان المتصوفة — والمتصوفة وحدهم — هم الذين لا ينكرون تحضير الأرواح ، بل يرون في هذا شاهداً يشهد لهم بما يقولون عن شيوخهم الموتى ، وما لهم من كرامات وأياد مباركة على من يقوسل بهم ، ويطوف بأضرحتهم . . فإذا دعاهم أجابوه ، وإذا طلب مشاهدتهم جاءوا إليهم ، وإذا مد يده للتسليم عليهم مدوا أيديهم إليهم مصافحين . .

يقول ابن تيمية ، رضى الله عنه ، في كتابه : « الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان » — ذاكرا عن بعض شيوخ المتصوفة هذه الحادثة — يقول :

« ومن هؤلاء ، شيخ كان بمصر ، وقد أوصى خادمه ، فقال : « إذا أنا مات ، فلا تدع أحداً يغسلنى ، فأنا أجيء ، وأغسل نفسى » . . فلما مات عمل الخادم بوصيته ، ولم يدع أحداً يغسله ، وقال لمن حضروا جنازته : إن الشيخ سيأتى ، وبغسل نفسه !!



« ثم رأى خادمه شخصاً في صورة الشيخ ، فاعتقد أنه هو ، ودخل  
وغسل الميت ، فلما انتهى ذلك الداخل من غسل الشيخ خرج ! »  
ويعلق ابن تيمية — رضى الله عنه — على هذا بقوله : « وكان ذلك  
شيطانياً ، كان قد أضل الميت قبل أن يموت ، وقال له : إنك بعد موتك ، تبجىء  
وتغسل نفسك ، فلما مات ، جاء ذلك الشيطان في صورته ، وفعل ما فعل ! »  
وتقول : لو كان هذا الشيخ ، مؤمناً بالله حقاً ، فاقها لشريعته ، أكان  
يقبل هذا الضلال ، ويصدق تلك الخدعة الشيطانية ؟ وهل في تاريخ الأمة  
الإسلامية ميت جاء فغسل نفسه ؟ وهل من صحابة رسول الله من فعل هذا ؟  
وهل غسل النبي الكريم نفسه ؟ وهل أوصى بالآل يغسل ، وهو الطاهر  
المطهر ، جسداً وروحاً ؟

ولسكنه الشيطان ، وما له من سلطان على أوليائه !  
فهل يترك المتصوفة هذه البدعة ؟ وهل يدعون المرتضى حيث هم في عالمهم  
البرزخى ، الحاجز بينهم وبين الدنيا رآهلها ؟  
وهل تهدم هذه القباب المقامة على الأموات ، حتى لا تكون راية  
ضلال ، تفسد عقيدة المؤمنين ، وتفتال دينهم ؟  
إن أصحاب هذه القباب ، لو كان لهم أن يرجعوا إلى هذه الدنيا  
وهيئات ، وهيئات — لقطعوا أيدي من أقاموها ، ولألبوا بالسياط ظهور  
من يقضرون إلههم ويقمسحون بأضرحتهم ! !

#### الحقيقة العاشرة :

من بدع المتصوفة ، هذه الأذكار التي يجتمعون عليها ، ويرددون فيها

ألفاظاً وعبارات ، وهم قائمون على أقدامهم ، يترنحون شمالاً ويميناً ،  
وأماماً وخلفاً على التصفيق بالأيدي ، أو الضرب على الدفوف ، أو النفخ  
بالمزامير ، وعلى رأس الجماعة شيخ يثشد أشعار الوله ، والنزل ، والحب ،  
فتأخذ الجماعة لذلك نشوة صارخة وسكرة معرودة ، وإذا كل واحد منهم  
يصرخ صرخات مجنونة ، مدعياً أنه في حالة وجد ، أو تواجد مع الله ..  
وما درى أنه مع الشيطان !

فذكر الله ، إنما هو بتلاوة القرآن الكريم ، أو الاستماع إليه ، بألسنة  
طاهرة ، بقلوب مطمئنة ، وسقول مقعدة ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وإذا  
قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » ( الأعراف : ٢٠٣ )  
ويقول سبحانه : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » ( الإسراء : ٩ ) ..  
ولا هداية إلا بتلاوة آيات الله ، وتدبرها ، وعلم بما تحمل من أنوار الحق ،  
ثم عمل بما تحمل !

وإنه ليس من ذكر الله في شيء ، لذا كان هذا الذكر صراخاً وعويلاً  
يستهلك قوى الإنسان ، ويذهب بوعيه ، ويهدد وحدة مشاعره ، والله تعالى  
يقول : « واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ، ودون الجهر من القول  
بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » ( الاعراف : ٢٠٤ ) . ويقول  
سبحانه : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً »  
( الإسراء : ١١٠ ) ..

إن ذكر الله سبحانه ، هو مناجاة بين العبد وربّه ، ولا تكون المناجاة  
أبداً صراخاً وصياحاً ..

روى مسلم في صحيحه ، عن أبي موسى الأشعري - رضى الله عنه -  
قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فجعلوا (الناس) يجهرون  
بالعكبر ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اربعوا هلى أنفسكم (١)  
إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم » .  
فهذه البدع من الصوفية . إنما هى للفت الأنظار إليهم ، والاعلان عنهم  
بأنهم أولياء الله ، لذا كرون له بتلك الصورة المستحدثة التى لا يعرفها إلا  
أهل الله ! !

ثم هذه الجموع الزاحفة من المقصوفة فى موالد أصحاب الأضرحة ، والتى  
ينتظم فيها أصحاب الطرق ، كما يهصف الجنود فى لقاء الأعداء - وإذا كل شيخ  
طريقة ، يتقدم أتباعه ومريديه ، راكباً بغلة أو حصاناً ، وقد زين رأسه بعمامة  
كبيرة ذات ألوان وأصباغ ، دالة على طريقته ، وإذا أتباعه من ورثته  
يتشجون بأوشحة مزخرفة ، خاصة بطريقتهم ، وبأيديهم الدفوف ، يرقصون  
على نغماتها ، ويزجون الطرق بأعلامهم ، ويزعجون الناس بضجيجهم ! !  
أف هذه عبادة من عبادات المؤمنين ؟ أو هذا ذكر من ذكر الله يذكر  
به المؤمنون ربهم ؟ وهل سبق المقصوفة إلى هذا أحد من السلف ؟  
فاذا لم يكن هذا ، فكيف براه المسلمون ولا ينسكرو به ، وإذا أنسكروه  
بالسنتهم ، فلم لا ينسكروه بأيديهم ، والدولة دولتهم ؟  
إن هذه البدع من الذكر ، والاحتشاد فى الموالد لأصحاب الأضرحة  
قد أنسكرها العقلاء ، حتى ولو لم يكونوا أهل دين ، بل ربما كانوا من المتهمين  
فى دينهم .

(١) أى ارجعوا على أنفسكم باللوم على ما انقم فيه رن روقع اصواتكم

فها هو ذا أبو العلاء المعري (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) يتسكّر هذا العبث  
الصبياني الجنوني، من المتصوفة في أذكارهم، وترنحاتهم، ومواجيدهم،  
فيقول:

أرى جيل المتصوف شرحيل فقل لهم، وأهون بالحلول<sup>(١)</sup>  
أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا إلى؟

إن أبا العلاء، يرى - بحق - أن الدين سلوك، لا رسوم، ولا صور من  
أشكال العبادات الخارجة على الدين - رياء، أو استعلاء على العامة مما  
لا يتركوه ثم ينفع الإنسان في دنيا أو دين.. إذ ليست العبادات مقصودة  
لذاتها، وإنما هي مورد لتطهير الإنسان، وتنقية فطرته مما خالطها من أهواء  
النفس، ووساوس الشيطان.. وفي هذا يقول أبو العلاء عن هؤلاء المتنطعين  
في العبادة ولا أثر لعبادتهم في خلق أو سلوك.

يقول:

أم السكتاب إذا قومت محكمها وجدتها لأداء الغرض تسكفيكاً  
لم يشف قلبك قرآن، ولا عظة وآية لو أطعت الله تشفيكاً  
إليك عني، فأخشى أن تحرقني فإنما تقذف النيران من فيسكا

إنها علة قديمة وداء تعوارته الأجيال، تلك البدعة التي ظهرت في الإسلام  
باسم المتصوف، حيث جمعت تحت جناحها أخلاطاً كثيرة من الناس..  
منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون.

ففي جماعات المتصوفة، المنافقون، والمدايسون، والمشعوذون، الذين

(١) أي ما يدعيه كثير من طوائفهم بحلولهم في الله، وحلول الله فيهم لنا

لا يعملون ، وياكلون عمل العاملين ، ويدعون إلى الزهد ، وهم في شره  
قاتل ، ويدعون إلى القناعة ، وهم لا يشبعون أبدا .

يقول أبو العلاء في ناسك المتصوفة وزايعها ، محذرا من ختله وخداعه :

رويدك قد غررت وأنت حر      بصاحب حيلة يعظ النساء  
يحرم فيكم الصهباء صباحا      ويشربها على غمد مساء  
يقول لكم غدوت بلا كساء      وفي لذاتها رهن الكساء  
إذا فعل الفنى ما عنه ينهى      فن جهتين لا جهة أساء



وبعد ، فيا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور :

هذه سموم المتصوفة ، تنفث في العالم الإسلامي تلك المهلكات التي تغتال  
العقول وتقتل المهمم ، وتعطل القوى العاملة في مناشط الحياة ، حتى تعطلت  
عندنا كثير من مرافق العمل ، وأصبحنا عائلة على أمم الغرب ، في كل  
ما نقيم عليه حياة أجسامنا وعقولنا .

ويا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور فإينا :

أما يكفي ما يساق إلينا من أعدائنا وأعداء ديننا ، من المذاهب  
الفاسدة ، والمعتقدات الضالة ، التي غررت بكثير من شبابنا ، وكادت تعزلهم  
عن الولاء لدينهم وامة دينهم ؟ أما يكفي هذا البلاء الذي يساق إلينا من  
خارج أوطاننا حتى ندع هذه البدع وتلك الضلالات التي ينشرها فينا شيوخ  
المتصوفة ، ومن يدورون في فلسكهم من ألوف المريدين والقلاميذ ، الذين  
لو تخلصوا مما هم فيه من هذا الضلال الذي وقعوا فيه ، لسكانت منهم قوة  
تبنى ما انهدم من أعبادنا ، وتقيم ما تصدع من عزتنا .

— ٣٠٠ —

هذه دعوة خالصة لوجه الله تعالى ، نؤذن بها على رؤوس الأشهاد ، لإبراء  
الذمتنا وأداء الحق الله ورسوله والساهين عايننا .  
فمن كانت له أذنان ، فليسمع ، ومن كان له مكان في هذا الميدان فليعمل .  
فالبدار البدار ، قبل أن يغلت الزمام ، ويستعصى الداء ، ويعز الدواء .  
« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم  
الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » صدق الله العظيم .  
وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين ، وسلام  
على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين ؟

## الفهرست

صفحة

٣	تقديم
	الباب الأول
	الدين والعقل
١٧	الفصل الأول : الدين فطرة
٢٩	الفصل الثاني : الإيمان والعقل
٣٨	الفصل الثالث : المسلمون .. وعلماء المسلمين
٤٣	الفصل الرابع : التقليد والمقلدون
	الباب الثاني
	إلا لله الدين الخالص
٥٣	الفصل الأول : الإيمان .. والشرك
٥٦	الفصل الثاني : الربوبية والالوهية
	الباب الثالث
	عالم التصوف والمتصوفة
٧٣	الفصل الأول : من مظاهر هذا العالم الصوفي
٧٣	— كلبة التصوف
٧٥	— التصوف والمتصوفة
٨٤	الفصل الثاني : إن الدين عند الله الاسلام
٨٤	— أمة واحدة
٨٧	-- التصوف .. إلى أين وجهته ؟
٨٩	— الدين .. والتصوف

صفحة

- أين مكان التصوف من هذا الخط الوسط ؟ . . . ٩٣
- يقول ابن خلدون في مقدمته . . . ٩٤
- الفصل الثالث : وسطية الإسلام . . . ٩٩
- لماذا التصوف والمتصوفة ؟ . . . ١٠٤

الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن

- الفصل الأول : التصوف بين الحق الباطل . . . ١١٩
- المتصوفة عور بأى العينين . . . ١٢٣
- الفصل الثانى : العناصر التى تشكل فيها التصوف . . . ١٢٥
- الفصل الثالث : التصوف ووحدة الوجود . . . ١٢٧
- ابن عربى .. ووحدة الوجود . . . ١٣٨
- ابن الفارض .. ووحدة الوجود . . . ١٤١
- الجيللى .. ووحدة الوجود . . . ١٤٢
- والغزالى أيضاً . . . ١٤٤

الباب الخامس

التصوف .. وطرأته ، ومجملاته

- الفصل الأول : نظام الطبقة فى التصوف . . . ١٥٣
- الفصل الثانى : طبقات المتصوفة .. وتصريف كل طبقة . . . ١٦١
- الفصل الثالث : خرافة القطب وأعوانه . . . ١٧٣
- يقول الكاشانى . . . ١٧٤
- ثم يقول التيجانى . . . ١٧٥
- الأولياء وخاتم الأولياء . . . ١٧٦



صفحة

١٨٣	• • • •	الفصل الرابع : من إلحاد الصوفية وكفرهم
١٩٠	• • • •	— الافتراء على الله في تأويل القرآن الكريم
١٩٤	• • • •	الفصل الخامس : السكفر هو الإيمان عند الصوفية
٢١٣	• • • •	— الصوفية والكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم
٢٢٤	• • • •	الفصل السادس : هؤلاء الجاثمون تحت الأضرحة
٢٣٠	• • • •	— المتصوفة وما يدعون على الأموات
٢٤٤	• • • •	— الألباز والمعميات في عالم التصوف
٢٤٥	• • • •	— عبادة الأوثان عند المتصوفة
٢٦٠	• • • •	الحساب الختامى : التصوف — ليس من الإسلام
٢٧١	• • • •	— ما هو موقف المسلمين من التصوف ؟
٣٠١	• • • •	الفرست





## كتب للمؤلف

التي تلتزم طبعها ونشرها وتوزيعها دار الفكر العربي

- التفسير القرآني للقرآن ١٦ كتاب في خمس مجلدات
- الله .. والإنسان
- الله .. ذاتا وموضوعا
- إعجاز القرآن « الإعجاز في دراسات السابقين »
- إعجاز القرآن « الإعجاز في مفهوم آخر »
- النبي محمد صلى الله عليه وسلم « نبى الإنسانية ونبي الأنبياء »
- القضاء والقدر بين الفلسفة والدين
- من قضايا القرآن
- عمر بن الخطاب « الوثيقة الخالدة للدين الخالد »
- علي بن أبي طالب
- الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية
- الإنسان والشيطان
- الخلافة والأمامة في الإسلام
- السياسة المالية في الإسلام
- تفسير سورة الرحمن
- القصص القرآني
- قصتنا آدم ويوسف عليهما السلام
- الدعاء المستجاب
- قضية فلسطين « رأى الإسلام عنها ورأى المسلمين فيها »
- الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته
- المهدي المنتظر .. ومن ينتظره

تطلب جميعها من ملتزم طبعها ونشرها وتوزيعها

دار الفكر العربي

داخل جمهورية مصر العربية وخارجها  
والكتبات الشيرة

المكتبة الرئيسية / ٢٦ جوار حسني بالقاهرة - ت : ٧٥٠١٦٧ - ص.ب. ١٣٠